الإسلام ... حضارة الغد

دكتور يوسف القرضاوي

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة تليفون: ٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٣٩٠٣٧٤٦


الإسلام ...
حضارة الغد

دكتور يوسف القرضاوي

الإسلام ... حضارة الغد

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

اسم الكتاب: الاسلام حضارة الغد
الطبعة: الثانية .
١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م
اسم المؤلف: دكتور يوسف القرضاوى
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة.
٢٠٨ صفحة ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع : ٥٦١٨ / ١٩٩٥
الترقيم الدولى : I.S.B.N.
977-225-077-2
اسم الكتاب: التصوير البيانى دراسة تحليلية لمسائل البيان.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقــــدمة

ربنا لك الحمد ، كما ينبغى لجلال وجهك ، وعظيم سلطانك ، وصلاةً وسلاماً على صفوة خلقك ، وخاتم أنبيائك ورسلك ، سيدنا وإمامنا وأُسوتنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، ومن سار على دربه .

أما بعد .. فقد شهد العالم حضارات متعددة فى بقاع مختلفة المكان ، وفى عصور مختلفة الزمان ، ازدهرت حيناً ثم ذبلت ، وأشرقت ثم غربت ، وأقبلت ثم أدبرت ، بعضها كان فى الشرق ، وبعضها كان فى الغرب ، وبعضها شمل قطراً أو قُطرين ، وبعضها شمل أقطاراً ، بعضها بقى قرناً أو قرنين ، وبعضها دام قرونا وأعصاراً .

ولكن العالم لم يشهد حضارة مثل الحضارة السائدة اليوم ، فقد اتسع نطاقها حتى أثّرت فى أقطار الأرض كلها ، شرقيها وغربيها ، باديها وحاضرها ، ولذا غدت توصف بـ « العالمية » وإن كان الغرب أباها وصانعها .

كما أنها ملّكت الإنسان من القدرات والوسائل ما لم تملكه حضارة من قبل ، وهيأت له من أسباب الرفاهية ومظاهر التنعم ، ما لم يتهيأ له فى تاريخه الطويل ، بل وما لم يكن يحلم به أو يدور بخاطره .

ومع هذه المكنة والقدرة الهائلة ، لم تراع هذه الحضارة فطرة الله فى الإنسان ، ولم تحافظ على الخصائص الذاتية للإنسان ، ولم تبال بمستقبل الإنسان ، ومصير الإنسان ، حتى غدا علم الحضارة وتقدمها ذاته خطرا عليها ، وكاد ينطبق على هذه الحضارة وأهلها ما ذكره القرآن : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخذت

الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) .

كان عيب هذه الحضارة أنها استغنت عن الله ، وعزلته عن الحكم فى ملكه ، وتصرَّفت كأنها صاحبة الخلق والأمر فى هذا العالَم . وعظَّمت كل ما هو مادى ، وهوَّنت كل ما هو معنوى ، واعتبرت التقدم فى إنتاج أكبر كمّ من السلع والخدمات ، وإشباع أكبر قدر من اللَّذات والشهوات ، ولو كان ذلك على حساب القيم والأخلاق . فلا عجب أن ضمرت روحها ، وإن كبر جسمها ، وانطفأ نورها ، وإن بقيت نارها ، فأصبحت دنيا بلا دين ، وعلماً بلا إيمان ، وتمثالاً بلا روح .

وهذا حكم على الغالب والسائد من غير شك ، فقد توجد بذور خير ، ومصابيح هداية ، هنا وهناك ، سُنَّة الله فى خلقه ، ولعلها هى التى تؤخر سقوط هذه الحضارة . ولكن العبرة بالغلبة ، وللأكثر حكم الكل ، كما قال فقهاؤنا من قديم .

وهذا هو الذى أقلق المخلصين من أهل العلم والفكر والأدب والسياسة : أن يصيب هذه الحضارة ما أصاب ما سبقها من الحضارات ، ويجرى عليها القانون الإلهى الذى لا يحابى ولا يحيف .

ونحن المسلمين نخاف على هذه الحضارة ما يخافه النُّقَّاد المخلصون من أهلها ، لأن ما فيها من خير ينتفع به الجميع ، وما فيها من شر خطر على الجميع ، ويهمنا أن نستبقى خيرها ، وأن نتفادى شرها .

ولن يكون ذلك إلا من خلال الرسالة الحضارية التى يحملها المسلمون للعالَم ، وهى رسالة ربَّانية إنسانية أخلاقية ، تتميز بالتوازن والتكامل ،

---

(١) يونس : ٢٤

وتهيىء الإنسان ليقوم بعمارة الأرض وخلافة الله ، وعبادته تعالى : بالعلم النافع ، والإيمان الصادق ، والعمل الصالح ، والتواصى بالحق والصبر .

إننا لا نريد أن نهدم الحضارة المعاصرة ، لأنها ستنهدم على رؤوس الجميع ، وإنما نريد أن نحميها من نفسها . وأن نقدم لها طوق النجاة من غرق يهددها ، ويهدد البشرية معها .

إننا وحدنا نملك البديل ، وهو الإسلام ، الذى بعث الله به جميع رسله ، وأنزل به جميع كتبه ، وارتضاه الله منهاجاً لجميع خلقه ، على أن نحسن نحن الفهم له ، والعمل به ، والدعوة إليه ، وأن نقدمه للناس نموذجاً يُرى ، لا كلاماً يقال ، وبذلك نكون الأُمة التى أرادها الله بقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [١] ، ﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً ﴾ [٢] ، [٣] .

الدوحة : ذو القعدة ١٤١٣ هـ - مايو (آيار) ١٩٩٣ م

د . يوسف القرضاوى

---

(١) البقرة : ١٤٣ (٢) الكهف : ١٠

(٣) أصل هذا الكتاب بحث قُدِّم للمجمع الملكى لبحوث الحضرة الإسلامية بعمّان فى دورته التاسعة المنعقدة فى صيف سنة ١٩٩٣ ، ولكنى كنت حذفت منه الفصل الثانى اختصاراً ، والآن أعيده إليه ليكتمل البحث ، كما اضفت إليه بعض الفقرات فى بعض المواضع ، تتميماً للصورة ، وخصوصا بعد انعقاد مؤتمر السكان بالقاهرة فى سبتمبر ١٩٩٤

الفصل الأول

روح الحضارة المعاصرة

وخصائص فكرها

- روح الحضارة المعاصرة .
- الجذور الفكرية للحضارة الغربية .
- سمات الفكر الغربى وخصائصه .

روح الحضارة المعاصرة

لكل حضارة جسم وروح ، كالإنسان تماماً ، فجسم الحضارة يتمثل فى منجزاتها المادية من العمارات والمصانع والآلات ، وكل ما ينبئ عن رفاهية العيش ومتاع الحياة الدنيا وزينتها .

أما روح الحضارة فهو مجموعة العقائد والمفاهيم والقيم والآداب والتقاليد التى تتجسد فى سلوك الأفراد والجماعات ، وعلاقاتهم بعضهم ببعض ، ونظرتهم إلى الدين والحياة ، والكون والإنسان ، والفرد والمجتمع .

والحضارات الكبرى التى عرفها تاريخ البشرية تتفاوت فيما بينها فى موقفها من المادية والروحية ، فمنها ما يغلب عليه الجانب المادى ، ومنها ما يغلب عليه الجانب الروحى ، ومنها ما يسوده التوازن بينهما .

والحضارة التى تسود عالمنا اليوم هى « الحضارة الغربية » وهى حضارة لها مزاياها التى لا تُنكر ، من ناحية احترام حرية الإنسان وخاصة داخل أوطانها ، وإطلاق حوافزه وطاقاته ، حتى استطاع أن يطوع « الطبيعة » لخدمته ويُفَجِّر الذَرَّة لمصلحته ، وأن يُحلِّق فى الهواء كالطير ، ويغوص فى البحر كالسمك ، وينطلق فى الأرض كالمارد ، بل غزا الفضاء ، ووصل إلى القمر . . وإلى ثورة « البيولوچيا » وثورة المعلومات . . كما استطاع أن يصنع ذلك الجهاز العجيب الذى وفر للإنسان وقته وجهده الذهنى ، وهو « الحاسوب » ، أو الحاسب الآلى (الكومبيوتر) ، وإنما فعل ذلك كله بفضل العلم الذى اكتشف قوانينه ، وبرع فى استخدامه وتطبيقاته « التكنولوچية » مع حسن إدارة وروعة تنظيم ، وإحكام رقابة وتوجيه .

وبهذا استطاع الفرد العادى أن يعيش فى مستوى من الرفاهية يحسده عليه ملوك العصور السابقة ، الذين لم يكونوا يجدون ما يقاومون به شدة الحر ولا قسوة البرد ، ما يجده الإنسان الآن من أجهزة التكييف ، وآلات التدفئة .

وما تيسر له من الأدوات الأتوماتيكية التي تدار أو توقف بمجرد الضغط على زر صغير ، فيضاء الظلام ، أو يطهى الطعام ، أو يسخن البارد ، أو يبرد الحار ، أو يقرب البعيد ، أو ينطق الحديد ، بل من الآلات الآن ما يدار بغير أزرار ، مثل الأبواب الألكترونية ، والصنابير الألكترونية وغيرها .

ورغم هذه الإنجازات المادية الضخمة ، يقول الواقع : إن هذه حضارة لم تهيئ لأهلها السعادة المنشودة ، أو السكينة المرجوة ، إنها جسم فيل له روح فأر !

أجل .. إن عيب الحضارة المعاصرة ما يتغلغل فى أعماقها من « المادية النفعية » التي جعلتنا نقول : إنها روح الحضارة الغربية ، وأساس فلسفتها والطابع العام لها ، وجوهر فكرها الذى يميزها ، وهو ما ينبغى أن نُلقى عليه شعاعاً من ضوء فى هذه الصحائف التى نقدمها .

* *

● الجذور الفكرية للحضارة الغربية :

الحضارة الغربية المعاصرة تقوم على ركائز فكرية ممتدة الجذور ، إلى عهد اليونان والرومان ، ولا نستطيع فهم هذه الحضارة فهماً دقيقاً ، ما لم نعرف الفكر الغربى الذى استمدت منه ، وقامت عليه ، ونعرف مكونات هذا الفكر وخصائصه .

ونعنى بالفكر الغربى : « الفكر النظرى » الذى يسود الغرب الحديث فى أوروبا وأمريكا ، ولسنا نعنى به « الفكر العلمى » القائم على الملاحظة والتجربة ، بل الفكر الفلسفى الذى يحدد نظرة الناس هناك إلى الدين والحياة ، وإلى الكون والإنسان ، وإلى المعرفة والقيم . فهو يشمل الفلسفة الميتافيزيقية (ما وراء الطبيعة) إثباتا أو إنكارا .. والفلسفة الأخلاقية بشتَّى مدارسها .. والفلسفة الاجتماعية بمختلف مذاهبها وتياراتها وفروعها .

وسواء أكان هذا الفكر ليبرالياً أم اشتراكياً ، رأسمالياً أم شيوعياً ، فهو فكر غربى واحد فى الأساس والأصول ، والسمات والخصائص ، وإن اختلفت صوره وفروعه وتميز بعضها عن بعض .

أما « الفكر العلمى» القائم على المنهج الاستقرائى ، فلا اعتراض لنا عليه ، بل الواقع أن أصله مقتبس من الحضارة العربية الإسلامية التى ارتكزت عليه ، وتفوقت فى استخدامه فى شتَّى المجالات ، واعتبره العلماء المسلمون منهجا قرآنياً ، وقد شهد المنصفون من علماء الغرب ومؤرخى العلم والحضارة فيهم بأصالة المسلمين فى ذلك ، وأخذ الغربيين عنهم ، كما فى كتابات « بريفولت » و« جورج سارتون » و « جوستاف لوبون » وغيرهم من الشهود العدول [١] .

❊ ❊

● سمات الفكر الغربى وخصائصه :

هذا الفكر الغربى النظرى فكر خاص له سماته وخصائصه التى ينفرد بها عن فكر الشرق عامة ، والشرق العربى والإسلامى خاصة ، وهى خصائص عميقة الجذور ، لازمته منذ نشأته فى بلاد الإغريق ، وانتقاله منها إلى الرومان ، حتى انتقل إلى أوروبا المعاصرة ، ومن ورائها أمريكا ، وأثَّرت فيه عوامل تاريخية خلال صراعات القرون الوسطى تركت « بصماتها » عليه إلى اليوم .

١ - الغبش فى معرفة الألوهية :

أول سمات الفكر الغربى : غبش رؤيته لحقيقة الأُلوهية ، فليست رؤية صافية تُقدِّر الله حق قدره ، وإنما هى رؤية غائمة مضطربة ، تحيط بها الأوهام والجهالات ، بل الحق أن الغرب - كما يظهر من تاريخه - لم يعرف الله جلَّ شأنه معرفة صحيحة ، ولم يهتد إلى الإيمان الصحيح بخالق الكون ومدبره ، لم يعرف حقيقة الأُلوهية الكاملة العالمة القادرة المريدة البارة الرحيمة . وذلك لأنه لم يعرف النبوة الهادية ، والوحى المعصوم ، معرفة مباشرة ، فيما علمنا من تاريخه . ومن ثمَّ سار فى الطريق وحده باحثاً عن « العلّة الأُولى »

---

(١) انظر : فصل « الدين فى عصر العلم » من كتابنا « بيّنات الحل الإسلامى وشبهات العلمانيين والمتغربين » وخصوصاً ص ١٥ - طبع مكتبة وهبة بالقاهرة (١٩٩٣) .

أو « المحرِّك الأول » أو « واجب الوجود » فتعثر وتخبط ، وغلبت عليه الأوهام والأهواء .

حتى الفلاسفة الذين يسميهم تاريخ الفلسفة « الإلٰهيين » أى الذى اعترفوا بالأُلوهية فى الجملة ، مثل العمالقة الكبار : سقراط وأفلاطون وأرسطو ، الذين رفضوا الإنكار والإلحاد ، لم يكن تصورهم للأُلوهية تصوراً صحيحاً ، بل كان تصوراً قاصراً مضطرباً مشوباً بالكثير من الأوهام والتخليطات .

لنأخذ مثلاً « إلٰه » أرسطو « المعلم الأول » [1] لدى الإغريق ، لنرى أى إلٰه هو ؟ أهو الإلٰه الذى نعرفه نحن ، خالق كل شىء ، ورازق كل حى ، ومدبِّر كل أمر ، العالِم بما كان وما هو كائن وما سيكون ، الفعَّال لما يريد ، والقادر على كل شىء ؟ أم هو إله آخر غير هذا الإلٰه الذى نعرفه ؟

لنستمع فى ذلك إلى أحد مؤرخى الفلسفة المعاصرين . .

يقول « ول ديورانت » فى « مباهج الفلسفة » :

« يتصور أرسطو « الله » بوصفه روحاً تعى ذاتها ، وهذه هى الأُخرى روح غامضة خفية ، وذلك لأن إلٰه « أرسطو » لا يقوم أبداً بأى عمل ، فليست له رغائب ولا إرادة ولا غرض ، وفاعليته نقية خالصة ، إلى حد تجعله لا يفعل أبداً ، وهو كامل كمالاً مطلقاً ، لذلك ليس بمقدوره أن يرغب فى أى شىء ، ولذلك لا يعمل أى شىء ! ووظيفته الوحيدة هى التأمل فى جوهر الأشياء ، ونظراً لأنه هو بالذات جوهر جميع الأشياء ، وشكل جميع الأشكال ، لذلك فإن عمله الوحيد هو التأمل فى ذاته . يالإله أرسطو من إلهٍ مسكين ! نه ملك ، لا يحل ولا يربط ، فالملك يملك ولكنه لا يحكم !

« ولا غرو أن يحب الإنجليز « أرسطو » فإلهه هو ـ بوضوح ـ صورة طبق

---

(١) هكذا أطلقت عليه المدرسة الفلسفية المشائية فى الحضارة الإسلامية : الفارابى وابن سينا ومَن وافقهما .

الأصل عن ملكهم . أو أن ملك هؤلاء هو نسخة عن إله أرسطو بالذات » [1] .

وإذا كان إله أرسطو سكيناً ، لأنه لا يستطيع أن يحل ولا يربط في الكون ، فأشد منه مسكنة إله أفلوطين - الذي تُنسب إليه الأفلاطونية الحديثة - فإنه لا يتأمل في شيء ، حتى في ذاته نفسها !! [1] .

❊

٢ - النزعة المادية :

ومن سمات الفكر الغربي : المادية ، ونعني بها تلك النزعة التي تؤمن بالمادة وحدها ، وتُفسِّر بها الكون والمعرفة والسلوك ، وتنكر الغيبيات ، وكل ما وراء الحس ، فهي لا تؤمن بإله خالق لهذا الكون ، ولا برسُل له ينزل عليهم الوحيَ ، ولا بروح خالدة لهذا الإنسان ، ولا بحياة أُخرى بعد هذه الدنيا ، ولا بعالَم غيبي غير هذا العالَم المنظور ، ولا بقيم مثالية فوق المنافع واللَّذات الحاضرة . لأن كل هذه الأشياء لا يشهد لها الحس ، ولا تهتدي إليها الملاحظة والتجربة .

الفكر الغربي فكر مادي ، يحتقر الروحيات .. حِسِّي . لا يحفل بالمعنويات .. واقعي ، لا يؤمن بالمثاليات .

وأود أن أُنبه أننا نحكم هنا على الغالب والسائد ، فلا يحتج علينا محتج بأن في الغرب روحيين وأخلاقيين ومثاليين ، إذ النادر لا حكم له ، والأكثر له حكم الكل ، كما هو معلوم .

وقد غلبت هذه النزعة المادية على الحياة الغربية المعاصرة ، سواء منها الجانب النظري أم الجانب العملي ، حتى أصبح معروفاً لدى الدارسين المتعمقين أن ديانة الغرب الحقيقي اليوم هي « المادية » .

---

(١) مباهج الفلسفة ص ١٦١ - ١٦٢ من الترجمة العربية .

(٢) انظر « الله » للأستاذ عباس محمود العقاد .

وربما أنكر هذه الحقيقة أو استغربها الذين ينظرون إلى الأُمور من السطح ولا يغوصون إلى الأعماق . إذ المعروف لديهم : أن أُمم الغرب فى مجموعها تدين بالمسيحية ، وينص كثير من دساتيرها على ذلك ، بل على مذهبها من كاثوليكية أو بروتستانتية ، وفرنسا تعتبر نفسها حامية الكثلكة فى العالم ، وانجلترا كانت تعد نفسها حامية البروتستانتية . وقد ورثتها فى ذلك الآن الولايات المتحدة الأمريكية .

وفى ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وبلجيكا أحزاب مسيحية كاثوليكية كبيرة ، تولَّى بعضها الحكم أكثر من مرة ، وحزب المحافظين البريطانى يجعل من أهدافه إقامة حضارة مسيحية . . . . فكيف يسوغ لنا - بعد هذا - أن نشكك فى إيمان الغرب بالدين وتمسكه به ؟

ولكن لا ينبغى أن تخدعنا الصور عن الحقائق ، ولا القشور عن اللُّباب ، ولا الأسماء عن المسميات .

فالمسيحية عند هؤلاء « شعار » يرتبطون به ، و« صليب » يتجمعون حوله ، ونزهة إلى « الكنيسة » فى أيام الإجازات ، وليست « قيماً » يؤمنون بها ، و« عقائد » يخضعون لها ، ويكيفون حياتهم وفقاً لها ، ونحن نتحدث طبعاً عن الغالبية العظمى ، لا عن أفراد يُعَدون شواذ بالقياس إلى مجتمعهم ، فهم فى قومهم كحلقة فى فلاة .

فالغربى الحديث إذا كشفتَ عن جوهره الحقيقى وجدتَ انساناً لا يعرف إلا المادية ديناً ، والنفعية مذهباً .

وننقل هنا كلمة رجل أوروبى دارس عميق هو « ليوبولد فايس » النمساوى الذى اهتدى إلى الإسلام وتسمَّى باسم « محمد أسد » فى كتابه « الإسلام على مفترق الطرق » يقول :

« إن الأوروبى الحديث - بما انطوى عليه من جحود مهمل لوجود النفس

على أنها حقيقة عملية – لم يبق لهدف الحياة عنده أهمية عملية ما . لقد ترك التأمل المطلق والاعتبار فى الحياة وراءه ظهرياً .

« إن الاتجاه الدينى مبنى دائماً على الاعتقاد بأن هنالك قانوناً أدبياً مطلقاً شاملاً ، وأننا – نحن البشر – مجبرون على أن نُخضع أنفسنا لمقتضياته ، ولكن المدنية الغربية الحديثة لا تقر الحاجة لخضوع ما ، إلا لمقتضيات اقتصادية أو اجتماعية أو قومية . إن معبودها الحقيقى ليس من نوع روحانى ، ولكنه الرفاهية » ! [1] .

ثم حلل الكاتب مناهضة المدنية الأوروبية للدين ، وأعاده إلى سببين أساسيين :

أولهما : وراثة أوروبا للمدنية الرومانية ، مع اتجاهها المادى التام فيما يتعلق بالحياة الإنسانية ، وقيمتها الذاتية .

والثانى : ثورة الطبيعة الإنسانية على احتقار النصرانية للدنيا ، وعلى كبت الرغبات الطبيعية والجهود المشروعة فى الإنسان [2] .

وقد حلل الحضارة الرومانية – التى هى أُم الحضارة الغربية – تحليلاً دقيقاً ، ينبغى لنا أن نسجله ، وأن نعيه وعياً جيداً . قال :

« إن الرومانيين فى الحقيقة لم يعرفوا الدين ، وإن آلهتهم التقليدية لم تكن سوى محاكاة شاحبة للخرافات اليونانية . لقد كانت أشباحاً سُكِت عن وجودها حفاظاً للعُرف الاجتماعى ، ولم يكن يُسمح لها قط بالتدخل فى أُمور الحياة الحقيقية ، بل كان عليها أن تنطق بالرجز على ألسنة عرّافيها إذا سئلت عن مثل ذلك ، ولكن لم يكن يُنتظر منها أن تمنح البَشر شرائع خُلُقية .

« تلك كانت التربة التى نمت فيها المدنية الغربية الحديثة ، ولقد عملت فيها بلا شك مؤثرات أخرى كثيرة فى أثناء تطورها ، ثم إنها بطبيعة الحال قد

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق ، ص ٣٠ ، ترجمة الدكتور عمر فروخ ، الطبعة الثانية .

(٢) المرجع السابق ص ٤٠

حوّرت وبدّلت فى ذلك الإرث الثقافى الذى ورثته عن رومية ، فى أكثر من ناحية واحدة ، ولكن الحقيقة الباقية : أن كل ما هو اليوم حقيقى فى الاستشراف الغربى للحياة والأخلاق يرجع إلى المدنية الرومانية .

« وكما أن الجو الفكرى والاجتماعى فى رومية القديمة كان نفعياً بحتاً ، ولا دينياً - لا على الافتراض بل على الحقيقة - فكذلك هو الجو فى الغرب الحديث . . .

« إن المدنية الغربية لا تجحد الله ألبتة - أى جحوداً مطلقاً فى قوة وصراحة - ولكنها لا ترى مجالاً ولا فائدة « لله » فى نظامها الفكرى الحالى . . .

« وهكذا يميل الأوروبى الحديث إلى أن ينسب الأهمية العملية فقط إلى تلك الأفكار التى تقع فى نطاق العلوم التجريبية ، أو تلك التى يُنتظر منها على الأقل أن تؤثر فى صلات الإنسان الاجتماعية بطريقة ملموسة ، وبما أن وجود الله لا يقع تحت هذا الوجه ، ولا تحت ذاك ، فإن العقل الأُوروبى يميل بداءة إلى إسقاط « الله » من دائرة الاعتبارات العملية » [1] .

ولم ينكر « ليوبولد فايس » أن فى الغرب بعض الأفراد المتدينين ، إلا أنهم لا يستطيعون أن يقفوا أمام الموجة المادية العاتية ، أو يؤثروا فى توجيه التيار الفكرى العام . قال :

« لا ريب أنه لا يزال فى الغرب أفراد عديدون يشعرون ويفكرون على أُسلوب دينى ، ويبذلون جهود القانط حتى يوفقوا بين معتقداتهم وبين روح حضارتهم ، ولكن هؤلاء شواذ فقط .

« إن الأوروبى الحديث - سواء عليه أكان ديمقراطياً أم فاشياً ، رأسمالياً أم بلشفياً ، صانعاً أم مفكراً - يعرف ديناً إيجابياً واحداً . هو التعبد للرقى

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق ، ص ٣٤ وما بعدها .

المادى ، أى الاعتقاد بأن ليس فى الحياة هدف آخر سوى جعل هذه الحياة نفسها أيسر فأيسر . . .

« إن هياكل هذه الديانة - أى معابدها وكنائسها - إنما هى المصانع العظيمة ، ودور السينما ، والمختبرات الكيماوية ، وباحات الرقص ، وأماكن توليد الكهرباء ! وأما كهنة هذه الديانة فهم الصيارفة والمهندسون وكواكب السينما ، وقادة الصناعات وأبطال الطيران ! . وإن النتيجة التى لا مفر منها فى هذه الحال : هى الكدح لبلوغ القوة والمسرة - أى اللّذة - وذلك يخلق جماعات متخاصمة مدججة بالسلاح ، مصممة على أن يفنى بعضها بعضاً حينما تتصادم مصالحها المتقابلة .

« أما على الجانب الثقافى ، فنتيجة ذلك خلق نوع بَشرى تنحصر فلسفته الأخلاقية فى مسائل الفائدة العملية . ويكون أسمى فارق لديه بين الخير والشر ، إنما هو التقدم المادى لا غير » (١) .

وليست شهادة « ليوبولد فايس » على المدنية الغربية هى الشهادة الوحيدة ، فهناك كثيرون غيره من أبناء الغرب المسيحيين شهدوا بما شهد ، وأكدوا ما قال ، وقد نقل لنا الأستاذ أبو الحسن الندوى فى كتابه القيم « ماذا خسر العالَم بانحطاط المسلمين » عن الأستاذ « جود » الإنجليزى قوله : « إن نظرية الحياة التى تسود هذا العصر ، وتحكم عليه : هى النظرة فى كل مسألة وشأن ، من ناحية المعدة والجيب » (٢) .

وقد أجاد الصحفى الأمريكى المشهور « جون جنتر » تمثيل هذه النفسية فى كتابه « فى داخل أوروبا » بقوله : « إن الإنجليز إنما يعبدون بنك انجلترا ستة أيام فى الأسبوع ، ويتوجهون فى اليوم السابع إلى الكنيسة » (٣) !!

وهذه شهادات قديمة ، وقد ساء الوضع وتدهور كثيراً ، وكثيراً جداً ، عما

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق ، ص ٤١

(٢) ، (٣) انظر : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص ١٥٧ ، الطبعة الثانية .

شهده وشهد به هؤلاء النُقَّاد ، وقد ذكرت الإحصاءات الحديثة أن ٥ ٪ فقط من الغربيين هم الذين يذهبون إلى الكنيسة أيام الآحاد ، وإن لم يكن هذا الذهاب يعنى التدين بالضرورة .

*

٣ - النزعة العلمانية :

ومن سمات الفكر الغربى وخصائصه : النزعة العلمانية - وهى من ثمار الخصيصتين السابقتين ولوازمهما - وهى تلك النزعة التى تفصل بين الدين والدولة ، وبعبارة أُخرى : بين الدين والحياة الاجتماعية .

فالدين فى نظر الغربى علاقة بين الإنسان وربه ، محلها ضميره الذى بين جنبيه ، فإن خرج الضمير ، فلا يجوز له أن يتجاوز جدران المعبد ، أو الكنيسة ، وليس من شأنه أن يوجه الحياة بالتشريع والإلزام ، وفرض تعاليمه وأحكامه على المؤسسات التى تحكم المجتمع ، وتدير دفته من تعليم وتربية وثقافة وإعلام ، وإدارة ، واقتصاد ، وسياسة وتشريع .

وقد آمن الغرب بهذه الفكرة ، بعد صراعه المرير مع المؤسسة الدينية الممثلة فى الكنيسة ورجالها وكهنتها ، الذين زعموا أنهم يمثلون فى الأرض إرادة الإله فى السماء ، وأن رأيهم دين ، وطاعتهم عبادة ، ومخالفهم شيطان .

وللأسف كان رأيهم وفكرهم - الذى اعتبروه ديناً من عند الله - يؤيد الخرافة ضد الفكر ، والجهل ضد العلم ، والجمود ضد التحرر ، والظلم ضد العدل ، والظلام ضد النور .

أقامت الكنيسة « محاكم التفتيش » لمطاردة العلم ، ومحاكمة العقل ، ومقاومة الابتكار ، ومحاربة كل جديد ، وفعلت الأفاعيل - التى لم يعرف التاريخ لها مثيلاً - ضد العلماء والمفكرين والمخترعين ، وقتلتهم أحياءً ، وحرقتهم أمواتاً .

فلما مس الغرب المسيحى نفحة من الشرق الإسلامى ، هبَّ يدافع عن ذاته ،

ويثور على جلاديه ، ويرفض الدين الذى حرمه من الدنيا ، وحرَّم عليه العلم والتفكير ، دين الكنيسة والبابوات ، الذين يملكون قرارات الحرمان ، وصكوك الغفران ، يوزعونها على مَن يشاؤون .

رفض الفكر الغربى الناهض الدين الذى كبله بالأغلال ،ولم يسمح له بالبقاء إلا مستكناً فى الضمائر ، فإن خرج فإلى المعابد والكنائس أيام الآحاد لا يعدوها .

ولا غرو أن الغرب بعد أن أنزل الدين عن عرشه ، وعزله عن عجلة القيادة ، نهض بعد عثرة ، وارتقى بعد هبوط ، واغتنى بعد فقر ، وقوى بعد ضعف ، وهذا ما جعله يزداد إيماناً بما انتهى إليه خلال مسيرته التاريخية : أن لا مكان للدين فى توجيه الدولة والمجتمع .

ومما يؤيد هذا التوجه فى الفكر الغربى : أن الإنجيل نفسه يؤيد هذا الاتجاه ويدعمه ، حيث يقول المسيح : « دع ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » .

ومعنى هذا : أنه قبل قسمة الحياة نصفين : نصف للدولة المعبر عنها بـ « قيصر » ، ونصف للدين ، الذى هو لله .

فهذا الانشطار والانقسام والانفصام بين الله وقيصر ، أو بين الدين والدولة هو أحد السمات الأساسية لفكر الإنسان الغربى .

*

٤ - الصراع :

ومن خصائص الحضارة الغربية : أنها حضارة تقوم على الصراع ، لُحمتها وسَداها الصراع ، لا تعرف السلام ولا الطمأنينة ولا الحب .

وهو صراع متغلغل فى كل النواحى ، متنوع الأشكال ، متعدد المجالات ، متباين الأسلحة والأساليب .

إنه صراع بين الإنسان ونفسه ، وصراع بين الإنسان والطبيعة ، وصراع بين الإنسان والإنسان ، وصراع أيضاً بين الإنسان والإله !

فالإنسان فى الغرب يصارع فطرته التى فطره الله عليها ، إذا أراد أن يحيا الحياة المثالية التى تريدها له ديانته النصرانية ، فالوضع المثالى له أن يستقذر الجنس ، ويرفض المال ، لأن الغنىّ لا يدخل ملكوت السموات إلا إذا دخل الجمل سم الخياط ، ويحرم نفسه من الطيبات من الرزق ، ومن زينة الله التى أخرج لعباده ، ويتحمل السيئة من المسىء ، ويدير خده الأيسر لمن ضربه على خده الأيمن ! فإذا لم يستطع أن يفعل ذلك - كما هو شأن معظم الناس - ظل يعانى عقدة الصراع بين مثاليته التى يؤمن بها وواقعه الذى يعيشه ويمارسه .

وإنسان الحضارة الغربية فى صراع مع الطبيعة ، لأنه ينطلق من أن الطبيعة عدو له ، يجب أن يفرض سيطرته عليها ، ولهذا يُعبِّر الغربيون عن ذلك بكلمة « قهر الطبيعة » وهى كلمة لها دلالتها وإيحاؤها . على حين يرى الإسلام أن الطبيعة بكل ما فيها مُسخَّرة لمنفعة الإنسان كما فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (١) .

وهو ما عبَّر عنه النبى ﷺ أجمل تعبير وأرقه فى شأن جبل أُحُد حين قال : « أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ » (٢) .

والإنسان فى الحضارة الغربية فى صراع مع أخيه الإنسان ، وهو صراع يأخذ صوراً شتَّى .

فهو صراع بين الأفراد من أجل منافعهم الفردية المتباينة ، ولا سيما مع سيادة النزعة الفردية ، والفلسفة النفعية ، وشيوع مقولة « هوبز » : « الإنسان ذئب للإنسان » ! وقول كل امرئ بعد ذلك : « أنا وليخرب العالَم » !

---

(١) لقمان : ٢٠

(٢) رواه البخارى عن سهل بن سعد ، والترمذى عن أنس ، وأحمد فى مسنده ، والطبرانى فى الكبير ، والضياء عن سويد بن عامر الأنصارى ، وما له غيره ، وأبو قاسم بن بشران فى أماليه عن أبى هريرة ، وذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٢٣٨) ورمز له بالصحة .

وهو صراع بين الطبقات والجماعات ، وخصوصاً مع استئثار كل جماعة بالمنافع لأنفسها ، وجورها على غيرها ، واحتقارها لمن سواها .

وهو صراع بين الأُمم والأجناس ، وخصوصاً مع حدة الشعور القومى ، ونزعة الاستعلاء عند كل أُمة ، وهو ما أدّى إلى حروب إقليمية وعالمية ، وما لا نزال نرى أثره فى العلاقة بين البيض والسود ، أو البيض والملونين عامة ، فى أمريكا وإفريقيا وغيرها .

وهو صراع بين المؤسسات كالصراع بين الكنيسة والدولة ، الذى انتهى إلى ما عُرِف عندنا باسم « العلمانية » ، وتعنى : فصل الدين عن شؤون الدولة والمجتمع .

ومثله الصراع بين الدين والعلم ، وبعبارة أُخرى بين المؤسسة التى تمثل الدين وهى الكنيسة ورجال الأكليروس ، والمؤسسة التى تمثل العلم ، وهى الجامعات ومراكز البحث وغيرها . . وقد تجسَّد هذا الصراع فى محاكم التفتيش التاريخية وما قامت به ضد العلم والعلماء من مآس تشيب لهولها الولدان .

وأدهى من ذلك كله وأمرّ فى الحضارة الغربية : الصراع بين الإنسان والرب أو الإله ، وهذا فكر موروث من مصدرين رئيسيين :

١ - وثنية اليونان وآلهتها التى كانت تُغِير وتدمر وتحرق .

٢ - العهد القديم (التوراة وملحقاتها) الذى يصوِّر الإله حاقداً ناقماً غيوراً حتى إنه يخلق الإنسان (آدم) ثم يخاف منه ، ويخشى أن يزاحمه فى المعرفة أو الخلود ، فيُحرِّم عليه الأكل من الشجرة ، وهو يصارع إسرائيل ، فيصرعه إسرائيل ، فلا يفلته إلا بوعد منه لمصلحة نسله وذرِّيته !!

❊

٥ - الاستعلاء على الآخرين :

ومن سمات الفكر الغربى : نزعة الاستعلاء على الآخرين ، التى تسرى وتتحكم فى عقول الغربيين كافة ، فهم يعتقدون أنهم أفضل من غيرهم عنصراً ،

وأنقى دماءً ، وأنهم خُلِقوا ليقودوا ويسودوا ويحكموا ، وأن الآخرين خُلِقوا ليكونوا مسودين ومحكومين لهم . هكذا بالفِطرة والخِلْقة .

ولهذا سادت نظرية عندهم هى نظرية « تفاضل الأجناس » وأن الناس ليسوا سواسية ، كما نؤمن نحن المسلمين ، لأن آباهم واحد ، وربهم واحد ، بل الأجناس والعروق متفاوتة بحكم الخِلْقة ، والجنس الآرى أفضلها وأذكاها وأقدرها ، هكذاً آمن « رينان » وغيره من الفلاسفة فى القرن الماضى .

ولقد سقطت هذه النظرية من الناحية العلمية ، فلم يُثبت العلم أن هناك جنساً أفضل من جنس ، من جهة الخِلْقة والفِطرة ، ولكنها البيئة والظروف المساعدة ، وقد كانت شعلة الحضارة فى يد الشرق قديماً ، أيام حضارة الفراعنة والهنود والصينيين والبابليين والفينيقيين وغيرهم ، ثم انتقلت الشعلة إلى الغرب أيام حضارة اليونان والرومان ، ثم عادت إلى الشرق على يد الحضارة العربية الإسلامية ، ثم انتقلت مرة أخرى إلى الغرب بعد أن مسَّته نفحة من الشرق الإسلامى عن طريق الأندلس وصقلية ، ولقاءات الحروب الصليبية ، والدور الأن للشرق لا للغرب الذى أفلس فى قيادة الحضارة وإسعاد العالَم بها .

لقد سقطت نظرية تفاضل الأجناس علمياً ، ولكنها لم تسقط نفسياً ، ولا زال لها تأثيرها فى أنفس الكثيرين ، بل الأكثرين من أبناء الغرب فى علاقتهم بالآخرين .

والعجيب أن نجد رجلاً عالماً كبيراً ، مثل « د . ألكسيس كاريل » من علماء هذا القرن ، ومن الحائزين على جائزة نوبل فى العلوم ، يؤمن بتفوق الأجناس البيضاء على غيرها ، كما سننقل ذلك عنه فى الفصل القادم .

ولهذا نجد الأوروبيين يعتقدون أن أوروبا أُم الدنيا ، وأن التاريخ منها بدأ ، وإليها يعود ، وأن التاريخ القديم والوسيط والحديث هو تاريخ أوروبا وحدها . وأن الحضارة هى حضارتهم وحدهم .

وهذا ما أخذه الأوروبيون عن الرومان الذين كان العالم فى نظرهم ينقسم إلى رومان وبرابرة ، فكل مَن عداهم برابرة همج !

وقد رأينا الاستعلاء العام لدى الأوروبيين عامة ينتقل إلى أقطار منها خاصة ، كل يزعم أنه الأنقى سلالة ، والأزكى عنصراً . كما صنع « هتلر » ورفع شعار : ألمانيا فوق الجميع ، وكما فعل « موسولينى » وجماعته ، ورفعوا شعار : إيطاليا فوق الجميع ، وكما فعل البريطانيون الذين رفعوا شعار : سودى يا بريطانيا واحكمى !

فشأن هؤلاء شأن بنى إسرائيل الذين يزعمون أنهم - بجنسهم - شعب الله المختار .

تلك هى أبرز السمات والخصائص المميزة للفكر الغربى . والتى كان لها نضحها وأثرها على سلوكه وتصرفاته وعلاقاته بنفسه وبالآخرين ، وكان لها ثمار إيجابية فى بعض الجوانب ، كما كان لها آفاتها وثمارها المرة فى جوانب أخرى . وإن الغربيين أنفسهم هم الذين أبصروا هذه الآثار السيئة لهذه الحضارة المادية الصناعية الآلية ، وطفقوا ينكرون عليها ماديتها وعلمانيتها واستعلاءها وغرورها ، وشرعوا ينادون بوجوب العودة إلى الدين ، ويبشرون بمستقبل العقيدة .

وسنذكر شيئاً من ذلك فى الصحائف التالية من الفصل القادم إن شاء الله .

* * *

الفصل الثانى

آفات الحضارة المعاصرة

وآثارها على الحياة البَشَرية

- الآثار الإيجابية للحضارة الغربية .
- الآفات والآثار السيئة للحضارة المعاصرة .
  - ❊ الانحلال الأخلاقى .
  - ❊ التفسخ العائلى .
  - ❊ القلق النفسى .
  - ❊ الاضطراب العقلى .
  - ❊ الجريمة والخوف .



الآثار الإيجابية للحضارة الغربية

لا يجحد منصف أن للحضارة الغربية آثاراً إيجابية ، وثماراً طيبة فى الحياة الإنسانية . وهذا ما يلمسه كل إنسان فى نفسه ومن حوله .

لقد استطاعت هذه الحضارة - بوساطة تقدم العلوم الرياضية والطبيعية وتطبيقاتها التكنولوچية - أن تمنح الإنسان قدرات وإمكانات لم يمنحها أحد قبله ، وما كان يحلم بها فى نوم ، أو يجول بها خياله فى يقظه ، وأن توفر له بذلك وسائل وأدوات وأشياء لم تكن تتهيأ للملوك وسلاطين الدنيا من قبل .

لقد اختصرت الحضارة للإنسان المسافات ، فقرَّبت له المكان ، ووفرَّت له الزمان ، عن طريق المواصلات الحديثة : الباخرة والقطار والسيارة والطائرة ، وتطوير هذه الوسائل بصورة مستمرة حتى غدا العالَم - كما قال أحد الكُتَّاب - قرية كبرى . ولا سيما إذا أضفنا المواصلات السلكية واللاسلكية والإذاعة والتلفاز والتيلكس والفاكس وغيرها من عجائب هذه الحضارة .

بل أصبحت هذه القرية اليوم تصغر وتصغر حتى صارت أشبه بحارة أو زقاق ، ما يجرى فى أقصى طرف منه يصل إلى الطرف الآخر فى لحظات معدودة .

لقد وفر عصر الصناعة الأول بواسطة الآلة « المجهود البدنى » للإنسان ، فما كان ينسخه الإنسان بخطه وقلمه فى سنين طويلة أمست تقوم به المطبعة وأضعاف أضعافه فى دقائق ، وما كان يخيطه الإنسان بيديه بطريق الإبرة والخيط ، ويقضى فيه أسابيع أو أشهراً ، أضحت « الماكينة » تنتهى منه فى دقائق معدودات ، وما كان يحمله الإنسان من أثقال على كتفيه غدت تحمله عنه الآلات .

ثم جاء عصر الصناعة الثانى ، الذى أصبحت فيه الآلة توفر « المجهود الذهنى » للإنسان ، إنه عصر الحاسوب أو (الكومبيوتر) الذى بات يقوم بعمليات معقدة هائلة ، كان الإنسان يقضى فيها سنين وسنين ، وهو الآن

يُنهيها ، ويُظهر نتائجها فى لحظات . بل يقوم بأشياء ما كانت لتدور بفكر الإنسان ، لأنها أكبر من طاقته المعتادة .

ولقد تطور هذا الجهاز العجيب حتى أصبحت أجياله الجديدة أقل كلفة ، وأكثر قدرة ، وأصغر حجماً ، وأمسى يتدخل فى كل جنبات الحياة ، ولم يعد أحد يعيش فى هذا العصر يستغنى عنه ، فهو فى الآلات الحاسبة الصغيرة ، وفى لهو الأطفال .

وقد دخل الحياة العلمية الإسلامية ، فدخل فى علوم القرآن ، وفى علوم الحديث ، وفى اللُّغة وعلومها وآدابها ، وفى غير ذلك من العلوم الإسلامية .

وميزة هذه الحضارة أنها لا تقف جامدة ، إنها تنتقل من طور إلى طور ، انتقلت من عصر البخار إلى عصر الكهرباء إلى عصر الذَرَّة والنواة ، والألكترون ، وغزو الفضاء ، والثورة البيولوجية ، وهندسة الوراثة ، مما له انعكاسات خطيرة فى حياة الإنسان ، والتأثير على البيئة والتوازن الكونى .

ولقد أعطت الإنسان الحوافز التى تدفعه إلى الابتكار والإنتاج ، وصنعت له المناخ النفسى والعقلى الذى يشجعه على المضى ، وهيأت له الإدارة الحسنة التى تساعده على إتقان عمله ، فتكافئ المحسن ، وتعاقب المقصِّر والمنحرف ، كما هيأت له مجتمعاً ترعى فيه حرية الإنسان الفرد وحقوقه الفِطرية ، وتُصان فيه حرماته فى مواجهة ظلم الحكام وحكم الظُّلام ، وبهذا شعر الإنسان بكرامته وقيمته ، وتحرر من الخوف والذل ، فأنتج وأحسن وأفاد .

ولقد استطاع الإنسان فى ظل هذه الحضارة أن يحصل على « دساتير » تحدد حقوق كل من الحاكم والمحكوم وواجباته ، وأن تُلزم به أهل الحكم والسلطان ، وأن تجد من الضمانات ما يكفل استمرار ذلك عن طريق « الديمقراطية » التى تحكم فيها الأكثرية التى تأتى بها انتخابات حرَّة ، وقد تسقط هذه الأكثرية فى انتخابات لاحقة لتتسلم الراية منها جماعة أُخرى رضى عنها جمهور

الناس ، وبهذا تتداول السُّلْطة ، ولا تغدو حكراً على فئة أو حزب من الناس .

صحيح أن هناك قُوَى خفية هى التى تؤثر وتضغط بنفوذها وإمكاناتها ، ولكنها - مهما أُوتيت من قوة - لا تستطيع أن تُسكت صوت الجماهير ، ولا أن تفرض على الناس ما يكرهون .

هذه هى الجوانب الطيبة أو الحسنة فى الحضارة الغربية ، وكلها تتعلق بالوسائل والأدوات والآليَّات التى يستخدمها الإنسان ، وهى سلاح ذو حدين ، يمكن أن تُستعمل فى الخير ، وأن تُستعمل فى الشر ، وتقارب العالَم الذى عبروا عنه بالقرية ليس خيراً محضاً ، بل ربما جلب وراءه شراً كثيراً ، ولهذا بات العالم يخاف من الآثار المدمرة للبث التليفزيونى المباشر ، وهكذا كل الوسائل إذا لم تستخدم لغايات شريفة . وهو ما تفتقده الحضارة المعاصرة إلى حد كبير ، فهى حضارة الوسائل والآلات ، لا حضارة المقاصد والغايات ! وهو سر ما تعانيه من نقص وآفات ، وهو ما نتحدث عنه فى هذا الفصل .

* *

• الآفات والآثار السيئة للحضارة المعاصرة :

لقد ولَّدت الحضارة المعاصرة - إلى جوار آثارها الإيجابية - آثاراً سلبية ، ما برحت البَشرية تعانى ويلاتها ، وتذوق مُرّ ثمراتها .

وسنذكر هنا المعالم البارزة لهذه الآثار ، معتمدين على واقع هذه الحضارة فى ديارها الأم ، كما تُصوِّره التقارير والأرقام والمشاهدات . . .

١ - الانحلال الأخلاقى

أبرز آثار حضارة اليوم وآفاتها هو التحلل من قيود الأخلاق الذى جاءت بها كل أديان السماء ، وهدت إليها رسالات الله جميعاً .

إن الثمرة من جنس الشجرة ، وشجرة المادية النفعية السارية فى حضارة الغرب ، لا يمكن أن تُثمر خُلُقاً إنسانياً رفيعاً يمسك بناء المجتمع ، وإنما تُثمر التفسخ والتحلل الذى يهز صرح المجتمع ويزلزله ، ويهدده بالانهيار ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَالَّذِى خَبُثَ لا يَخْرُجُ إلا نَكِداً ﴾ (١) .

قال ليوبولد فايس (محمد أسد) فى كتابه السابق الذكر : « الإسلام على مفترق الطرق » :

« إننا نجد فى التبدل الأساسى الذى تخضع له الحياة الاجتماعية فى الغرب الآن تلك الفلسفة الأخلاقية الجديدة - المبنية على الانتفاع - تبرز للعيان شيئاً فشيئاً . وكل الفضائل التى تتعلق مباشرة برفاهية المجتمع المادية - كالمقدرة الفنية والوطنية والشعور القومى - هى اليوم موضع للمديح ولرفع قيمتها فوق ما هو معقول ، بينما الفضائل التى ظلت تُعتبر إلى اليوم من جهة قيمتها الخُلُقية الخالصة كالحب الأبوى والعفاف ، تخسر قيمتها بسرعة ، لأنها لا تهب المجتمع فائدة مادية محسوسة » (٢) .

وفى موضع آخر يقول : « إن العفاف والإحصان يصبحان مع الأيام خبراً ماضياً فى الغرب الحديث ، لأنهما مفروضان من طريق الخُلُق فحسب ،

---

(١) الأعراف : ٥٨

(٢) الإسلام على مفترق الطرق ، ص ٣٤

وليس للاعتبارات الخُلُقية أثر مباشر محسوس فى رفاهية الشعب المادية . وهكذا نجد أن الفضائل الخُلُقية القديمة التى يؤيدها الدين ، أخذت تُخلى مكانها بالتدريج للفضائل الغربية التى تدعو إلى حرية فردية للجسد البَشرى غير مقيدة ، أما ضبط النفس ومراقبة الملذَّات الجنسية فإنهما يفقدان أهميتهما بسرعة » (١) .

ويقول « ريتشارد لفنجستون » وكيل جامعة أكسفورد فى كتابه « التربية لعالَم حائر » :

« لو أننا كنا نبحث عن كلمة برَّاقة تصف عصرنا هذا ، لطرأت على أذهاننا عبارات عدة ، فقد نُطلق عليه : عصر العلوم ، أو عصر الثورة الاجتماعية ، أو العصر الذى خلا من المعايير الخُلُقية ، غير أن اسماً من هذه الأسماء لن يبين حقيقة العصر كاملة ، أو ينصفه إنصافاً تاماً . على أن الاسم الأخير أجدر من غيره بعض الشىء بأن يوضع موضع الاعتبار » (٢) .

وفى مكان آخر من الكتاب يقول : « لكنك إذا انتقلت من ميدان العلوم إلى ميدان الأخلاق والدين ، رأيت نفسك فى أرض قفر ، تسودها المعتقدات المزعزعة ، والمعايير الخُلُقية المحطمة ، حيث لا يزال اللُّصوص ينهبون ، ويسلبون ، ففى هذا الميدان غدا عمل القرن العشرين أن يُقوِّض أركان المعتقدات الوطيدة المستقرة ، التى سادت العصر الڤيكتورى ، فهوى أمام تلك الهجمات إيمان راسخ ، وتهشمت تحت تلك الضربات نظرة للحياة كانت فى أكثر نواحيها نبيلة سامية » (٣) .

وهذا كلام قديم ، ولا ريب أن الأُمور أصبحت اليوم أكثر سوءاً مما كانت عليه يوم قيل هذا .

* *

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق ، ص ٤٣

(٢) التربية لعالم حائر ص ١٤ ، ترجمة الأستاذ محمد بدران

(٣) المرجع السابق ص ٢٨

● **تقرير يحمل إنذاراً :**

نذكر هنا نموذجاً للانحلال الخُلقى فى الغرب ، وهو نموذج قديم يعتبر ما فيه « محافظاً » بالنسبة لما تطور إليه الحال ، وهو ترجمة حرفية لما نشرته كل صحف بريطانيا اليومية فى إبريل سنة ١٩٦٤ ، وهو موجز للتقرير الضخم الحافل بعجائب المغريات الذى أصدرته الهيئة الطبية فى كتيب تخطفته الأيدى فور صدوره فى لندن ، وهذه الترجمة ننقلها عن مجلة « المسلمون » (١) الشهرية العدد الثامن (مايو ١٩٦٤) . قالت المجلة : « أصدرت الهيئة الطبية البريطانية ، فى الشهر الماضى تقريراً موضوعه « الشباب والأمراض السرية » كانت قد عهدت بإعداده إلى لجنة تضم ممثلين للكنيسة ، وباحثين اجتماعيين ونفسيين وأساتذة جامعيين ، بالإضافة إلى بعض الأطباء ، ذكرت فيه أن « القنبلة » والخوف من التحطيم المرتقب للبَشرية ، من بين الأسباب التى دعت الشباب إلى اتخاذ « اللَّذة » مبدأ فى الحياة ، لَّذة لا تحترم ديناً ولا علماً ، ولا تُلقى بالاً لروابط الأسرة أو المسئوليات الاجتماعية ، فشريعة اليوم هى البحث اليائس عن اللَّذة .

إن الشباب يودون أن يجمعوا كل أنواع اللَّذات الحسية التى تجود بها الحياة قبل فوات الأوان ، والأدلة التى أدلى بها الشباب للباحثين الاجتماعيين والأطباء والبوليس وغيرهم من المهتمين بشئون الشباب ، تدل على أن الصلات الجنسية قبل الزواج وخارج نطاق بيت الزوجية ، أصبحت أمرا عادياً ، وقد ذكر أحد الشهود بعد أن قام بدراسة خاصة لسلوك الشباب - ولا سيما الجامعيين منهم - أن « شيوعية الجنس » أصبحت « مودة » فى السنوات السبع الأخيرة .

يقول التقرير : إن نسبة زيادة الأمراض السرية أكبر بكثير من نسبة الزيادة فى

---

(١) التى كان يصدرها الداعية الإسلامى المعروف الدكتور سعيد رمضان .

عدد السكان ، فما بين سنتى (١٩٥١ - ١٩٥٢) زاد عدد السكان بنسبة ٦ ٪ بينما زادت نسبة الأمراض التى تنتقل عن طريق الصلات الجنسية بنسبة ٦٣ ٪ ، والأطفال غير الشرعيين زادوا من ٦ر٤ ٪ إلى ٦ر٦ ٪ فى انجلترا وويلز ما بين (١٩٥٥ - ١٩٦٦) . وأما فى لندن فالزيادة من ٧ر٧ ٪ إلى ١٤ر١٠ ٪ ويُعزى سبب الزيادة إلى التغيير الكبير الذى طرأ على نظرة المجتمع للقيم الأخلاقية عامة ، والمتصلة فيها بالجنس خاصة ، ومن بين أسباب هذا التغيير تناقص أثر الدين ، وفقدان الأمن فى الحياة الجديدة ، وفشل التربية والتوجيه الأبوى ، وقصور التربية الجنسية ، وما دامت الفوضى الجنسية نذيراً بانهيار اجتماعى ، فلا بد من إعادة الاهتمام بالتربية المنزلية .

والحل الذى نراه هو : « إحداث تغيير جذرى فى المجتمع ذاته » وقد عدت الجمعية شرب الخمر ، وأندية « الجاز » والحفلات الساهرة ، من بين العوامل التى قادت إلى الفوضى الجنسية بين الشباب ، والجمعية تؤكد أنه لا حل غير « العفة » إذ أن العفة وحدها هى الضمان ضد الأمراض التناسلية والحمل السفاحى ، فإن ثلث الفتيات اللائى يتزوجن قبل العشرين ، يتزوجن « وهن حاملات »!! كما تقترح اللّجنة على الحكومة تكوين لجنة للنظر فى أمر الأدب المكشوف لصلته المباشرة بهذا الموضوع .

ولكن هل استجاب المجتمع ومؤسساته لهذا النداء المخلص فى بريطانيا أو فى غيرها ؟ . . هل وجدت الدعوة للعودة إلى « العفة » قبولاً ؟

الواقع أن المجتمع الغربى كله يزداد سوءاً ، وينتقل من سيّء إلى أسوأ ، وقد كنت فى زيارة للندن منذ بضع سنوات ، وكان معى صديق معه أسرته ، فذهب يوماً إلى حديقة « هايد بارك » الشهيرة ، ومعه طفلته الصغيرة ، فوجد شاباً مع فتاة فى وضع جنسى مكشوف ! فسألته الطفلة : ماذا يعمل هؤلاء يا أبى ؟ قال : هؤلاء حيوانات ! فقالت الابنة ببراءة : وماذا يفعل هؤلاء الحيوانات ؟ ولم يستطع الأب أن يجيب ، وفرَّ من المكان إلى مكان آخر ،

فوجد مشهداً أقبح من الأول ، فاسرع الرجل بابنته عائداً إلى الفندق الذى يقيم فيه ! وما زالت الصحف والمجلات والكتب تُمِدنا بالعجائب والغرائب مما يحدث فى عالَم الحضارة المادية الاستهلاكية .

والبلاد الأوروبية الأخرى أسوأ من بريطانيا ، وأمريكا كذلك .

ما زلنا نقرأ عن انتشار الشذوذ الجنسى ، إلى حد مهزلة أو مأساة « زواج الرجال بالرجال » أو « زواج النساء بالنساء » ، وأن بعض الكنائس باركت ذلك ، وأن بعض القسس قام بمباركة هذه العقود الدنسة !

هذا بالرغم من ظهور ذلك الوباء الذى أصبح حديث العالَم ، ومشغلة الأوساط الطبية والعلمية ، وهو ذلك المرض الذى يُفقد صاحبه المناعة ، ويجعله فريسة سهلة لأى « ميكروب » أو « ڤيروس » يفتك به ، دون أن يجد من داخل الجسم الجند الطبيعى للمقاومة ، فقد قضى التحلل والشذوذ وانتشار الفاحشة - ظاهرة وباطنة - على هذا الجند الذى جهّز الله به كيان الإنسان . إنه المرض العضال ، الذى أعياهم دواؤه ، وهو ما يعبر عنه الإنجليز بـ « الإيدز » والفرنسيون بـ « السيدا » .

وما زلنا نقرأ عن انتشار أفلام الجنس والمخدرات والسموم البيضاء بصورة أذهلت كل مَن يزور هذه البلاد حتى من الموالين للغرب فكراً واتجاهاً .

* *

● وثيقة مؤتمر السكان بالقاهرة تجسيد لانحلال الحضارة :

ولقد برز التحلل الذى أُصيبت به الحضارة المعاصرة بصورة حيَّة ومجسَّمة ، فى « المؤتمر العالمى للسكان والتنمية » الذى عُقِد أخيراً فى القاهرة (من ٥ إلى ١٣ سبتمبر ١٩٩٤) ، برعاية « هيئة الأُمم المتحدة » وتنظيمها ، وخصوصاً فى « الوثيقة » التى أعدتها أمانة الهيئة بوصفها مشروع برنامج المؤتمر .

ولقد أثارت هذه الوثيقة وبنودها العالَم الإسلامى كله ، وصدرت بيانات

ـدة من هيئات كبرى مستنكرة لها ، مثل مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، لجنة الفتوى به ، وبيانات النقابات والجماعات الإسلامية المختلفة ، مما جعل ئيس الجمهورية في مصر يُعلن أنه لن يقبل أى بند يتعارض مع الدين والقيم الشرائع الإسلامية .

كما أصدرت هيئة كبار العلماء بالمملكة السعودية بيانها المندد بالوثيقة توجهها ، وطلبت إلى المسلمين مقاطعة المؤتمر ، وكذلك بيان رابطة العالَم لإسلامى .

وقاطعت عدة دول إسلامية المؤتمر ، كما هاجم بابا الفاتيكان المؤتمر ما ينطوى عليه برنامجه من اعتداء على حق الحياة بإباحة الإجهاض ، وإقرار علاقات غير المشروعة .

ولقد جهدت الدول الإسلامية جهدها لتغير من الوثيقة واتجاهها ، ولكنها م تستطع أن تُعدِّل فيها إلا تعديلات طفيفة ، وبقيت الوثيقة كما هى ، ممثلة لحضارة السائدة ، ودولها المهيمنة ، فقد تجلَّت فيها « الإمبريالية الثقافية » لجديدة ، بعد سقوط الإمبريالية العسكرية والإمبريالية السياسية .

كل ما استطاعت الدول الإسلامية ، ومعها بعض الدول الكاثوليكية ، ن تصنعه : أن أضافت فى ختام الوثيقة جملة تقول : « إن من حق كل دولة ن تطبق هذه الوثيقة فى إطار قيمها الدينية والأخلاقية والثقافية غير ملتزمة بما خالف قيمها وشرائعها وتقاليدها » .

ومن حقنا - بل من واجبنا - أن نُلقى شعاعاً على أهم البنود التى تخالف بها الوثيقة القيم الأخلاقية التى نادت بها الأديان السماوية عامة ، وأكدها لإسلام خاصة :

١ - إن الوثيقة لم تذكر اسم « الله » جلَّ وعلا قط ، لا فى أولها ولا فى سطها ، ولا فى آخرها . فلا عجب أن تخلو من أى نفحة من نفحات لإيمان بالله تعالى ، وبرسله ، وبلقائه ، وحسابه فى الآخرة ، فهى صادرة

عن روح مادية حِسِّية غليظة ، عبَّرت عن نفسها بجلاء فى إسقاط القيم الإيمانية والأخلاقية ، وصدق الله العظيم : ﴿ وَالَّذِى خَبُثَ لا يَخْرُجُ إلا نَكِداً ﴾ [1] .

٢ - ربطت الوثيقة بين زيادة السكان وبين الفقر واستحالة التنمية ، ولذا ترى أن الحد من النمو السكانى - وخصوصاً فى العالَم الثالث - هو الطريق الأمثل - بل الطريق الأوحد ، لتحقيق التنمية ، ورفع مستوى المعيشة ، متجاهلة الأسباب الحقيقية وراء كل ذلك ، مثل السباق المسعور على التسلح ، وإنفاق المليارات فى إنتاج السلاح ، وترويجه ، وإشعال الحروب المحلية والإقليمية ، والمساعدة على عدم الاستقرار السياسى ، والمذابح الجَماعية ، ونحوها ، بالإضافة إلى إسراف العالَم المتقدم فى استهلاك الموارد والطاقات ، والاستغراق فى اللَّذة والمتعة ، على حساب فقراء العالَم ، فالعالَم المتقدم يمثل أقل من ربع سكان العالَم ، ولكنه يستهلك نحو ثلاثة أرباع موارده وطاقاته .

يقول المفكر الفرنسى المسلم « روجيه جارودى » معلقاً على المؤتمر :

« يأتى الأغنياء إلى القاهرة تحت غطاء الأُمم المتحدة - التى يتسلط عليها القادة الأمريكان - ليقولوا للفقراء : لا تُنجبوا بعد الآن أطفالاً ، كى نستطيع الاستمرار فى نهبنا وإسرافنا » !

ويوجه « جارودى » خطابه إلى الغربيين قائلاً : « إذا كنتم تزعمون أن الأرض لا تستطيع إطعام جميع الناس ، فلماذا تُجبر الولايات المتحدة أوروبا على تبوير ١٥ ٪ من أراضيها الصالحة لزراعة القمح ، لولا أنها تريد الإبقاء على صادرات وأسعار القمح الأمريكى على مستواها ، وذلك على حساب الجياع من الناس » ؟ !

ثم يقول : « القنبلة الديمجرافية (السكانية) خدعة لترسيخ الاستغلال ،

---

(١) الأعراف : ٥٨

إن ما يهدد الكرة الأرضية ليس هو تزايد أطفال العالَم الثالث ، ما يهدد الموت هو نموذج نموكم الجنونى ، الذى ما فتئتم - منذ خمسة قرون - تحاولون فرضه على الكرة الأرضية بأسرها ، بواسطة الاستعمار (فى البداية) ، ثم بواسطة صندوق النقد الدولى (فى النهاية) .

« إن تخصيب الصحراء من داكار (فى السنغال) إلى مقديشو (فى الصومال) بواسطة شبكة مضخات مائية تعمل بالطاقة الشمسية ، يكلف ١,٥ ملياراً ونصف مليار دولار ، أى ما يعادل تكلفة حاملة طائرات !

« إن مؤتمر القاهرة يجب ألا يسمح بصلب الإنسانية على صليب من ذهب لمحاولة الإبقاء على مثل علاقات القوة هذه بين أقلية مالكة وأكثرية مستغَلة » ! [١] .

أما منظمة الاتحاد الدولى للحفاظ على حق الحياة ومقرها سويسرا ، فقد وزّعت منشوراً تقول فيه : يزخر الكون بموارد لا تنضب ، ويجب أن نعمر الكون بالبَشر لإنقاذ أنفسنا وكوكبنا .

٣ - ترى الوثيقة أن السبيل إلى الحد من النمو السكانى يتركز فى جملة وسائل :

(أ) منها : إباحة الإجهاض ، بجعله أمراً مشروعاً قانوناً على مستوى العالَم ، بهذا تقر الوثيقة المذبحة البَشرية السنوية التى يذهب ضحيتها حسب إحصاءات الأُمم المتحدة ٥٢ مليوناً من الأجنَّة فى بطون أُمهاتها : ٢١ مليوناً فى السر ، ٣٢ مليوناً فى العلانية .

والأديان كلها تحترم حق الحياة لهذا المخلوق الضعيف : الجنين فى بطن أُمه ، والإسلام خاصة شدَّد فى ذلك ، حتى إنه لا يُجيز إعدام القاتلة الحامل ،

---

(١) نشرت هذه الكلمات وغيرها صحيفة « العرب » القطرية ، نقلاً عن « رويتر » صبيحة الثلاثاء ١٣/ ٩/ ١٩٩٤ . وسننقل الكلمة كلها فى الباب الثالث من هذا الكتاب .

حفاظا على جنينها ، فإن كان للشرع سبيل عليها ، فليس له سبيل على ما فى بطنها ، ولا يجيز التخلص منه ولو كان من سفاح .

وإباحة الإجهاض بإطلاق تعنى إطلاق العنان للتحلل والإباحية الجنسية التى ترفضها كل الديانات والقيم السماوية .

وقد استخدم واضعو الوثيقة تعبيرات متعددة لإباحة الإجهاض منها :

(١) الحمل غير المرغوب فيه (يراجع نص الوثيقة ص ٢٨ فقرة ٤ - ٢٧ فى الإجراءات) .

(٢) إنهاء الحمل وتخفيف عواقب الإجهاض (ص ٤٢ فقرة ٧ - ٤ فى الإجراءات) .

(٣) الإجهاض غير المأمون (ص ٦١ فقرة ٨ - ٢٥) ، والفقرة البديلة (ص ٦٢) طالبت بإجراء تغييرات فى السياسة وعمليات تشريعية تعكس تنوع الآراء بشأن قضية الإجهاض !!

(ب) تقديم الثقافة والمعلومات الجنسية للمراهقين والمراهقات وإباحة الممارسات الجنسية لهذه الفئة فى هذا السن من خلال حقهم فى سرية هذه الأمور وعدم انتهاكها من قبل الأسرة .

وجاءت الفقرة (٧ - ٤٣ ص ٥٣) واضحة نصاً : « يجب أن تزيل البلدان العوائق القانونية والتنظيمية والاجتماعية التى تعترض » سبيل توفير المعلومات والرعاية الصحية والجنسية والتناسلية للمراهقين ، كما يجب أن تضمن أن لا تحد مواقف مقدمى الرعاية الصحية من حصول المراهقين على الخدمات والمعلومات التى يحتاجونها ، وفى إنجازها ذلك لا بد للخدمات المقدمة إلى المراهقين أن تضمن حقوقهم فى الخصوصية والسرية والموافقة الواعية والاحترام » ومعنى هذا أنه يحق لمقدمى الرعاية الصحية التدخل فى الأسرة وعزل الأبناء عن الآباء ، واتخاذ قرارات خطيرة بمعزل عن الأسرة وتوجيهها .

(جـ) شجعت الوثيقة على الممارسات التى تقع خارج نطاق العلاقات الشرعية بين الرجل والمرأة حيث فصلت الوثيقة بين الزواج والجنس والإنجاب ، واعتبرتها موضوعات متباينة غير مرتبطة بعضها ببعض ، وأقرّت كافة أنماط الأسرة بمفهومها الغربى الحديث ، دون التزام بالنواحى الشرعية والقانونية والأخلاقية ، مثل زواج الجنس الواحد ، والمعاشرة بدون عقد زواج ، وأعطت الجميع حقوقاً متساوية ، بل وطالبت باتخاذ الإجراءات الكفيلة بجعل ذلك قانونياً كما جاء فى الفقرة (٥ - ٢ ص ٢٩) : الأهداف (أ) وضع سياسات وقوانين تقدم دعماً للأسرة وتُسهم فى استقرارها ، وتأخذ فى الاعتبار تعددية أشكالها .

وفى صفحة (٣٠ فقرة ٥ - ٥) دعت إلى **القضاء على التمييز فى السياسات والممارسات المتعلقة بالزواج** وأشكال الاقتران الأُخرى .

وفى صفحة (٦٤ فقرة ٨ - ٣١) دعت الوثيقة إلى **التدريب على الترويج للسلوك الجنسى المأمون** والمسئول ، بما فى ذلك العفة الطوعية واستخدام الواقى الذكرى (الرفال) ، وبهذا نادت الوثيقة بحرية ممارسة الجنس للجميع بدون أى التزام قانونى أو شرعى أو أخلاقى ، ما دامت تلك الممارسات آمنة صحياً ! بل وجعلت كذلك أهدافاً وإجراءات لتعزيزه ، حيث طالبت بتجنيد الأجهزة التشريعية والتنفيذية والإعلامية والثقافية والتربوية لتبنيه ونشره .

ودعت الوثيقة إلى **إلغاء القوانين** التى تحد من ممارسة الأفراد لنشاطهم الجنسى بحرية واختيار ، بل وطالبت بمساعدة الحاملات من السفاح ، واعتبار ممارسة الجنس والإنجاب حرية شخصية ، وليست مسئولية جَماعية .

(د) تقديم **الوسائل المأمونة لمنع الحمل** ، ونشر استخدامها ، وتوفيرها ، وتقديم المعلومات الخاصة باستخدامها كما ورد فى صفحة (٤٣ فقرة ٧ - ٨) : يجب على هذه البلدان أن تقوم بنفسها بإعطاء أولوية أكبر لخدمات « الصحة

التناسلية والجنسية » بما فى ذلك توفير مجموعة شاملة من وسائل منع الحمل ، كما ورد تأكيد ذلك فى (ص ٥٠ فقرة ٧ - ٣١) .

ومن هنا تكون الصورة الحقيقية لهذه التوصيات إباحة العلاقات الجنسية خارج نطاق الزواج ، مع تأمين هذه العلاقات بإعطائها حق السرية وعدم انتهاكها ، وكذلك بالوسائل المانعة للحمل حتى تكون مأمونة العواقب ، وفى حالة حدوث الحمل غير المرغوب فيه فيعالَج بـ « الاجهاض » المأمون ، وكذلك الحيلولة دون حدوث الزواج المبكر ، وهذا يعنى تنفير الشباب عن الزواج بما يكتنفه من مسئوليات ، وخاصة فى الدول النامية ، مما يؤدى إلى انحلال المجتمع ، واختلال العلاقات الاجتماعية والأُسرية ، وشيوع الفوضى الجنسية .

٤ - كما يُلاحَظ على الوثيقة أنها لم تذكر أو تراع فيما تضمنته من مشروع لتوصيات المؤتمر أى اعتبار للجوانب الدينية والأخلاقية والتراثية أو للأعراف والتقاليد السائدة فى معظم دول العالَم باختلاف دياناته رغم حساسية وخطورة الموضوع ، حيث يتعلق بالأُسرة كخلية أساسية للمجتمع .

فالوثيقة بهذه الصورة تقضى على شكل الأُسرة ، وتجعل من المجتمع عبارة عن أفراد ليس بينهم أى رابط من الروابط الأخلاقية والاجتماعية والدينية التى ترقى بالمجتمع ، وتُؤمِّن وجوده واستمراره ، وتحفظ كرامته ، وتحافظ على قيمه وأخلاقه [١] .

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر : بيان رابطة العالَم الإسلامى ، الذى صدر تعليقا على الوثيقة ، ووزعته الأمانة العامة .

٢ – التفسخ العائلى

ولم يقف الأمر عند انحطاط الأخلاق فحسب ، بل امتد إلى ما كان لا بد أن يمتد إليه : إلى العواطف الإنسانية النبيلة ، فغاضت منابعها ، أو كادت ، وتلوثت مياهها الصافية بجراثيم المادية الفتَّاكة ، والفردية القاتلة ، فتفككت الأُسرة وتفسَّخت روابطها ، وهى الخلية الأُولى فى البناء العضوى للمجتمع .

فلم يعد بين المرء وزوجه تلك العاطفة الكريمة ، التى عرفتها الأُسرة المسلمة ، والتى تتمثل فيما ذكره القرآن من سكينة ومَوَدَّة ورحمة [1] ، ولم يعد بين الأخ وأخيه ولا بين القريب وقريبه تلك المشاعر الحلوة التى تربط أفراد الأُسرة الواحدة ، فضلاً عن صلات الناس خارج الأُسرة .

إن تبادل المنافع والمسَّرات واللَّذات هو الرباط الفذ الذى يصل بعضهم ببعض . هذا هو الذى يربط القريب بالقريب ، والصديق بالصديق ، وإننا لنجد هذا المعنى فيما قاله أحد الساسة الغربيين : « نحن ليس لنا أصدقاء دائمون ، ولا أعداء دائمون ، ولكن لنا مصالح دائمة » .

وما قاله فى جو السياسة ينطبق على الحياة كلها عندهم .

وهل هناك أسمى وأبقى وأخلد من عاطفة الأُبوّة والأُمومة ؟ تلك العاطفة التى لم يُحرم منها الحيوان الأعجم ، بله الإنسان المُكرَّم . ولكن النزعة المادية النفعية العارمة ، طغت حتى على تلك العاطفة الرقيقة الجميلة الأصيلة ، فجعلت الآباء والأمهات يبيعون أبناءهم وبناتهم ، غير مكترثين .

---

(١) ويشير إليها قوله تعالى : ﴿ ومنْ آياته أنْ خلَقَ لكُم مِّنْ أنفُسِكُمْ أزْواجاً لِّتَسْكُنُواْ إليها وجعل بينكم مودَّة ورحمة ﴾ (الروم : ٢١) .

وحسبى أن أسجل هنا بعض ما أحفظه فى ملفات عندى مما أقرؤه فى الصحف .

من ذلك ما نشرته صحيفة « أخبار اليوم » فى كلمة لأحد رؤساء تحريرها [1] قال فيها : « قرأت هذا الأسبوع تقريراً أليماً ، نشرته بعض الصحف البريطانية ، يقول باختصار : « إن بريطانيا تنتشر فيها ظاهرة بيع الآباء والأمهات لأطفالهم . . فى سبيل شراء أشياء مختلفة : بيت صغير ، أو تليفزيون ، أو ثلاجة كهربائية ، والذين باعوا أطفالهم بيعاً خلال سنة ١٩٥٩ فى بريطانيا وصل عددهم إلى ثلاثة آلاف » .

« ويقول التقرير مفصلا : « إن الآباء والأمهات الذين باعوا أولادهم كلهم أزواج شرعيون ، وليسوا من المطلقين والمطلقات أو الأرامل .

« وأغلب الحالات تبدأ فى فترة الحمل ، أى قبل ولادة المولود . . وذلك عن طريق اتصالات خاصة ، يقوم بها الآباء والأمهات بوساطة أصدقائهم أو أقاربهم ، حتى يعثروا على الأسرة التى ترغب فى تبنى طفلة أو طفل .

« وقد اعترف القائمون على الجمعيات التى ترعى الأطفال غير الشرعيين بأن كثيراً من الآباء والأمهات اتصلوا بهم ، وعرضوا عليهم أن يتركوا لهم أطفالهم المنتظرين ، كأطفال غير شرعيين ، بحيث يسهل تبنى الآخرين لهم ، . . . ولكن الجمعيات رفضت بالطبع ! أى أن الآباء والأمهات فى هذه الحالة تحملت نفوسهم أن يُدرج أولادهم الشرعيون فى كشف الأولاد غير الشرعيين ! كما ظهر أن هناك حالات باع فيها الآباء والأمهات أطفالهم حتى بعد ولادتهم . . أطفال تتراوح أعمارهم بين شهر وعشرة أشهر . . فالأب والأم هنا يبيعان طفلاً ارتبطا به نفسياً ومعنوياً مدة عشرة أشهر !!

---

(١) أحمد بهاء الدين فى ٢٦/١٢/١٩٥٩ .

« ثلاثة آلاف طفل وطفلة تم بيعهم بهذا الأسلوب خلال سنة ١٩٥٩ فى بلاد راقية غنية متقدمة هى بريطانيا !

« وأسفر البحث الاجتماعى عن أن السبب هو « أن الآباء لا يستطيعون الانتقال إلى شقة أوسع بنفس المستوى .. أو أنهم فى حاجة إلى شراء تليفزيون أو ثلاجة .. أو فى حاجة إلى امتلاك بيت صغير » !!

أرأيت كيف هبط الإنسان ؟ وكيف خبت جذوة العواطف الإنسانية الرفيعة ؟ إن هذا التقرير الخطير يعلن أن الآباء والأمهات لم يبيعوا فلذات أكبادهم طلباً لغذاء يسد جوعتهم ، ولا لكساء يستر عورتهم ، ولا لضرورة من ضرورات الحياة ، بل باعوهم من أجل أشياء كمالية ، يعيش كثير من خلق الله بغيرها . من أجل ثلاجة أو جهاز تليفزيون . فما أغلى المبيع وما أرخص العوض !!

وفى المجتمع الغربى ظهرت مشكلة الأولاد المحرومين من عواطف الأُمومة والأُبوة بسبب خروج الأبوين معاً للعمل ، وهو ما أطلق عليه بعض الكاتبين عنوان : « أطفال بلا أُسر » !

وهناك ظاهرة ما يسمى بـ « البيوت المنهارة » وسببها الاختلاط الحر بين الجنسين ، فتكثر حوادث الطلاق ، ويحرم أولاد هذه البيوت من التربية الوالدية والإشراف الفطرى للأبوين ، فتهتز شخصياتهم منذ البداية ، ويصابون بأمراض نفسية - رغم تمتعهم بالصحة البدنية - فيشعرون بالملل ويميلون إلى العنف ، ويهربون من المدرسة .... إلخ ، وقد فشلت تدابير علماء النفس لعلاج هذه الظاهرة المرضية التى تتزايد يوماً بعد يوم .

وليس فقدان العواطف مقصوراً على الصغار ، بل الكبار يعانون الحرمان من عواطف الحب الصادق ، والصداقة الخالصة ، والعطف الذى لا تكلف فيه ، ولا مقابل له من أغراض الحياة .

ولعل هذا ما جعل الناس يقتنون الكلاب ، ليُفرغوا فيها بعض عواطفهم من ناحية ، ويتمتعوا بصداقتها ، ووفائها من ناحية أُخرى ! فهى لا تفارقهم

عادة ، كما يفارقهم أبناؤهم وأحفادهم ، كما أنها لا تغدر بهم ، كما يغدر بهم بعض أصحابهم وأصدقائهم ، الذين أحسنوا الظن بهم فى يوم من الأيام !

وفى تقرير فرنسى من عدة سنوات ذكر : أن فى فرنسا سبعة ملايين من الكلاب فى شعب عدده ٥٢ مليوناً ، وتعيش هذه الكلاب مع أصحابها كأنها من أقاربهم ! ولم يعد غريباً فى مطاعم باريس أن نشاهد الكلب وصاحبه يتناولان الطعام على مائدة واحدة !

سئل مسئول بجمعية رعاية الحيوان بباريس : لماذا يعامل الفرنسيون كلابهم مثلما يعاملون أنفسهم ؟

أجاب : لأنهم فى حاجة إلى أن يُحِبوا ، وأن يُحَبّوا ، ولكنهم لا يجدون بين الناس مَن يحبونه ولا مَن يحبهم !!

حدثنى بعض الإخوة الذين درسوا فى الغرب ، وعايشوا أهله ، كيف يقضى الشيوخ من الرجال والعجائز من النساء حياة الشيخوخة ، إنها حياة موحشة لا مذاق لها ولا معنى .

قد يتوافر فيها الجانب المادى للمعيشة من جانب الدولة ، أو من مَورد الشخص ، أو من مساعدة أولاده ، ولكنها مقفرة من المعانى الإنسانية ، فقد عوّدوا الأبناء والبنات منذ البلوغ أن يمضى كل منهم لحال سبيله ، ولا علاقة للأُسرة به ، كما لا علاقة له بالأُسرة ، فالفتى يبحث عن صديقة ، والفتاة تبحث عن صديق ، وهى صداقة متعة وجسد ، لا صداقة نفس وروح ، ولهذا لا دوام لها ، ولا استقرار معها . إنها فى الواقع علاقة ذكر بأُنثى ، لا صداقة إنسان لإنسان !

وتمر الأيام والأسابيع والشهور ، ولا يكاد يرى الأب أو الأم ابنه أو ابنته ، لهذا احتاجوا إلى يوم - يوم واحد ! - فى العام ، يُخصَّص للأُم أو للأب ،

وهو ما سموه « عيد الأُم » أو « عيد الأب » ، وقد أصبح مجرد صلة رسمية ، كل ما فيها زيارة تنتهى بهدية مادية ، وكثيراً ما تُرسَل الهدية بالبريد !

هذه التربية أدت إلى تلك النهاية البائسة للأبوين فى حالة الشيخوخة .

وقد ذكر لى بعض الإخوة أن عجوزاً فى إحدى المدن الأمريكية ، كانت تعيش فى بيت لها وحدها ، ثم افتقدها الجيران بعض الأيام ، ولكن النزعة الفردية المادية لم تدفع أحداً منهم إلى السؤال عنها ، حتى انبعثت رائحة كريهة من داخل الشقة ، فقرعوا الباب ، فلم يرد عليهم أحد ، فأبلغوا الشرطة ، الذين حضروا ودخلوا البيت بطريقتهم ، فوجدوا المرأة قد ماتت منذ أيام ، ولم يشهدها أحد ، وربما كانت فى حاجة إلى إسعاف أو إغاثة ، فلم تجد حولها مَن يغيثها ، ولما بحثوا عن أسرتها وجدوا لها أولاداً وأحفاداً فى مراكز مختلفة ، ولكن كل منهم مشغول بنفسه !

* *

● العائلة الأمريكية تتقدم نحو الهاوية :

طرحت مجلة اجتماعية أمريكية [١] سؤالاً أمام قرائها عما إذا كانت الحياة العائلية فى أمريكا تواجه المشكلات ؟ فجاءت ٧٦ ٪ من الإجابات بـ « نعم » . وأعرب ٨٥ ٪ من القُرَّاء عن خيبة أملهم فى حياة زوجية سعيدة ، وطبقاً لما نشرته مجلة « نيوزويك » فى مايو ١٩٧٨ عن نتائج استطلاعها لآراء القُرَّاء حول الحياة العائلية الأمريكية ، فإن نصف الزيجات فى الولايات المتحدة تنتهى إلى الطلاق ، ليُعقد الزواج مرة أخرى ثم يحدث الطلاق . .

ويصف « رونالد كيلى » ، وهو مستشار قانونى لشئون الزواج فى الولايات المتحدة ، هذا الوضع المأساوى قائلا :

---

(١) Better Homes and Gardens

« من أكثر ما يثير الأسى فى نفسى كمستشار لشئون الزواج هو أن هناك أفراداً كثيرين متزوجين إلا أنهم يعيشون فى بيوتهم كغرباء ، فيبدو أنهم لا يشارك بعضهم بعضاً إلا فى قليل ، فالكل ينطلق فى طريقه أو طريقها ، وهم لا يتوقفون إلا للحديث فى مناسبات قليلة ، وكثيراً ما تكون هذه مناقشات حادة حول المال ، أو تربية الأولاد ، أو الجنس ، والمرء يستغرب كيف اجتمع هؤلاء فى أول الأمر » (١) .

وأصدرت مجلة « تايم » (٢) الأمريكية عدداً خاصاً فى سنة ١٩٨٦ بعنوان « رسالة إلى عام ٢٠٨٦ » ، تتخيل مختلف جوانب الحياة فى الولايات المتحدة بعد قرن ، وفى القسم الخاص بالأُسرة تقول المجلة تصف واقع العائلة الأمريكية :

« العائلة الأمريكية - التى كانت قبل خمسين سنة فقط صخرة بَنَتْ عليها البلاد معبدها - تحطمت الآن إلى ذَرَّات ، وكل ذَرَّة منها تدور فى فلكها ، والمرأة الأمريكية - التى نبذت حياة ربة البيت قبل ١٥ سنة لتبنى مكانتها فى سوق العمل - هى تحاول الآن إقامة توازن دقيق بين هذه الأشكال الثلاثة المتنافرة ، ويجد الرجل الأمريكى نفسه فى أرض جديدة ومخيفة ، وهو يعمل جاهداً للمواءمة معها . وحين ينفصل الرجل الأمريكى ، والمرأة الأمريكية - وهو ما يحدث لنصف المتزوجين هذه الأيام - فيجد الطفل الأمريكى نفسه فجأة مخذولاً ، فينمو بدون أساس يرتكز عليه » .

* *

● رجال يعيشون عالة على زوجاتهم المطلَّقات :

ومن أحدث الوقائع ، وأغرب الأنباء : ما هو واقع فى أمريكا الآن من ابتزاز

---

(١) عن كتاب « المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية » لوحيد الدين خان - ص ١٣٣ ، ١٣٤ - نشر دار الصحوة بالقاهرة .

(٢) عدد ١٩ - ديسمبر ١٩٨٦ - ص ٢٠ ، ٢١

الرجال للنساء بدعوى المساواة بين الجنسين التى طالب بها النساء فى أول الأمر ، وذلك عند وقوع طلاق الزوج الفقير أو المتوسط من زوجة غنية ، وقد كتبت عن هذه القضية الصحفية المصرية « مها عبد الفتاح » وبعثت برسالتها من أمريكا إلى صحيفة « أخبار اليوم » فى ٦/٨/١٩٩٤ تقول :

« فى الأعوام الأخيرة زادت نسبة النساء ذوات الدخول الكبيرة زيادة ملحوظة . . ممثلات . . مانيكانات . . مصممات أزياء . . مذيعات . . صحفيات . محاميات . عضوات مجالس إدارة صعدن السلم الوظيفى . . بطلات رياضيات . . سيدات أعمال وشركات وإعلانات . . والواحدة منهن ستواجه محنة فيما لو انتهت علاقتها الزوجية لسبب أو لآخر وكان الزوج أقل منها دخلاً . . سيطالبها - غالباً - أن تعوله !

وأقسم بالله أن هذا هو التعبير المستخدم اجتماعياً وقانونياً (To Support Him) وعلى ذات المستوى الذى تعوَّد عليه معها !! والقضاة يطبقون على النساء حالياً ذات القوانين التى تُطبَّق على الرجال فى حالة إعالتهم للمرأة . . فإذا كانت الزوجة هى الأكبر دخلاً فى شركة الزواج ، فلماذا لا تعول الرجل ، أو تدفع له نفقة تساعده فى حياته الجديدة من بعدها . . وما دام القانون فى معظم الولايات الأمريكية يبيح للزوجة أن تحصل على نصف ثروة زوجها ، ويظل يدفع لها نفقة طالما لم تتزوج ، فلماذا تُستثنى من ذلك المرأة ذات الإمكانيات . . إن النساء هن اللاتى دفعن إلى ذلك بفتح باب المساواة على مصراعيه . وما تفعله المحاكم الأمريكية اليوم هو تطبيق لما ينادين به . . تُردن مساواة ؟ خُذن إذن . . اشربن من كأس الرجل . . وادفعن من دم قلوبكن وعرقكن !

« ولهذا يشجعون النساء ذوات الدخول الكبيرة أن يحتطن للمستقبل ويفعلن ما يلجأ إليه الآن أثرياء الرجال خصوصاً المزواجين منهم ، وهو أن يعقدا تسوية للطلاق ويوقعان عليها من قبل الزواج !

« أى للاحتياط . . والاحتياط واجب ولا عيب فى الحذر . . وخصوصاً إذا كانت نسبة الطلاق قد بلغت ٥٠ ٪ من حالات الزواج !

« وامتدت هذه الظاهرة حتى بلغت الطبقة المتوسطة أيضاً أى ما دون الدخول ذات الستة أرقام ، عندما يكون دخل المرأة أكبر من دخل الزوج بمسافة ، كى يحق له فيما لو وقع الطلاق أن يطلب النفقة ! كل ما هنالك أن الإعلام الأمريكى لا يهتم بغير قضايا المشاهير ، وأما العاديون فالظاهرة بينهم تفشت ، والنسبة أصبحت كبيرة ولا تزال فى ازدياد .

« ولأعدد من الذاكرة فقط بعض أشهر القضايا التى تابعناها فى السنوات القليلة الماضية لمشاهير النساء اللاتى حكمت عليهن المحاكم بدفع النفقة لأزواجهن السابقين ، سنجد باقة من أشهر الشخصيات والأسماء : من مذيعة التليفزيون المشهورة التى تقدم برنامج « صباح الخير أمريكا » فى شبكة « أى بى سى » واسمها « چون لاندن » إلى الممثلة الشهيرة « چين سيمور » و« چين فوندا » و« كيم باسنجر » و« روزان » و« چون كولنز » ومصممة الأزياء « مارى ماك فادن » وغيرهن وغيرهن . . وهذا بقدر ما تستطيع الذاكرة حصره . .

« وحتى العلاقات بين اثنين من جنس واحد ، كما فى قضية لاعبة التنس العالمية « مارتينا نافراتيلوفا » ، إذ رفعت ضدها صديقتها السابقة قضية تطالبها فيها بالنفقة عن سبع سنوات عِشْرة !! انتهت القضية باتفاق ودى خارج المحكمة ، فاضطرت بطلة التنس المليونيرة أن تتنازل لها عن عزبة قيمتها عشرة ملايين دولار وعقار ، وموافقة على حق الصديقة فى نشر كتاب عن قصتهما معاً !! وبدأت الصديقة الصفيقة بأن باعت ملخصاً للحكاية إلى « جريدة ديلى ميرور » البريطانية ، وتقاضت عنها ٦٥ ألف دولار . . والكتاب حاليا فى الطريق !

« مجتمع غريب ! . . . .

« وشيء أصبح عادياً أن يقوم الزوج والذى يطلق عليه « هابى » على الطريقة الأمريكية فى اختصار الأسماء والتعبيرات والأشياء . . ويقوم الهابى

بالأتصال مع زوجته - أو بالأصح طليقته - يستعجلها لإرسال « الشيك » الذى يتضمن النفقة الشهرية ويطمئن أنه فى الطريق ، واسألوا چون ، وچان ، وچين ، وكيم ، ومارى . . . إلى آخر القائمة .

« والذى أثار هذا الموضوع لأكتب فيه هو قضية جديدة رفعها هذا الأسبوع ممثل معروف إلى حد ما اسمه « توم أرنولد » ضد زوجته الممثلة المشهورة « روزان » ، يطالبها فيها بنفقة شهرية قدرها مائة ألف دولار ، ليستطيع العيش فى نفس المستوى الذى تعوَّد عليه معها ! و« روزان » هذه هى أشهر كوميديانة فى التليفزيون الأمريكى ، وهى بذيئة اللِّسان والحركة إلى حد قد يصيب مَن يشاهدها لأول مرة - لهول ما يرى - بالسكتة ! ولكن جمهورها بالملايين وتكسب الملايين ، ولا تزال تدفع نفقة لزوجها الأسبق والذى سينضم إليه زوجها اللاحق مطالباً إياها هو الآخر بالنفقة !

« وكثيراً ما يُثار مثل هذا التساؤل على نحو ، أو آخر فى مثل هذه الحالات . . لماذا لا يحاول هذا « اللوح » (This Bum) أن يوجد لنفسه عملاً أو وظيفة يتكسب منها بدلاً من العيش على كد زوجته ؟؟ ولكن العُرف السارى صار يتقبل أو اعتاد . . وطالما قد دخلا بإرادتهما شركة الزواج وارتبطا وتعهدا على السَّراء والضرَّاء ، وأُعلنت المساواة التامة بين الجنسين ، إذن فلتدفع القادرات من النساء !

« وكل مَن يتابع الحياة الاجتماعية فى أمريكا يدرك أن هذا غالباً حال كل امرأة ذات دخل كبير وترتبط برجل ذى دخل صغير . . ستنتهى إلى يوم يطالبها فيه رجلها بالنفقة والمؤخَّر والذى منه . . ! فقد أصبحت هذه لعبة أزواج هذه الأيام . . ادعاء الفقر بحجة البطالة أو حتى بدون بطالة ، ويبادر بطلب الطلاق أو يتفقان على الطلاق ويطلب منها النفقة !

« ولأن المرأة أكثر رومانسية عادة من الرجل ، يسوءها ويثير تشاؤمها أن تفكر فى الطلاق وهى مقدمة على الزواج - لذا فهى التى تقع عامة فى فخ

زوج طمّاع ومتنطع يحلو له العيش الرغد المريح فى كنف النساء ! وكانت الوارثات المليونيرات فيما مضى هن وحدهن اللاتى يقعن فى مطبات صنف محترف من الرجال يتزوجوهن من أجل يوم الطلاق ! ومن أشهر الروايات الأمريكية فى هذا المجال ما تحوّل إلى فيلم سينما عن حياة المليونيرة « باربرا هاتون » وارثة محلات « وولورث » التى تزوجت سبع مرات من سبعة ثعالب ، أخذوا منها سبع لفات ، فماتت المسكينة وهى على الحديدة ! ومنهم مَن تزوجته لمدة تقل عن ثلاثة أشهر وكان زئر نساء كبيراً اسمه « روبيروزا » وانتهى زواج الشهرين وكسور بثروة محترمة أخذها منها فى حدود المليون دولار بأسعار ذلك الزمان ، وفوقها طائرة بمحركين وبضع الجياد المدربة على البولو ، أى حصل على مؤخَّر الصداق على الطريقة الأمريكية !

« ولكن الثمانينات والتسعينات عرفت ظاهرة النساء ذوات الدخل الكبير من وظائفهن أو مكاسبهن وأُجورهن العالية .. ومع دعاوى المساواة .. المساواة .. أخذ المجتمع الأمريكى يعتاد على هذه النوعية الجديدة من العلاقات الاجتماعية .

« وبدأت هذه الظاهرة منذ نحو عشر سنوات تنتشر وأدت إلى تغيير المعنى المعهود للنفقة ، والتى يدفعها الرجل إلى الزوجة التى يعولها ثم يفترقان بالطلاق .. فتحوّل المفهوم إلى أن يدفع الطرف الأكثر إمكانيات إلى الطرف الآخر ما يعوله ، أو يقتسم معه الممتلكات والعقارات وحسب قانون الولاية التى يعيشان فيها .

« مثلاً المذيعة المشهورة « چون لاندن » والتى يبلغ دخلها السنوى ٢ مليون دولار .. فوجئت بزوجها اللوح الطويل العريض يطالبها بنفقة إعالة ! ورفضت فى البداية ثم اضطرت للموافقة ودياً أن تعطيه شيكاً من ستة أرقام ليمضى عنها ويتركها فى حالها ولكنه رفض ولجأ إلى المحكمة فحكم له قاضى

فى نيويورك بثمانية عشرة ألف دولار فى الشهر الواحد نفقة مؤقتة لحين حصر ممتلكاتها التى اكتسبتها خلال الزواج !

« وما أن تُنشر قضية من هذه النوعية إلا وتشجع الآخرين فيجاهدوا بطلب النفقة عندما يقع الطلاق . . وهناك مسألة الرجل الذى لم يسبق له العمل قبل الزواج ولا بعده ، مثل قضية مصممة الأزياء « مارى ماك فادن » التى تزوجت من شاب عمره ٢٤ عاماً ولم يستمر زواجهما أكثر من ٢٢ شهراً بادر بعدها بطلب الطلاق والنفقة والمستحقات ، وصارت القضية تسلية الرأى العام . . فقد طالبها بنفقة سبعة آلاف دولار فى الشهر بالإضافة إلى مصاريف الجامعة وإيجار السكن ونفقات المحامين ، غير حصة فى شركة « ماك فادن » للأزياء باعتباره شريكاً سابقاً فى حياتها الزوجية !! وبعد عام من الأخذ والرد والقذف والاتهامات المتبادلة حكم القاضى بنفقة قدرها ٦٠٠ دولار فى الشهر لمدة أربع سنوات مع إعطائه مبلغاً على سبيل التسوية أو المؤخَّر فى حدود مائة ألف دولار عن زواج دام ٢٢ شهراً فقط لا غير !

« والمحامون المتخصصون فى هذا اللَّون من القضايا كثيراً ما يتحدثون إلى الصحف ، ويظهرون فى التليفزيون بدون ذكر أسماء موكليهم ، ويُرضون فضول الجمهور ، ويروون أن عدد الرجال من طالبى النفقة فى ازدياد ، وهم يفضلون الحصول على تسوية مرة واحدة (أى يتقاضون المؤخَّر على بعضه) لأن المرأة التى تدفع تتعمد إذلال الرجل ، وهى عادة ما تكون فى غاية « الغلاسة » معه ، وتتعمد تأخير الشيك الشهرى ليضطر أن يطلبها مرة واثنتين ، بينما الشيك « يتمخطر » فى الطريق عن عمد ، وهو على نار !

« والممثلة المشهورة « چون كولنز » كانت من أُولى النساء اللاتى احتطن للمستقبل ، وأصرت عند زواجها فى الثمانينات من شاب سويدى يصغرها بأربعة عشر عاماً أن يوقع أولاً من قبل الزواج على اتفاق الطلاق ! فقد كانت « چون كولنز » لا تزال تدفع نفقة زوج أسبق ، فقررت ألا تُلْدَغ من جحر

واحد مرتين . . وقد نفعها اتفاق الطلاق من قبل الزواج ، لأنه عندما رفع عليها الزوج السويدى قضية نفقة مستعجلة ، قدَّمت هى للمحكمة ذلك الاتفاق فرفضت طلبه ، وقد كان يطالب « كولنز » بمبلغ ٨٠ ألف دولار نفقة شهرية مؤقتة ، بالإضافة إلى نصف دخلها من عملها السينمائى والتليفزيونى خلال الثلاثة عشر شهراً زواجاً !!

« والممثلة « كيم باسنجر » اقتسمت عقاراتها مع زوجها « الماكيير » الذى تزوجته لثمانى سنوات وطالبها بنفقة لا تقل عن ١٢ ألف دولار شهرياً !

« وچين فوندا » دفعت لزوجها السابق عشرة ملايين دولار « مؤخَّر » ، لأنها كانت تكسب خلال الزواج خمسين مليون دولار فى العام من بيع شرائط فيديو الرياضة الراقصة التى اشتهرت بها (الإيروبكس) . . وبعدها تزوجت من الملياردير « تد بترز » صاحب شبكة « سى إن . إن . » وعدة شبكات تليفزيونية أخرى ، ولا أحد يعرف إن كانا قد عقدا اتفاقيات طلاق من قبل الزواج أم لا . وفى حالة وقوع الطلاق فهل ستأخذ « چين » نفقة رغم ملايينها أم ستطالب بنصف شبكاته وحصة من ممتلكاته ؟!

« وأما آخر زيجة من نوعية « زواج - طلاق وخلافه » فهى ما أُعلن عنه منذ أيام قليلة عن زواج « مايكل چاكسون » بابنة « ألفيس بريسلى » وهى الأُخرى مليونيرة ففى مثل هذه الحالة مَن الذى سيدفع منهما للآخر ؟! أصبحت هذه الخواطر تتبادر للأذهان مع كل نبأ زواج » !

* *

● **أُمهات للإيجار :**

ومن البدع الغريبة التى ابتكرتها الحضارة الغربية المعاصرة : ما عُرِف باسم « الأم المستأجرة » أو « الأُم بالوكالة » !

لقد عبث الغربيون بمعنى « الأُمومة » النبيل والجميل ، فأفسدوه .

فقد أرادوا أن يجعلوا الأُمومة مجرد إنتاج « البُيَيْضَة » فإذا لقحت البُيَيْضَة من الزوج - وأحياناً من أى رجل - استحقت بذلك أن تكون أُماً ، وإن لم تحمل ولم تضع ! كل ما عليها أن تستأجر رحم امرأة أُخرى بالدولار أو الاسترلينى أو غير ذلك من العملات الصعبة أو السهلة - لتحمل عنها وتلد لها ، دون أن تتعرض هى لمتاعب الحمل ، وأسقام الوحم ، وأوجاع الطلق ، ومشقة الإرضاع ، فماذا بقى من الأُمومة غير إفراز البُيَيْضَة ؟

إن العرب سمَّوا الأُم « الوالدة » بل سمَّوا الأب « الوالد » من باب التغليب ، وسمَّوا الأبناء والبنات « أولاداً » دلالة على أهمية الولادة فى إثبات النسب ، فالأُمومة ليست مجرد إفراز بُيَيْضَة ، وإن كان لها أهميتها فى أنها حاملة خصائص الوراثة (الچينات) ، ولكنها وحدها لا تصنع أُمومة . الأُمومة معاناة لآلام الحمل والوحم والطلق ، كما قال تعالى : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً ﴾ [1] ، ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ [2] .

ولهذا رد القرآن على الذين يظاهرون من نسائهم - أى يقول أحدهم لامرأته : أنت علىّ كظهر أمى - بقوله تعالى : ﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ، إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلا اللائِى وَلَدْنَهُمْ ﴾ [3] .

ولقد أرادت إحدى الأُمهات أن تبين أحقيتها بحضانة ابنها ، وأنها أولى بالأب منه ، فقالت : إن بطنى كان له وعاء ، وثديى كان له سِقاء ، وحجرى كان له حِواء !

فماذا تقول الأُم التى ليس لها من الأُمومة غير إنتاج البُيَيْضَة ، ولم يكن بطنها للطفل وعاء ، ولا ثديها له سِقاء ، إذ لا لبن فيه ؟! إنها لم تصنع شيئاً من أجل الأُمومة ، لم تتعب ولم تتوجع ، لم تحمل كُرْهاً ، ولم تضع كُرْهاً ، إنها عاشت مستريحة طوال الأشهر التسعة ، ثم جاءت لتتسلمه

---

(١) الأحقاف : ١٥ (٢) لقمان : ١٤ (٣) المجادلة : ٢

« جاهزاً » من الأُم الفقيرة المستأجَرة ، التى عايشت الطفل ، الذى تغذَّى من دمها ، وأثر فى كيانها وأعصابها ، فمَن هى الأُم حقاً ؟ ومَن تكون أولى به ؟

فى الحق أن هذا عمل يُحَرِّمه الإسلام ويُجرِّمه ، ولكن الحضارة الغربية لا تميز بين حلال وحرام ، بل هى لا تعرف فكرة الحلال والحرام أصلاً ، لأن هذه فكرة دينية ، وهى لا تقوم على الدين أساساً .

فلا غرو أن تحدث مشكلات من وراء هذا البِدْع الذى أحدثته حضارة الغرب ، مخالفة بذلك تعاليم أديان السماء ، وتقاليد أهل الأرض .

تقول الإحصاءات : إنه فى الفترة مابين (١٩٧٦ - ١٩٨٦) ولد ٥٠٠ طفل عن طريق الإخصاب الاصطناعى فى الولايات المتحدة ، وتوجد بها حالياً حوالى ١٢ « مركز تفقيس » لهذا الغرض ، مع احتمال انتشارها فى المستقبل ، بسبب ما يُعتقد أن ١٥٪ من المتزوجين فى الولايات المتحدة - على وجه التقريب - غير مخصبين ، وهم يعانون من العقم من وجهة نظر الطب [(١)] .

وكان « وليام سترن » وزوجته « إليزابيث » محرومَيْن من الأولاد ، فقررا استئجار رحم امرأة بُغية حصولهما على طفل ، وتعاقدا فى هذا الشأن مع « مارى وهايتهيد » مقابل عشرين ألف دولار ، فتم حقن رحم السيدة المذكورة بالسائل المنوى الخاص بالسيد « سترن » ، وحين وضعت « مارى » مولودتها ثارت أُمومتها ، فرفضت تسليم الطفلة إلى السيد « سترن » وزوجته ، وعُرضت القضية على إحدى المحاكم التى اعتبرتها قضية « عقد اجتماعى » وبناء على ذلك أصدرت حكماً بتسليم الطفلة إلى « سترن » ، وحين وصل « سترن » برفقة خمسة من رجال الشرْطة إلى منزل « مارى » - الأُم المستأجَرة - لتنفيذ قرار المحكمة هربت الأخيرة مع الطفلة من باب بيتها الخلفى ، وأُلقى القبض عليها فيما بعد فى مدينة أُخرى ، ونُزِعت الطفلة منها وسُلِّمت إلى « سترن » وزوجته .

وقد تحولت هذه القضية إلى قضية أخلاقية ، وأثارت جدلاً واسع النطاق فى الولايات المتحدة ، وقال أسقف « نيوچيرسى » : « إن أُسلوب الأُم

---

(١) مجلة « تايم » ، عدد ١٩ يناير ١٩٨٧

بالوكالة - أو « الأُم المستأجَرة » - يُحوِّل الطفل إلى سلعة استهلاكية ، والأُم إلى آلةٍ لوضع الطفل »

وقد لوحظ - بالإضافة إلى هذا - أن المرأة التى تقوم بدور « الأُم بالوكالة » وتُنجب الطفل ، تظل تعانى من مضاعفات نفسية خطيرة ، وتقول « إليزابيث كين » التى أنجبت طفلاً بتأجير رحمها : « ذكريات طفلى تقلقنى ، وقد أحتاج إلى سنوات طويلة للتغلب على مشاعرى نحوه » .

إن اتجاه التحرر الجنسى غير الطبيعى يخلق مشكلات غير طبيعية ، والوقائع المذكورة تكشف عن بعض ملامح هذه المشكلات [1] .

❊ ❊

● **النفور من الإنجاب :**

وأكثر من ذلك : النفور من فكرة الإنجاب نفسها ، وقد أمست ظاهرة منتشرة فى بلاد الغرب كلها ، فما الذى يجعل الفرد يضحى براحته ولذَّته واستمتاعه الشخصى من أجل أولاده وضرورة إعالتهم وتربيتهم وحمل همومهم ؟ وما الذى يجعله يحمل هذه التبعة الثقيلة ، وهو يملك أن يعيش وحده أو مع زوجته حراً سعيداً بلا أبناء ولا بنات يؤرقون ليله ويكدرون نهاره ؟!

هكذا يفكر الزوج ، وهكذا تفكر الزوجة فى ديار الغرب ، تفكيراً أنانياً محضاً .

حكى لى أحد الأقارب ممن كان يدرس فى بريطانيا : أن الأستاذ الذى كان يعمل معه - وهو أستاذ مرموق فى تخصصه ودخله كبير - كان يعيش هو وزوجه دون أولاد ، ولما سأله قريبى هذا عن ذلك ، قال له : أعطنى سبباً واحداً يجعلنى أفكر فى الإنجاب !

---

(١) انظر : كتاب وحيد الدين خان السابق ذكره - ص ١٤٧ ، ١٤٨

ولا أدرى كيف تعطَّل جهاز « الفطرة » عند هؤلاء الناس ؟ فغريزة حب الخلود عند الإنسان مما فطر الله عليه البشر ، والإنسان إنما يخلد فى ذُرِّيته التى تحمل اسمه من بعده .

ثم إن العدل الفطرى يقتضى أن يُعطى هؤلاء الحياة ، كما أعطتهم ، وأن يُنجبوا لها كما أنجبهم آباؤهم وأُمهاتهم ، وإلا كانوا عققة وظالمين .

هذا إلى أن موجب كلام هؤلاء ومقتضى توجههم الفردى الآنىّ أن يُطوى كتاب الحياة كلها بعد جيل واحد ، لو عُمِّمَ هذا المنطق على كل الناس ، معناه فناء البشرية كلها بفناء هذا الجيل ، وبقاء الأرض بعد ذلك للحيوانات والزواحف والحشرات ، فهل هذا ما يريده هؤلاء النافرون من الإنجاب وتبعاته ؟ أم يُحِلُّون هذا لأنفسهم ويُحَرِّمونه على الآخرين ؟!

أم إن هؤلاء يرون الحياة نقمة ولعنة ؟ فهم يرون ألا تمتد هذه النقمة إلى مَن بعدهم على نحو ما قال الشاعر العربى المتشائم :

هذا جناه أبى علىّ   وما جنيتُ على أحد !

هذا مع أن الحياة نعمة لا نقمة ، ورحمة لا لعنة ، ومنحة فى طىّ محنة ، تصقل الإنسان متاعبها ، ويصهر فى بوتقة ابتلاءاتها ، ويعد للخلود من خلال تكاليفها .

هذا هو منطق المؤمنين من « عباد الرحمن » الذين يقولون : ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ (١) .

إن شيوع هذا اللَّون من التفكير ، هو الذى جعل قادة الدول الغربية يتوجسون خيفة من قلة النسل عندهم ، على حين ينمو النسل فيمن سَمَّوهم العالَم الثالث ، وبخاصة العالَم الإسلامى ، وهو ما يخل بالتوازن العددى

---

(١) الفرقان : ٧٤

من ناحية ، ويهدد حياة السرف والمتعة التى يحيونها من ناحية أُخرى ، وهو ما عُقد له مؤتمر السكان بالقاهرة فى سبتمبر ١٩٩٤

* *

● الإعراض عن فكرة الزواج أصلاً :

وأدهى من ذلك وأَمرُّ : ما تفشَّى فى الغرب من الإعراض أصلاً عن تكوين الأُسرة ، وعن فكرة الزواج نفسها ، وما يترتب عليه من مسؤولية فى عنق كل من الرجل والمرأة ، فما الذى يجعل أحدهما يُقِّيد نفسه بشريك حياة واحد طول العمر ، وفى وسعه أن يتنقل كالطائر من فنن إلى فنن ، دون أن يدخل فى ذلك القفص ، ولو كان قفصاً من ذهب ؟ !

إن الحرية الجنسية المتاحة فى الغرب ، والدعوة إلى حل عُقَد الكبت ! والتحرر من المفاهيم القديمة التى دعت إليها الأديان ، وسقوط قيمة فضيلة العفة فى سوق الشهوات المستعرة . . جعل الكثيرين والكثيرات هناك يؤثرون حياة الاستمتاع الحر على حياة الأُسرة المقيدة ، وبذلك يتحررون من قيود الزواج وتبعاته ، ومن آثار الطلاق المجحفة بحق الزواج إذا ساءت العِشْرة بين الزوجين ، واحتاجا إلى الطلاق حلاً للأزمة .

فالغرب بعد أن تحلل من المسيحية التى حرَّمت الطلاق بتاتاً ، أو للخيانة الزوجية ، أباح الطلاق ، وأسرف فى إباحته ، ولكنه جعل للمطلَّقة نصف كل ما يملك الزوج من عقار ومنقول ، وفى هذا خراب بيت الرجل .

ولهذا يفْضِّل كثير من الرجال أن يعيشوا مع المرأة التى يحبونها بدون عقد ، فيبقى معها ما طاب لهما العيش ، ويتركها وتتركه إذا تعكر صفو الحياة بينهما ، دون أى التزام قانونى أو أخلاقى من جرَّاء ذلك .

وهذا شكل جديد عندهم من أشكال الأُسرة العصرية : العِشْرة دون زواج .

وشكل آخر هو الأُسرة من جنس واحد ، وهو ما بات معروفاً اليوم فى العالَم المتقدم من زواج الرجال بالرجال ، وزواج النساء بالنساء !!

وهو ما أجازه بعض قوانينهم ، ورحبت به بعض كنائسهم ، وباركه بعض رجال الدين عندهم ، حتى إن بعض القسس ليظهر فى التلفاز ، ويُعلن عن استعداده لإجراء هذا العقد وترحيبه بالراغبين فيه !!

أجاز هؤلاء عمل قوم لوط « اللّواط » بين الرجال ، كما أجازوا « السّحاق » بين النساء ، مناقضين فطرة الله ، ومعارضين تعاليم السماء .

وهذا الموضوع كان أحد الموضوعات الرئيسية التى أثارت المسلمين وجميع المتدينين فى مؤتمر السكان الأخير : إقرار أشكال الاقتران المختلفة ، وتعدد أشكال الأُسرة !

* *

● الأُسرة الوحيدة الجنس :

ومن الأُمور التى تعرَّض لها مؤتمر السكان الأخير فى القاهرة ، وعرضت لها وثيقته ، وأثارت جدلاً كبيراً ، بل سخطاً هائلاً لدى دول العالَم الإسلامى ، وغيره من كل مَن يؤمن بالدين وبالقيم : قضية « الأُسرة وحيدة الجنس » ، أى التى تتكون من رجلين أو من امرأتين ، على خلاف فِطرة الله ، وشرائع السماء ، وأعراف الأرض ، خلال القرون والأزمان التى عاشتها البشرية .

فالله تعالى قد خلق البَشر أزواجاً ، كما قال فى كتابه الخالد : ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ (١) ، بل الإنسان شأنه شأن الحيوان والنبات كلها أزواج : ذكر وأُنثى ، وكل جنس محتاج للآخر ، ولا تستمر الحياة إلا بذلك ، ﴿ سُبْحَانَ الَّذى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) النبأ : ٨ (٢) يس : ٣٦

بل الكون كله مؤسس على قاعدة الزوجية : الموجب والسالب ، أو الألكترون والبروتون : ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١) .

فهؤلاء الذين أرادوا الاستغناء عن الجنس الآخر : خالفوا فطرة الأحياء ، وفطرة الكون كله ، وأول مَن ابتكر هذا المنكر فى التاريخ هم قوم لوط ، الذين قال لهم أخوهم ونبيهم لوط : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ، بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ (٢) .

وصفهم هنا بالعدوان ، وفى آيات أُخرى بالجهل والإسراف والإفساد والإجرام ، وكانت عاقبة إصرارهم على جريمتهم التى عمَّتهم : أن أنزل الله عليهم عذاباً من السماء ، فجعل عالى قريتهم سافلها ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود : ﴿ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ، وَمَا هِىَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ (٣) .

وها هى الحضارة الغربية اليوم تحاول أن تُقنِّن عمل قوم لوط ، وتجعله أمراً مشروعاً على مستوى العالَم ! وتزيد على قوم لوط بشذوذ آخر هو « السّحاق » ، الذى يكتفى فيه النساء بالنساء .

ومقتضى هذه الأُسرة ذات الجنس الواحد : أنه لا إنجاب فيها بالطبع ، لا أبناء ولا بنات ، فأى معنى للأُسرة بلا أولاد ؟ وكيف تسمى أُسرة ؟

ثم مقتضى هذا التوجه ، لو قُبِل بأخلاقيته وتعميمه - هو فناء البَشرية بعد هذا الجيل !

ولقد رأينا فى الغربيين الذين قبلوا هذا النوع من الشذوذ مَن تغلبه الفطرة ، فيحن إلى الإنجاب ، ويبحث عنه ، ولكنه ملىء بالمشكلات ، كما نرى فى القصة التالية :

---

(١) الذاريات : ٤٩ (٢) الشعراء : ١٦٥ - ١٦٦ (٣) هود : ٨٣

« كانت امرأتان هولنديتان : « باولا دِيجز » ٣٩ سنة و« چانين هاكسمان » ٣٨ سنة تعيشان كزوج وزوجة ، ثم اشتاقتا إلى الإنجاب ، فاتصلتا بمعهد « ليدن » لتنظيم الحمل ، لأجل تحقيق رغبتهما الملحة فى الحصول على طفل . وقد فشلتا فى محاولتهما الأُولى ، بينما حملت « باولا » فى المحاولة التالية ، فأنجبت طفلاً من صلب مجهول ، أسمياه « توماس » . إلا أنهما شعرتا بعد ولادة « توماس » بحاجتهما إلى ذات « الرجل » الذى أدى نفورهما منه إلى اتباع أسلوب « السّحاق » !

والمرأتان تُعربان عن قلقهما إزاء هذا الواقع بالاعتراف بأن « توماس » فى أمس الحاجة إلى رجال يعاشرهم ، ليقوموا بالدور الرجالى النموذجى ، ويُشكّلوا قدوة بالنسبة إليه ، وقد اصطنعتا أساليب شتَّى لتحقيق هذا الغرض ، وذلك بالطلب من أقاربهما كالجد والعم والشقيق ، والجيران من الرجال ، للقيام بزيارات متكررة إلى منزلهما ، وتقول « هاكسمان » - إحدى هاتين المرأتين الشاذتين - : لقد وقع اختيارنا على أحد أصدقائنا من الرجال ، ليقوم بدور الأب لتوماس ، وسيزوره الطفل من حين لآخر للتزود بالتوجيهات « الفنية » اللازمة » [١] !

إن اتباع طريقة اصطناعية لتوفير « أب » لتوماس لن يكون بديلاً عن آلأب الحقيقى بأى حال من الأحوال ، ومن المؤكد أن يظل نوع من الغربة يشكل حاجزاً بين « ابن » و « أب » من هذا النوع ، وحين يكبر « توماس » ستتحول هذه الغُربة غير الشعورية إلى غُربة واعية شعورية ، لقد عرف « توماس » مَنْ هى أُمه ، بينما سيظل يجهل أباه طول عمره ! وهذا الفراغ فى حياة « توماس » سيسبب لديه أنواعاً من العُقد النفسية ، ووضعاً عقلياً يحول دون أن يصبح عضواً فاعلاً فى المجتمع [٢] .

---

(١) مجلة « تايم » ، عدد ١٠ أغسطس١٩٨٧ - ص ٢٥

(٢) المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية - ص ١٣١ ، ١٣٢

ربما يتوهم البعض أن فى نظام السّحاق ، ومعاشرة المرأةِ المرأةَ متسعاً لإنجاب « البنت » دون « الولد الذكر » ، ولكن حتى ولادة « البنت » أيضاً تحتم الاعتماد على نفس الرجل ، لأن الحاجة إلى حنو الأب وحمايته حاجة فطرية عند البنات ، كما هى عند الأبناء ، بل ربما كان تعلق البنت بأبيها أكبر مَن تعلق الابن به ، ولهذا قال العرب قديما : « كل فتاة بأبيها معجبة » !

إن الانحراف عن نظام الفِطرة لا بد للفرد وللمجتمع كله أن يدفع ثمنه ، ويتحمل نتائجه ، وهو ثمن باهظ ، ونتائج وخيمة .

* *

● الأُسرة الوحيدة التكوين :

وكما فشلت الأُسرة الوحيدة الجنس - المكوَّنة من رجلين أو امرأتين - فشلت كذلك الأُسرة الوحيدة التكوين ، أى التى تتكون من أم بلا أب ! كما نرى فى هذا النموذج الذى ابتدعته حضارة الغرب :

« أنشأ مليونير أمريكى من كاليفورنيا - وهو الدكتور « روبرت جراهام » - مصرفاً من نوع غريب يعرف بـ « مصرف نوبل للسائل المنوى » ! ويقوم هذا المصرف بجمع هذه المادة من الأشخاص الحائزين على جوائز نوبل وتخزينها ، لأجل إخصاب النساء ، وإنجاب مواليد يتمتعون بذكاء فوق العادة ! والمصرف - كما يدَّعى مؤسسه الأمريكى - أُنشىء لأجل مساعدة الرجال غير القادرين على الإنجاب ، إلا أن النزعة الإباحية لدى المرأة الحديثة تقودها إلى انتهاك هذا الحد ، فهناك نساء يرغبن فى الإنجاب والحصول على أطفال ذوى كفاءات عقلية خارقة ، بدون الارتباط بالزواج ، ونساء كهذه يطلبن مساعدة المصرف المذكور .

ومن هؤلاء الدكتورة « آفتون بلاك » من كاليفورنيا ، وهى تبلغ أربعة وأربعين عاماً من العمر ، فاتصلت بالمصرف المذكور حيث أُشير عليها بالحصول على السائل المنوى « رقم ٢٨ » طبقاً للمواصفات التى كانت تطلبها

فى مولودها ، ويجدر بالذكر أن مواد السائل المنوى التى تم تخزينها فى المصرف لا تُعرف بأسماء أصحابها ، وإنما لكل منها رقم معين .

وأصبحت الدكتورة « بلاك » حاملاً بعد حقن رحمها بمادة السائل المنوى « رقم ٢٨ » فوضعت طفلاً فى موعده ، وسمى هذا الطفل « دورون » ، وهو يعنى باليونانية « الهدية » . وأُدخل الطفل إلى المدرسة فى الرابعة من عمره ، وقد نشرت صحيفة « تايمز » الهندية صورته فى ملحقها الأُسبوعى الصادر بتاريخ ٧ سبتمر ١٩٨٦ ، وكان مراسل صحيفة « ديلى تلغراف » اللندنية « إيان برودى » قد قابل أُم الطفل المذكور فى بيتها بـ « لوس أنجلوس » ، وعلى حد تعبير المراسل : « السعادة التى كانت تغمر الدكتورة « بلاك » بدأت تتحول تدريجياً إلى الشقاء » وذلك لأن ولادة طفل بدون أب وضعتها فى مأزق ، ومن المشكلات العديدة التى تواجهها الدكتورة « بلاك » : أن المولود قد تعلم الكلام ، وهو يسأل مراراً وتكراراً : « أين أبى » ؟ .

وأخبرت الدكتورة « بلاك » المراسل الصحفى البريطانى : « لقد تضايق منى « دورون » ذات مرة وقال : إنه سيغادر البيت ليعيش مع أبيه » ! [(١)] .

لقد كان فوز السيدة المذكورة بمولود بدون أب تجربة ممتعة بالنسبة إليها فى بادىء الأمر ، إلا أنها أضحت محوطة بمشكلات لا تنتهى ، ومن أهمها - بالنسبة للطفل - حرمانه من حنان أبيه ، ومن رعاية أبيه !

إن صوت الفطرة التى خلقها الله أقوى وأعمق من صوت « المودات » الغريبة التى يصطنعها الإنسان .

وإن انحراف الإنسان عن النظام الذى وضعته الفطرة يسبب له مشكلات غريبة وعويصة لم تكن تخطر على باله من قبل [(٢)] .

* * *

---

(١) عن كتاب المرأة بين الإسلام والحضارة الغربية .

(٢) انظر : فصل « عقوبة الفطرة » من كتاب « الإسلام ومشكلات الحضارة » لسيد قطب - ص ١١٨ - ١٦٠

٣ - القلق النفسى

ولا عجب - بعد أن يشيع فى مجتمع ما جمود العواطف الإنسانية ، وتفكك الروابط الأُسرية ، وانحلال الأخلاق الأصيلة - أن يشكو الناس « القلق » ويسأموا الحياة ، ويضجروا من العيش ، ويسخطوا على الوجود كله ، وخصوصاً إذا تأسس المجتمع على المادية ، وفقد روح الإيمان بالله وبالدار الآخرة ، وبالقيم العليا .

وهذا ما نقرؤه ونسمعه كل يوم عن الناس فى أوروبا وأمريكا ، وهذا ما ينقله إلينا كل مَن رأى تلك البلاد ، سواء مَن عاش فيها طويلاً ، ومَن زارها لماماً ، بل هذا ما يقوله القوم عن أنفسهم فى كتبهم وصحفهم ، وما يشكو منه مصلحوهم وذوو الفكر والرأى فيهم .

هذا مع أن القوم يملكون من وسائل النعيم ، وأدوات الترفيه ما لم يكن يحلم به بشر من قبل . ماذا يُقلق القوم إذن ؟ وماذا يُسخطهم على أنفسهم وعلى الحياة ؟ وعندهم كل ما يريدون . وفوق ما يريدون ، من متاع الحياة الدنيا ؟

خذ أمريكا مثلاً : إن الفرد هناك يعيش فى مستوى مادى رفيع يملك به من وسائل العيش ، ومظاهر النعمة والرفاهية ، وأدوات المتعة والتسلية ما يشبه أساطير الملوك الخالية ، ولكن ما قيمة هذا والقوم يفتقدون السعادة - سعادة النفس - فلا يجدونها ؟ ما قيمة هذا وقد سماه « كولن ولسون » : « غطاءً جميلاً لحالة من التعاسة والشقاء » ؟

وسننقل بعد عن الأديب الأمريكى « چون شتاينبك » قوله : « إن مشكلة أمريكا هى ثراؤها ، وأن لديها أشياء كثيرة ، ولكن ليس لديها رسالة روحية كافية » .

وقال : « لو أننى أردت أن أُدمر شعباً ، فإننى أعطيه أكثر مما يريد ، فهذه الوفرة تجعله جشعاً تعيساً مريضاً ! إن شعبنا لا يمكن أن يعيش طويلاً على الأُسس الحالية لحياته .

« إننا فى حاجة إلى ضربة قوية تجعلنا نفيق من ثرائنا ، لقد انتصرنا على الطبيعة ولكننا لم ننتصر على أنفسنا » !!

وسننقل عن « رينيه دوبو » فى نهاية الفقرة ما يؤكد هذا .

* *

● الساخطون فى هوليود :

ثم ننقل هنا أيضاً ما سجله الصحفى المصرى « أنيس منصور »[1] مما شاهده بعينه فى « هوليود » مدينة الفن وكواكب السينما ، وتحت عنوان « الساخطون هنا » كتب من هناك مايلى :

« لأن كل شىء هنا واسع وطويل وعريض ومثير وواضح ، فالجيل الجديد يهرب إلى الأماكن الضيقة المظلمة المزدحمة القذرة .

« ولأن كل شىء فى الدنيا يخضع لنظام أو لهيئة أو لمؤسسة أو لثقافة ، وأن الفرد لا وجود له باعتباره عضواً فى هيئة ، فإن الشبان يهربون من النظام ومن القيود والتقاليد إلى أماكن لا نظام فيها ولا ترتيب ولا أرقام ولا درجات ولا طوابير .

« ولأن كل عمل يقوم به الشباب فى هذا المجتمع يقتضى منه الانتباه والوعى وإلا ضاع وراحت عليه كل فرص الحياة .

« ولأن الحياة تحتاج إلى كفاح شديد ، وليست سهلة ولا هينة كما نتصور ؟

« ولأن كل شىء هنا فى أمريكا بالفلوس . . كل شىء . . وفى استطاعتك أن تتخيل أى شىء ، أى مبدأ ، أى دين ، أى فلسفة ، أى عمل تجارى ، أى عمل أخلاقى ، كل شىء فى أمريكا تجارة فى تجارة ، فالجيل الجديد من الشبان يذهب إلى أماكن سرية ويظل جالساً فى استسلام لا يفكر ولا يقول

---

(١) من يومياته بالأخبار فى ٥/ ١/ ١٩٦٠

شيئاً ، وإنما « يركن » عقله كأنه سيارة قطعت طريقاً طويلاً ، وموتورها يكاد يحترق . . . يركن السيارة ويترك أبوابها ونوافذها وأغطيتها كلها مكشوفة ويجلس فى استسلام وسلبية تامة . .

« ولأن الصحف والإذاعة والتلفزيون والسينما تضغط على عقل الأمريكى الشاب ، ولأنها كلها مؤسسات تجارية تريد الربح ، ولأن هذه المؤسسات تخدم أُناساً لهم مصالح فى الحروب وفى تجارة السلام .

« ولأن بعض هؤلاء الأُناس يغامرون بسلامة أمريكا من أجل مصالحهم الخاصة .

« ولأن هؤلاء الساسة قد ورَّطوا أمريكا والشعب الأمريكى فى مواقف ضد مصالحه ، فهؤلاء الشبان يهربون من الكلام فى السياسة ، والاستماع إلى السياسة ، وإلى الإعلانات ، وإلى القصص والأفلام التى تقدمها شركات البطاطس وشركات البيض وأمواس الحلاقة . . يهرب من هذا ويجلس فى صمت دون تفكير ودون قراءة ، ودون كتابة ، يستسلم إلى الجلوس فى الظل ، إلى الجلوس على الرف .

« لقد رأيت عدداً من الشبان كالورد بلا شوك فى اللَّون والشباب والذكاء . . . كل هؤلاء جالسون يستمعون إلى موسيقى عادية نادية من أصابع الزنوج ، وهؤلاء الشبان يشربون الشاى أو القهوة ويدخنون ولا يقولون شيئاً .

« وحاولت أن أسأل واحداً منهم ، إن كانوا يترددون هنا كل يوم ، وهزَّ رأسه يقول : نعم ، وسألته : إن كانوا يفضلون الجلوس هكذا فى صمت . . . وعلمت منه ومن غيره أن هذا هو المكان الوحيد الذى لا يقول فيه إنسان أى شىء ، فالكلام فى أمريكا كثير ، ومكتوب بالنور وبالحبر وبالحديد وبالخشب ، ومكتوب بهذه الأجسام الشابة المستسلمة . . وكل يوم أقرأ فى الصحف عن ارتفاع نسبة الجرائم بين الشبان . . فى المدن الأمريكية الكبرى ، جرائم السطو والاعتداء . . وكل يوم نسمع علماء النفس وعلماء التربية يصرخون بأعلى أصواتهم : إن الجيل الجديد فى خطر ، وإنه لا بد من تغيير

أساليب التدريس . . الحياة المنزلية المعدومة ، الحياة الاجتماعية المفككة ، المجتمع الصناعى التجارى الساحق الذى أصبح يعبد الهيئة ، ويعبد المنظمة ، ويعبد النقابة ، ويعبد الوقوف بين العلامات البيضاء على الأرض وعلى السقف ، وفى البيت ، وفى المكتب ، وفى المصنع ، وفى المعبد . .

« الناس فى أمريكا يعبدون النظام . لا للفائدة التى يحققها النظام ، ولكن لمجرد طاعة النظام ، طاعة الهيئة والمؤسسة ، **ولأن حياة الفرد فى المجتمع الصناعى لا معنى لها وحدها** ، وإنما معناها بالجملة مع الآخرين . .

« وثورة الشبان هى ثورة على قيود هذه الهيئات وتكون النتيجة دائماً أن يموت الفرد والفردية ، وتبقى الهيئة . والمجرم الشاب الذى يقتل . . إنه فى الواقع أخطأ الطريق إلى جريمته ، فإنه بدلاً من أن يقتل كل المجتمع قتل الحروف الأولى منه ، قتل أحد أفراده !!

« والإحساس بالضياع هو أوضح شعور عند الشبان فى أمريكا . . ضائعون تائهون لا يبالون بأى شىء . . إنهم يريدون أن يعيشوا فى سلام مع أنفسهم ومع غيرهم . . ولكن أعصاب الناس فى أمريكا لا شك متعبة ، ولا شك أن الصحف والإذاعة والتليفزيون والسينما تحطمها نهائياً ، لتظهر أدوية وعقاقير وحبوب وسوائل وڤيتامينات تُصلح هذا الجسم المتعَب والعقل المجهَد . .

« ويظل الشاب الأمريكى حائراً بين السينما والصحافة والأجزاخانة حتى يموت وهو يعمل ، وفى النهاية تقبض زوجته بوليصة التأمين على حياته ، وتنفقها على أولادها أو على زوجها الجديد . .

« إننى أعذر الشبان ، ولا أرى غرابة فى الاتجاهات الصارخة من الأدب الأمريكى الشاب بزعامة « چاك كيرواك » وهوالذى أطلق على هذا الجيل الجديد اسم « الجيل الصارخ » وهو جيل عنده شعور بالفشل وخيبة الأمل والضياع ، وهو جيل أعجز من أن يقوم بأى إصلاح .

« إنه جيل قد أسند ظهره للحائط الذى يملكه التجار والسماسرة فى كل أمريكا . .

« إنه جيل ساخط اليوم وحاقد غداً . . وصوته أضعف من أن يسمعه أحد . . ولذلك فكل أفراد هذا الجيل يتجمعون فى الظلام ، ويُصوِّتون بعضهم على بعض . . فيحطمون بعضهم البعض ، دون أن تتناثر شظاياهم إلى عيون الآخرين من الراضين اليوم والساخطين غداً » !

* *

● حركات التمرد على الحضارة المادية :

لقد كان نتيجة هذا القلق والسخط والتفاهة وفقدان الهدف ، الذى يعانيه الناس فى الغرب : ظهور تلك الأصناف التى نقرأ ونسمع عنها هناك من « الخنافس » و « الهيبيز » وما شابه ذلك مما تمخضت عنه حضارة المادية والآلة .

إنهم يمثلون التمرد على الحضارة الغربية المادية الاستهلاكية ، التى لم تُشبع جوعهم الروحى ، ولم تملأ فراغهم العقدى ، ولم تُجِب عن أسئلتهم الحائرة ، ولم يعرفوا معها للحياة هدفاً ومعنى ، ولذلك غاصوا فى الأوحال بين المسكرات والمخدرات حتى غابوا عن أنفسهم ، وما حولهم ، ثم طفقوا يبحثون عن شيء آخر غير مادى ، فتعلقوا بما سُمِّى « تحضير الأرواح » ويبدو أن هلوسة المخدرات جعلتهم يتخيلون أنها حضرت فعلاً ، وأنهم رأوها عياناً !

وقد كتبت مجلة « الحوادث » اللبنانية [١] عن هذه الظاهرة منذ سنوات بقلم الأديبة « غادة السمان » التى كتبت من لندن تقول : « بدأت الحركة الهيبية بشكل

---

(١) فى ١٩٧١/٦/١٧

حركة عصيان شابة انفجرت منذ سبعة أعوام . . حركة تطالب برد الاعتبار للفرد بعد أن سحقته الآلية ، والبيروقراطية ، والطبقية ، وسيطرة المؤسسات القديمة المتعفنة ، ووحشية الحياة الصناعية المعاصرة ، هذه كلها حوّلت الإنسان إلى مجرد « رقم » ، ورمت به بين أنياب المدينة الكبيرة التى لا ترحم ، حيث قانون الغاب يسود فى غاب معاصر جديد : غاب من الأبنية والحجارة والآلات والأُطر المهيأة سلفاً لكل فرد (هذا الرفض عبّر عنه أيضاً كبار الأُدباء المعاصرين أمثال « فولكنر » ، و« ت . س . اليوت » ، و« شتاينبك » ، و« كافكا » . . . وغيرهم ، ولكنهم عبّروا عنه بصورة مبدعة خالدة) .

« إذن ثار الهيبيز فى محاولة لإيقاف هستيريا التقدم العلمى على حساب الإنسان ، والتذكير بأن الإنسان ما يزال إنساناً ، وأن أعصابه عاجزة عن احتمال هذه الضغوط الرهيبة التى يدفعها ثمناً لهستيريا العلم . . هستيريا التسلح . . هستيريا الذَرَّة . . هستيريا الرحيل إلى القمر . . ثار الهيبيز فى محاولة لتذكير العالَم المجنون اللامبالى بالفرد ، بأن المدنية والعلم وُجِدا لخدمة الإنسان ، وليس العكس . . وبان الحروب « الجشعية » يجب أن تتوقف . . وبأن الحضارة الحقيقية هى فى اكتشاف مجاهل أعماق الإنسان ومبعث آلامه ، ومداواتها ، قبل اكتشاف أعماق البحار أو مجاهل القمر . .

« من هنا انطلقت حركة الهيبيز فى الغرب : من دوافع إنسانية رائعة . . ولكنهم كانوا - للأسف - أسوأ محامين لأعدل قضية .

« منذ البداية لم يكن هنالك أى تطابق بين سلوكهم الذاتى وبين المبادىء التى يدعون إليها . .

« نادوا بالرِدَّة إلى الطبيعة الأُم ، لكنهم لوَّثوا الطبيعة ، حين جعلوا منها ديكوراً لمسرحياتهم الانقلابية الهستيرية (جنس . . حشيش . . وحتى جريمة) ! ونادوا بالتحرر من قذارة المداهنات الاجتماعية ، لكنهم رفعوا راية العداء ضد

الماء والصابون ! نادوا برفض « الصالونية » التقليدية فى المظاهر ، لكنهم فى رفضهم تبنوا بديلاً تقليدياً آخر : هو الشارعية التقليدية بدلاً من الصالونية .

« نادوا بالحب ، لكنهم ناصبوا العالَم العداء .. بل ناصبوا أنفسهم العداء ، إذ انحدروا بالذات الإنسانية - التى ادَّعوا تكريمها - إلى أحط درجات البهيمية ..

« ورغم ذلك كله امتدت إمبراطوريتهم لتغطى وجه أكثر من قارة .. ولتنتقل عدوى الوباء إلى أكثر من مكان ... ومرَّت الأيام ...

« ولكن حركة الرفض العادلة هذه لم تتبلور ضمن إطار فلسفى واضح المعالم ، وإنما ازدادت انحرافاً عن منطلقاتها .

« لم يكن للهيبيز خط تحرك واضح .. ولا هدف واضح .. وسقطوا فى الهوة القائمة بين فكرهم وسلوكهم .. تلك الهوة التى تفصل عادة بين الثوار والمهرجين .. وصارت كلمة « هيبى » تُذَكِّر فوراً بسلوك لا مسؤول ، لا واع ، مائع ومهزوز كزئبق بلا وعاء ..

« رفضهم لسقوط العالَم فى هُوِىّ الآلية كان عادلاً ، لكنه كان رفضاً سقط بدوره فى هوة الرخص ، وافترسه الحشيش والتخدير والانحلال الخُلُقى ، والاستخفاف بالمبادىء الإنسانية الأساسية ، وهكذا كانوا « صرعة » بدلاً من « ثورة » .. يقتاتون كل عام بصرعة جديدة ...

« صحيح أنهم قطعوا علاقتهم مع العالَم القائم « التقليدى البشع » ، ولكنهم أيضاً فشلوا فى خلق بديل جديد له .. ووجدوا أنفسهم يهرولون فى طريق مسدودة بدأت تصبح رتيبة ، بل وحتى تقليدية .. وهذا العام حمل إلينا تيارين هيبيين أساسيين حاولا تجديد السلوك الهيبى : (١) الجريمة ، (٢) تحضير الأرواح .

« تيار الجريمة هو المحاولة الأُولى لتخطى الطريق المسدود لإمبراطورية

الهيبيين عبر العنف ، ويمثل هذا التيار « تشارلز مانسون » بطل مجزرة « شارون تيت » والمجموعة ، فقد أحس الهيبيون بأنهم صاروا مثل « روبنسُن كروزو » المعزول فى جزيرته . . صاروا معزولين فى جزيرة رفضهم للعالَم الخارجى ، ولكنه رفض سلبى لم يبدل فى الأُمور شيئاً ، بل على العكس ، كان على كل هيبى يبلغ الثلاثين (دون أن ينتحر أو توصله المخدرات إلى أحد المصحات) أن يعود للاندماج فى المجتمع ، عبر البحث عن عمل والزواج والاستقرار ، والاستعداد لكهولته ضمن الإطارات التقليدية القائمة ، التى لم يستطيعوا أيام « هيبّيتهم » اختراع مؤسسات بديلة لها . . مؤسسة « الجنس الجَماعى » فشلت فى أن تكون بديلاً عن مؤسسة الزواج مثلاً . . وهكذا فإن « روبنسُن كروزو » خرج من جزيرته ، وقرر أن يكون « قرصاناً » ليدمر « بالعنف » ما فشل فى تدميره « بالحب » . . .

« أما المخرج الثانى للهيبيز من طريقهم المسدود فكان عبر تحضير الأرواح ! . . فهم بعد أن هجروا العالَم الخارجى وهجرهم ، قرروا أن يتعاملوا مع نوع واحد آخر من البَشر . . بالضبط : مع الأرواح ! . . لقد عجزوا عن التعايش مع « قذارة » المجتمع حولهم ، فقرروا التعايش مع مجتمع بَشرى آخر هو مجتمع الأرواح . . وهكذا فإن « روبنسُن كروزو » لن يقبع وحيداً فى جزيرته . ولن يصير قرصاناً يواجه العالَم الخارجى بالعنف ، لكنه بكل بساطة « سيخلق » لنفسه مجتمعاً جديداً يستحضره . . هو مجتمع الأرواح الذى لم تعد حقارات المؤسسات والمصالح تدنسه ! . . . ربما كان فى هذا تفسير لانتشار تحضير الأرواح المفاجىء فى الأجواء الهيبية . . وربما كان هناك تفسير آخر ، وهو ببساطة أن الهيبيز الذين سلموا ممارسة حياتهم الرتيبة (جنس . . مخدرات . . أزياء عجيبة غريبة . . رقص مجنون . . مهرجانات جَماعية مثل « وودستوك » فى أمريكا و« سولزبيرى » فى بريطانيا) ، وهذه كلها صارت تقليدية بعد انقضاء أعوام طويلة على تكرارها ، وجدوا فى تطعيم هذه الحياة بحكاية الأرواح نكهة جديدة مثيرة للخيال ، تستطيع أن تحميهم من السأم

والتكرار فترة لا بأس بها ، ريثما يجدون صرعة جديدة يطلعون بها . .
(ويؤكد ذلك أن تحضير الأرواح على الطريقة الهيبية هو خطة تعرية وحشيش وجنس . إنهم يعاملون الأرواح كأنها زبائن فى كاباريه) .

« ولكن تُرى هل تكون هذه الصرعة هى آخر صرعات الهيبيين ؟ كل الدلائل تشير إلى سقوط إمبراطورية الهيبيين نهائياً . . لقد قطعوا آخر خيط كان يمكن أن يربطهم بالحياة اليومية ومصير الفرد العادى والإنسانية . . لقد رموا عن أكتافهم نهائياً المسؤولية التى تحتمها عليهم مبادئهم (التى ادعوها) ورحلوا عن ذلك كله لينتهى بعضهم على الكرسى الكهربائى ، وبعضهم الآخر وسيطاً مزيفاً لتحضير أرواح مزيفة » .

* *

● الاكتئاب وحياة العزلة :

ومن مظاهر القلق ولوازمه فى الحضارة المعاصرة : انتشار مرض « الاكتئاب النفسى » الذى يجعل الإنسان سجين نفسه ، وهو وسط المجتمع ، ويحيل حياته إلى جحيم ، وفى يديه الثروة ، وبجواره أدوات اللَّذة والمتعة ، ولكنه يحيا فى عزلة نفسية ، وكثيراً ما تكون عزلة مادية بالفعل ، وخصوصاً لدى كبار السن ، وبالأخص النساء اللائى أعرضن عن الزواج فى شبابهن ، فلم يجدن فى الشيخوخة مَن يؤنس وحشتهن .

ومن أمثلة هؤلاء : « جريتا جاربو » التى كانت من ألمع نجمات السينما الأمريكية فى يوم من الأيام ، وبعد تقدمها فى السن لم تعد سلعة رائجة فى هوليود . . لدرجة أنه قد تخلى عنها جميع أصدقائها ، فلم يعد يزورها أحد ، أو يسأل عنها أحد ، وباتت تقضى شيخوختها فى عزلة موحشة ، حتى احتفلت فى ١٨ سبتمر ١٩٨٠ بعيد ميلادها الخامس والسبعين وحيدة دون أن يكون بجانبها أحد ! وحين سألها مؤلف سيرة حياتها عما إذا كانت تشعر

بالندم على عدم إقبالها على الزواج ، وعدم الفوز برفيق للعمر يواسيها فى عزلتها ؟ أجابت بنبرة حزن : « أعتقد أننى أخطأت بالعزوف عن الزواج » .

لو بنت لها عشاً زوجياً فى شبابها ، وأنجبت فيه أولاداً ، لظللها فى شيخوختها ، ولكنها خالفت فطرة الله الذى خلق الزوجين : الذكر والأُنثى ، فعاقبتها الفطرة بهذه الحياة البائسة التى تحياها .

على أن الأمر لا يقف عند مَن بلغ الشيخوخة من هؤلاء الممثلات اللائى تربعن على قمة الشهرة ، وسُلِّطت عليهن الأضواء ، فقد رأينا من شبابهن من تحيا - رغم الأضواء الباهرة - حياة كئيبة فى داخل نفسها ، ولا تجد سبيلاً للخلاص من هذه الكآبة النفسية الخانقة إلا الانتحار !

ولا يجهل أحد قصة « مارلين مونرو » التى كانت تعتبر من أشهر الممثلات فى الولايات المتحدة ، بسبب جمالها وجاذبيتها الجنسية ، وقد غدت ألمع نجمة سينمائية فى سماء هوليود حتى سموها بـ « إلهة الجنس » ، ونالت أفلامها شعبية واسعة ، كذلك كانت عروضها المسرحية تجذب آلاف المشاهدين ، ومع ما اجتمع لها من الثروة والشهرة ، والمجد الدنيوى ، كانت تعيش تعيسة ، فى عزلة نفسية فى خضمّ هذا العالَم الصاخب . وبالرغم من أن صورها بابتسامتها الساحرة كانت تحتل صدر صفحات الجرائد وأغلفة المجلات ، نجد أنها كانت تعانى من اكتئاب نفسى بصفة دائمة ، إلى أن قررت أن تضع حداً لآلامها النفسية بالانتحار ، بابتلاع كمية كبيرة من الأقراص المنومة ! ولم يكن عمرها يتجاوز ٣٦ سنة لدى انتحارها فى ٥ أغسطس ١٩٦٢

وتعتبر « بريجيت باردو » ، التى ولدت عام ١٩٣٤ ، من أشهر الممثلات فى تاريخ السينما الفرنسية ، ويقال : إنها تتفوق ، بمكانتها البارزة فى عالَم السينما العالمية ، على « مارلين مونرو » ، و« مارلين ديتريش » ، وهى تُعَد أشهر سيدة فى تاريخ فرنسا بعد « چان دارك » ، ويقال : إن فرنسا حصلت بتصدير أفلام « بريجيت باردو » على كميات من النقد الأجنبى تفوق

مبيعات سيارات « رينو » المعروفة فى الأسواق الخارجية ، وطبقاً لقول الصحفى الأمريكى « تونى كرولى » ، الذى قام بمراجعة الجرائد والمجلات الصادرة فى أوروبا وأمريكا ، فإن صور « بريجيت باردو » تصدَّرت صفحات وأغلفة هذه المطبوعات لأكثر من ٢٩٫٣٤٥ مرة [١] . وتتابعت أفلام « بريجيت باردو » لتزيد من شعبيتها ، إلى حد أنه صعب عليها الخروج من بيتها بسبب جموع المصوِّرين المحتشدة على بابها ، واستحال عليها مراجعة حتى عدد مختار من الرسائل الشخصية من بين الكميات الضخمة التى كانت ترد فى بريدها الخاص كل يوم ، وبالرغم من هذا الوهج والبريق الظاهريين كانت « بريجيت باردو » تعانى من قسوة العزلة والقلق الداخلى ، ولم تعد تتحمل أعباء الشهرة التى كانت تحظى بها ، فقادتها ضغوطها النفسية إلى أن تضع حداً لحياتها بتناول جرعات زائدة من المنومات ، إلا أن محاولتها للانتحار باءت بالفشل ، وحتى لدى نقلها إلى المستشفى فى حالة خطيرة وقف المصوِّرون فى وجه سيارة الإسعاف على أمل الفوز بلقطاتها الأخيرة ، وينقل تقرير صحفى على لسانها قولها : بأنها لم تشعر بالراحة النفسية يوماً ما لدى وقوفها أمام آلات التصوير السينمائية .

وتوقفت « بريجيت باردو » عن نشاطها السينمائى فجأة ، وهى فى التاسع والثلاثين من عمرها بعد أن قامت ببطولة أكثر من خمسين فيلماً ناجحاً ، فقطعت جميع علاقاتها بعالَم السينما ، وعلى حد قولها : « بِعتُ سيارة « رولز رويس » الفخمة التى كنت أمتلكها ، كل ذلك لأجل أن يمتنع الناس عن اعتبارى كائناً فوق العادة للجمال ولأعيش حياتى بهدوء - كأى إنسان آخر - وحيدة داخل بيت على شاطىء الريفيرا » [٢] .

* *

---

(١) ريدرز دايجست ، مايو ١٩٨٦

(٢) عن كتاب « المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية » ، لوحيد الدين خان - نشر دار الصحوة .

● **انتحار المراهقين :**

ومن الظواهر المعروفة فى الغرب كله : ظاهرة الانتحار ، فالإنسان يتخلص من حياته لأوهى الأسباب ، لأنه لا يجد حصناً يلوذ به من الإيمان ، ولا من عائلة تظله ، ولا من مجتمع يحبه . لكن أغرب ما منى به المجتمع الغربى : انتحار الشباب فى سن المراهقة وهم زهرات يانعة !

وتذكر مجلة « تايم » فى تحقيق صحفى بعنوان « انتحار المراهقين » بأن الولايات المتحدة تشهد زيادة مستمرة فى حوادث انتحار صبيان وفتيان تتراوح أعمارهم ما بين عشر وعشرين سنة ! وقد ارتفعت هذه الحوادث إلى ثلاثة أضعاف عما كانت حتى عام ١٩٥٠ ، ففى عام ١٩٨٥ أقدم على الانتحار ستون مراهقاً (ومثلهم من الكهول) من بين كل مائة ألف شخص . وفيما يلى انطباعات ثلاث سيدات أمريكيات إزاء حوادث انتحار المراهقين . .

تقول السيدة « باربارا هويلر » ، وهى خبيرة فى منع وقوع حوادث الانتحار بمدينة « أوماها » : « لا أظن أنهم يفكرون حول تحولهم إلى موتى ، بل كل ما يفكرون فيه عند الانتحار هو التوصل إلى وسيلة ما لإنهاء الألم ، وحل المشكلة ، أو المأزق الذى يجدون أنفسهم فيه » .

وتقول « إيلين لِيْدَرْ » التى شاركت فى إنشاء خط هاتفى مفتوح لمعالجة مشكلات المراهقين بمركز « سيدارز سيناى » الطبى بلوس أنجلوس : « الكل فى غاية الانشغال لدرجة أنه ليس لدينا من الوقت لنستمع إلى أولادنا » .

وتقول « باربرا أوليرى » ، وهى مضيفة بمطعم : « حين يحدث شيء كهذا أفكر كثيراً فى أولادى ، وآمل أن أكون قد ربيّتهم تربيةً سليمة ، فهذه سنوات خطرة ، وأنت لا تعرف الأفكار التى تجول فى عقولهم » [١] .

---

(١) مجلة « تايم » ، عدد ٢٣ مارس ١٩٨٧

وقد تلقت « تايم » بعد نشرها التحقيق الصحفي المذكور رسائل من عدد من المواطنين الأمريكيين ، تقول إحداها : « إن قلبي يَدمى للعائلات المنكوبة التي انتحر أولادها ، إنني أدرك مدى معاناتهم . لقد انتحر حفيدي البالغ من العمر ١٦ عاماً بشنق نفسه . وستظل عائلتي مصابة بالحيرة : لماذا حدث ذلك ؟ ولن نتمكن من معرفة الأسباب الحقيقية للحادث أبداً » [١] .

ما السبب وراء ارتفاع حوادث انتحار المراهقين في الدول المتقدمة ؟ قد قيل : إن السبب باختصار هو حرمانهم من عطف الآباء وحنان الأُمهات ، وحب الإخوة والأقارب ، إنهم يعيشون وحدهم في هذه الحياة الصاخبة ، لأن هذه الدول تعاني من مشكلة « التفكك العائلي » على نطاق واسع ، مما غذّى الشباب المراهق بنزعة الانتحار . إنهم يتربون محرومين من عطف ورعاية الأُسرة ، ويعانون من مختلف العُقَد النفسية خلال اجتيازهم عتبة المراهقة ، فلا غرو أن تقودهم عند مواجهة بعض المشكلات إلى الانتحار .

ولكن القضية في عمومها - قضية الاكتئاب والقلق واليأس - تحتاج إلى تحليل أعمق لأسبابها الأكثر عمقاً في النفس وفي الحياة . وهذا ما قام به البروفسور « رينيه دوبو » الحاصل على جائزة نوبل في العلوم ، في كتابه القيم الذي ترجم إلى العربية تحت عنوان « إنسانية الإنسان » ، وسنتحدث عنه ، وننقل منه في الفصل القادم .

يذكر في فصل عن « التشاؤم الجديد » : أن تعابير « العصر الكلاسيكي » ، « عصر الإيمان » ، « عصر الرُشد » و« عصر الرومانسية » قد لا تتوافق مع الحقائق التاريخية تماماً ، إلا أنها مع ذلك توحي أن البَشرية توّاقة لبعْضِ هذه الخصال في الحياة ، وأكثر الناس يقرنونها - صواباً أو خطأً - بالماضي . وبالمقابل نحن نميّز جيلنا بتسميته « عصر الذرّة » و« عصر الفضاء » و« عصر

---

(١) المصدر السابق عدد ١٣ إبريل ١٩٨٧ ، نقلاً عن « المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية » السابق ذكره .

الهياكل الآلية » و« عصر مضادات الحيوية (Antibiotics) » ، أى بتعبير آخر : عصر هذه التكنولوچيا .. أو تلك هذه التعابير نستعملها برضا أهل التكنولوچيا ... أمّا الإنسانيون .. فيحتقرونها ، والتعبير الوحيد الذى لقى قبولاً إجماعياً فهو « عصر القلق » !

نَشَرَتْ المنجزات الاجتماعية والتكنولوچية الرفاه الاقتصادى ، وزادت الرخاء ، كذلك زادت سرعة وسائط النقل وكافحت بعض أنواع من الأمراض ، ولكن الكفاية المادية التى نتجتْ لم تزد كثيراً فى السعادة وفى معنى الحياة ؛ حتى أن العلوم الطبيّة لم تفِ بوعودها ، فمع أنه أُنْجِزَ الكثير فى ميدان الوقاية والعلاج لبعض الأمراض المعيّنة ، إلا أنهم فشلوا فى إطالة حقيقية لعمر الإنسان ، وفى تطوير الصحة بصورة إيجابية . ومن التناقض أن يكون عصر الرفاة والعجائب التكنولوچية والمعجزات الطبية هو أيضاً عصر الأمراض المزمنة والقلق .. واليأس !! وظهرت أعراض « الغَثَيان الوجودى » أى « القرف من الحياة » فى عقر دار مجتمعات الرفاه المادىّ ، وفى أكثر أجزاء العالَم تقدّماً تكنولوچياً . وتتكاثر فى هذه المجتمعات مشاكل فكرية شديدة كالنزاع العنصرى ، والفقر المادّى ، والعزلة العاطفية ، والقباحة المدنية فى الحواضر الكبرى ، والمظالم بكل أشكالها وأنواعها ، والجنون العام الذى يُسبّب تهديداً دائماً بالحرب النووية . والجذور العميقة للقلق المعاصر موجودة فى البنْية النفسية للفرد - كل فرد - من أفراد هذه المجتمعات .

وأكبر مشكلة حادّة فى الحياة المعاصرة هى فى الغالب شعور الإنسان أن الحياة قد فقدت معناها ، فالمشاعر الدينيّة والتقاليد الاجتماعية القديمة تنخرها المعلوماتْ العلمية ، وسخافة الأحداث العالمية الباطلة ، ونتيجة لذلك انتشر تعبير : « مات الإله » ! بصورة واسعة فى الأوساط اللاهوتيّة والعلمانية على السواء .

وبما إن فكرة « الإله » كانت ترمز لوحدة الكون بمجموعة : الخَلْق

والمخلوقات ، لذا يبقى الإنسان الآن بدونها كسفينة بلا مرساة ، لا قرار له ! والذين يؤكّدون مقولة « مات الإله » يعنون بها موت الإنسان التقليدى الذى كان يستمدّ معنى حياته من صلاته ببقية المخلوقات فى الكون . والبحث عن معنى وصياغة مفاهيم جديدة لكلمتى « الله » و« الإنسان » ، ربما يكون أفضل ما يجب أن ينشغل به الآن « عصر القلق والغربة النفسية » !

و« الغربة » كلمة مبهمة ، إلا أنّها تعبير عن حالة منتشرة بصورة هائلة الآن فى مجتمعات الرفاه المادّى ، والإحساس بالغربة هى تجربة قديمة اتخذت أشكالاً مختلفة عبر التاريخ ، فالكثير من الذين عانوها فى الماضى ، ظهر لهم آنذاك أن أوضاع الإنسان والكون لا ترابط بينها ولا معنى لها ، ولقد عزا « چان چاك روسو » ذلك فى القرن الثامن عشر إلى التباعد بين الإنسان والطبيعة !

وتتعايش الآن فى مجتمعاتنا أشكال متنوعة من الغربة ، فالضيق الاجتماعى والثقافى لا يؤثّر فقط على المفكّرين الواعين ، والعمال الصناعيين ، والطبقات الفقيرة . بل يؤثر أيضاً على كل الذين يشعرون بانسحاق فرديّتهم ، فالأوضاع السائدة تفرض عليهم مقاييس جماعية لا تسمح لهم بإبراز وتوكيد ذاتيّتهم وهُويّتهم . ومن الأسباب الأُخرى للغربة النفسيّة الفشل التام - حتّى فى أكثر المجتمعات تقدماً ورفاهاً مادياً - فى إقامة علاقات متناسقة متناغمة بين حياة الإنسان ومجموع بيئته . والاعتقاد بأن العالَم المعاصر سخيف وباطل ليس مقتصراً على الفلاسفة والأدباء المبرّزين ، فهو منتشر بين كل الفئات الاجتماعية والاقتصادية ويؤثّر على كل مظاهر ونشاطات الحياة .

ويميل علماء النفس والاجتماع والأخلاق إلى عَزْوِ القلق واليأس لانقطاع الصلات الاجتماعية الحميمة والانفراد والوحْشة التى تعمّ المدن المعاصرة . والانقطاع هذا ليس فقط بين البشر وأنفسهم ، بل أيضاً بينهم وبين قوى الطبيعة التى كان لها أثر فى « هندسة » كيان الفرد العضوى والوظيفى - الفيزيولوچى -

والفكرى ، والتى لا تزال تحدّد أكثر تفاعلات الفرد الأساسية . والفوضى فى العلاقات الإنسانية ، كالفوضى فى الصلات بين الإنسان وبيئته ، تصدران عن أصل واحد .

الإنسان العصرى قلق ، حتى ولو كان فى زمن السلم ، وفى جو البحبوحة الاقتصادية ، لأن عالَمَ التكنولوچيا - الذى يشكل محيطه المباشر ، والذى فصله عن عالَم الطبيعة الذى تطوّر الإنسان فيه أصلاً ، فشل فى توفير حاجات الإنسان الأساسية التى لم تتغيّر ولم تتبدّل . ومن نواحٍ كثيرة يُشبه إنسان العصر « الحيوان البرّى » الذى يقضى حياته فى حديقة الحيوانات ، فالإنسان الآن كهذا الحيوان . . يتوفّر له الغذاء الكافى والحماية الكافية من القسوة ، ولكنه يُحرم من المثيرات الطبيعية الأساسية للعديد من وظائفه الجسدية والفكرية ، فإنسان اليوم ليس فقط غريباً عن أخيه الإنسان وعن الطبيعة ، بل الأهم بكثير هو أنه غريب معزول عن أعماق ذاته (١) .



(١) إنسانية الإنسان ص ٤٦ - ٤٩ ، طبع مؤسسة الرسالة ، ببيروت .

٤ - الاضطراب العقلى

ولم تقف أزمة الحضارة الغربية عند هذه الآثار المروعة من التحلل الخُلُقى والتفسخ الأُسرى ، والقلق المرضى ، بل زادت على ذلك بما نقرؤه باستمرار عن الأعداد المتزايدة للمصابين بالأمراض العقلية والعصبية .

فهذا العلم الذى وثب وثبات هائلة فى تسخير المادة ، وانتهى إلى ثورة « التكنولوچيا » وثورة « البيولوچيا » وثورة المعلومات ، وثورة الاتصالات . عجز عن إصلاح الإنسان ، بل زاده خبالاً وفساداً ، حتى عجَّت المستشفيات المتخصصة بهذا النوع من المرضى .

وحسبنا أن نسجل هذه الفقرة من كتاب البرفسور « ألكسيس كاريل » : « الإنسان ذلك المجهول » عن هذا الموضوع ، وهو شاهد من داخل البيت ، وإن كانت الإحصاءات التى ذكرها أصبحت الآن قديمة ، وقد تضاعفت الأرقام ، ولكنها تعطى صورة واضحة وكافية . يقول « كاريل » :

« من العجيب أن الأمراض العقلية أكثر عدداً من جميع الأمراض الأخرى مجتمعة . ولهذا فإن مستشفيات المجاذيب تعج بنزلائها وتعجز عن استقبال جميع الذين يجب حجزهم .

« ويقول « س . و . بيرس » : « إن شخصاً من كل ٢٢ شخصاً من سكان نيويورك يجب إدخاله أحد مستشفيات الأمراض العقلية بين آن وآخر !!

« وفى الولايات المتحدة تبدى المستشفيات عنايتها لعدد من ضعاف العقول يعادل أكثر من ثمانية أمثال المصدورين . . ففى كل عام يدخل مصحَّات الأمراض العقلية وما يماثلها من المؤسسات ، حوالى ستة وثمانين ألف حالة

جديدة ، فإذا استمر عدد المجانين فى السير على هذا المعدل ، فإن حوالى مليون من الأطفال والشبان الذين يذهبون الآن إلى المدارس والكليات سوف يدخلون إلى المصحَّات عاجلاً أو آجلاً !

« ففى عام ١٩٢٢ كان عدد المجانين المودعين بالمستشفيات الحكومية ٣٤٠,٠٠٠ مجنون ، كما كان عدد ضعاف العقول والمصروعين المحجوزين فى المصحَّات الخاصة ٨١,٨٥٠ ، وكان عدد مطلقى السراح بشرف كلمة الشرف من ضعاف العقول ١٠,٩٣٠ ولا تشمل هذه الإحصاءات الحالات العقلية التى تُعالَج فى المستشفيات الخاصة ، وعلاوة على المجانين يوجد فى البلاد كلها ٥٠٠,٠٠٠ من ضعاف العقول .

ولقد كشف الفحص الذى تولته اللَّجنة الوطنية للصحة العقلية بعناية ، عن أن ٤٠٠,٠٠٠ طفل على الأقل على مستوى منخفض من الذكاء ، إلى درجة أنهم لا يستطيعون الاستمرار فى المدارس العامة ، والإفادة مما يتلقون من علم .... وحقيقة الأمر أن عدد الأفراد الذين انحطوا عقلياً أكثر من ذلك بكثير .

ويُقدَّر أن عدة مئات من الآلاف لم تشملهم الإحصاءات الرسمية مصابون باضطرابات نفسية ، وتدل هذه الأرقام على مدى استعداد الرجل المتحضر للعطب ، وكيف أن مشكلة الصحة العقلية تُعتبر من أهم المشاكل التى يواجهها المجتمع العصرى ، فإن أمراض العقل خطر داهم : إنها أكثر خطورة من السل والسرطان وأمراض القلب والكُلى ، بل والتيفوس والطاعون والكوليرا . فيجب أن يُحسب للأمراض العقلية حسابها ، لا لأنها تزيد عدد المجرمين فحسب ، بل لأنها ستُضعف حتماً التفوق الذى تتمتع به الأجناس البيضاء [1] .

---

(١) نعجب لمثل هذا العالم الكبير أن يظل على هذا الاعتقاد اللاعلمى بتفوق الجنس الأبيض ! وهذا دليل على أنه لا زال سجين الفكر الغربى والحضارة الغربية ، برغم نقده لها كما قال الشهيد سيد قطب بحق .

على أنه يجب أن يكون مفهوماً أنه لا يوجد ضعاف عقول ومجانين بين المجرمين بالكثرة التى يوجدون بها بين أفراد الشعب !!

« صحيح أن عدداً كبيراً ممن يعانون من النقائص العقلية موجود فى السجون ، بَيْد أنه يجب ألا يغيب عن بالنا أن أكثر المجانين واسعى الثقافة ، ما زالوا مطلقى السراح !

« ولا شك أن كثرة عدد مرضى الأعصاب والنفوس دليل حاسم على النقص الخطر الذى تعانى منه المدنية العصرية ، وعلى أن عادات الحياة الجديدة لم تؤد مطلقاً إلى تحسين صحتنا العقلية »[1] .



(١) انظر : كتاب « الإنسان ذلك المجهول » ترجمة شفيق أسعد فريد ، ص ١٧٨ - ١٧٩ الطبعة الرابعة ، مكتبة المعارف ، بيروت .

٥ - الجريمة والخوف

ماذا يُتوقع بعد هذا فى مجتمع تسيطر عليه المادية والأنانية ، حتى غلب عليه التحلل الخُلُقى ، والتفسخ العائلى ، والقلق النفسى ، والاضطراب العقلى ؟

إنه لا بد أن تسوده الجريمة ، وسيادة الجريمة معناها الخوف ، والخوف شر ما يُبتلَى به الإنسان فى الحياة ، وشر ما يُعاقِب القدر به الجماعات إذا انحرفت عن الجادة وكفرت بأنعم الله ، كالقرية التى حدَّث عنها القرآن وضربها مثلاً للآخرين : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ (١) .

وأبرز مثل لذلك هو أمريكا ، أُولى دول العالَم فى الثراء والقوة المادية والعسكرية والتقدم التكنولوجى .

وحسبى أن أنقل الفقرات التالية التى تتكلم فيها الوقائع والأرقام وحدها معبِّرة عما يجرى هناك ، وهى أرقام صادرة من داخل أمريكا نفسها ، ومن الجهات المسئولة فيها ، وهو أمر بيِّن يلمسه كل مَن زار هذه البلاد ، فكيف بمن يعيش فيها ؟

❊ ❊

● على الخوف تعيش أمريكا :

وهذه الفقرات من مقال توثيقى لمجلة « العربى » الكويتية تحت عنوان : « على الخوف تعيش أمريكا » !

---

(١) النحل : ١١٢

« الجريمة تجتاح أمريكا . الجريمة بكل أنواعها فى كل مكان ، فى المدن ، فى الريف ، فى الضواحى الهادئة ، فى عدد كبير من الولايات الأمريكية فى الشمال والجنوب . . فى الشرق والغرب ، جرائم من كل نوع . . قتل ونهب ، سطو واعتداء ، سرقات بالإكراه ، واغتصاب تحت تهديد السلاح . . ومع الخطر المتزايد الذى يهدد حياة الناس فى أكبر وأغنى دولة فى العالم انطلقت موجة من الإنذار فى المدن وضواحيها . . أطلقتها أجهزة الأمن التى تقع عليها مسؤولية حماية أرواح الناس وممتلكاتهم بعد الزيادة المخيفة فى معدلات الجريمة طبقاً لإحصائيات مكتب التحقيقات الجنائية .

« فقد تعدَّت الجريمة فى أكثر من خمس وعشرين مدينة أمريكية كل الأرقام التى سُجِّلت على مدى السنوات العشر الأخيرة » .

« هكذا تقول الصحف الأمريكية وهى تنقل لنا آخر ما سجلته الإحصائيات .

« تقرأ مجلة « تايم » الأسبوعية مثلاً فتجد أن هناك جريمة قتل تُرتكب كل ٢٤ دقيقة فى مكان ما بالولايات المتحدة ، وفى كل عشر ثوان يتعرض بيت للسطو ، وكل سبع دقائق تُغتصب امرأة . . إحصائيات أخيرة عن بعض ما وصلت إليه الجريمة فى الشهور الأولى من هذا العام .

« ثم تنقل لنا مجلة « ايس نيوز آند وورلد ريبورت » أرقاماً أخرى أكثر دقة وتفصيلاً لأنها مستقاة من مكتب التحقيقات الجنائية خلال عام ١٩٧٩ ، تقول : إن جريمة خطيرة تُرتكب كل ثانيتين ونصف ، وحادث سرقة كل ثلاث ثوان ، وسطو كل عشر ثوان ، وجريمة عنف كل ٢٧ ثانية ، وسرقة سيارة كل ٢٩ ثانية ، واعتداء على أشخاص لأى سبب أو بلا سبب كل ٥١ ثانية ، واغتصاب كل سبع دقائق ، وجريمة قتل كل ٢٤ دقيقة .

« وفى تحذير وزير العدل الأمريكى « وارن بيرجر » ، نرى الصورة المخيفة التى يعيشها الأمريكيون ، فقد قال فى شهر فبراير من هذا العام (١٩٨١) وفى

أعقاب قيام رئاسة جديدة وحكومة جديدة فى أمريكا : « إن هناك حكماً من الإرهاب يسود المدن الأمريكية » ثم يتساءل : « ألسنا رهائن داخل حدود بلادنا المستنيرة المتحضرة » ؟!

« ويقول مدير شركة مدينة « هوستون » بولاية « تكساس » الأمريكية : « الخوف من الجريمة يهدد تدريجياً بشلل الحياة فى المجتمع الأمريكى .. لقد سمحنا لأنفسنا بالتحلل والتفسخ إلى الحد الذى أصبحنا فيه نعيش مثلما تعيش الحيوانات .. فنحن نعيش وراء قضبان حديدية تحمينا من وصول اللُّصوص إلينا ، ومجموعة من الأقفال المثبتة فى الأبواب وأجهزة الإنذار ، ثم نرقد على الفراش وبجوارنا مسدس محشو بالرصاص ، وبعد هذا نحاول أن نحصل على شىء من الراحة .. يا للسخرية !

« ورئيس شرطة « هوستون » يعرف عن أى شىء يتحدث ، لأنه هو نفسه يحتفظ بعدة مسدسات محشوة بالرصاص فى غرفة نومه !

« لقد أصبح الأمريكيون يتصورون أن هذه الجرائم التى أصبحت بلادهم مسرحاً لها لا تقع إلا فى أمريكا . إنها جرائم موجهة ضد كل واحد منهم .. لقد أصبح المواطنون كلهم وبلا استثناء معرَّضين لها ، لهذا وقف الأمريكيون جميعاً صفاً واحداً لمقاومتها .. إنهم فى حرب ضد هذا العدو المجهول .. ولكن كيف يحاربون ؟ ومَن هو العدو ؟ !

« ويجيب رجال الأمن على الشق الأول : « إذا كنت تسير وحدك فى ساعة متأخرة بالليل ، وفجأة ظهر لك شبح وسط الظلام ، وأحسست بآلة حادة تلتصق بضلوعك من الخلف ، وصوت يأمرك بأن تعطيه حافظة نقودك ، فافعل دون تردد .. لا تقاوم ، أعطه كل شىء ، مالك وساعتك وأية مجوهرات أخرى تكون فى حوزتك ، هذه هى نصيحة البوليس لك ، إذا كنت لا تريد أن تموت ، حتى لو كنت تحمل مسدساً ، لا تحاول أن تستخدمه ،

لأنك لو حاولت وتحركت أصابعك إلى جيبك ، فسوف تكون حياتك قد انتهت ، وحتى لو كنت تجيد الجودو أو الكاراتيه ، أنت ميت ميت ، فلا تقاوم . . فالرصاصة أسرع من أى حركة تُقدم عليها ، لا تحاول مفاوضة مَن يهاجمك للاحتفاظ ببعض ما تحمل ، فكلما أحس بأنك تعرقل مهمته ، ازداد عنفاً ، لا تصرخ . . لا تقم بأى حركة مفاجئة ، وأنت تمد يدك إلى جيبك لتُخرج منه ما تريد أن يأخذه ، قل له : إنك تنوى أن تفعل ما يريد أن تفعله قبل أن تحرك ساكناً ، ولا تنس دائماً أن تخرج من بيتك وفى جيبك بعض المال ، لأن بعض هؤلاء المهاجمين سوف يتملكهم الغضب نتيجة خيبة الأمل التى أصابتهم ، وهم يخرجون بلا شىء من هذه المغامرة ، وربما قتلوك على أية حال » !

وفى دراسة جديدة تحت عنوان « تقرير فيجى » عن أثر الجريمة على الحالة النفسية للأمريكيين أجريت على أكثر من ألف شخص ، من جميع أنحاء الولايات المتحدة . . خرج الدارسون بنتيجة هامة ، وضعوها فى هذه الصورة الجديدة « الأمة خائفة » ! وهذه بعض ملامح الصورة :

* أربعة من كل عشرة مواطنين يشعرون أنهم مُعرَّضون للقتل والاعتداء والسرقة والاغتصاب ، وهو شعور دائم يلازمهم فى حياتهم اليومية .

* الخوف من الجريمة ينتاب كل طبقات المجتمع فى كل مكان بغض النظر عن أية حدود جغرافية ، ٥٢ ٪ فى المدن الكبيرة يعيشون فى خوف دائم ، وتهبط هذه النسبة إلى ٤١ ٪ فى المدن الصغيرة ، وإلى ٣١ ٪ فى الضواحى الصغيرة والمناطق الريفية .

* ٥٢ ٪ من مجموع عدد الذين استجوبوا خلال هذه الدراسة يمتلكون أسلحة للدفاع بها عن أنفسهم .

* تسعة من بين كل عشرة مواطنين يغلقون أبواب منازلهم بالضبة والمفتاح ، ويتعرفون على كل زائر قبل أن يفتحوا له الباب ويسمحوا له بالدخول .

* وسبعة من بين كل عشرة يُغلقون أبواب السيارات من الداخل أثناء قيادتهم لها ، وستة من بين كل عشرة يتصلون تليفونياً بأصدقائهم أو أقاربهم الذين كانوا فى زيارتهم ليطمئنوهم على وصولهم إلى بيوتهم سالمين .

* أكثر من نصف الذين أُجريت عليهم هذه الدراسة يحرصون دائماً على الخروج بملابس عادية بسيطة لا تَلفت إليهم أنظار المجرمين .

* ٦٣ ٪ يؤيدون منح البوليس سُلْطة أكبر تسمح لهم باستجواب المشتبه فيهم ، ولكن ثقة السود الأمريكيين فى الشرطة أقل بكثير من ثقة المواطنين البيض .

* أكثر من النصف لا يمانعون فى فرض مزيد من الضرائب ، بشرط أن تذهب هذه الأموال لدعم حماية الشرطة لهم .

* الغالبية العظمى تنادى بفرض عقوبات رادعة ، والسجن مدداً طويلة للذين يرتكبون جريمة من جرائم العنف ، بينما طالب اثنان من كل ثلاثة بالحكم بالإعدام .

ويقول التقرير فى النهاية : « إن أمريكا تعيش اليوم فى قبضة خوف جديد .... تزداد ضغطاً مع الوقت ... الخوف من أن تقع ضحية لجريمة .. الخوف من الإصابات الجسمانية .. الخوف من ضياع ما يملكون ... إن الأمريكيين اليوم يعيشون فى خوف ، بعضهم من بعض » !

* *

● الجريمة لماذا ؟

يقول بعض الإخصائيين فى علم الجريمة : إن هذا الشعور الذى أصبح يسيطر على الأمريكيين ليس ظاهرة ، وإنما هو نتيجة حتمية لأُسلوب الحياة فى

هذا البلد الحضارى الكبير ، فالأُسرة مفككة . . . والأبناء ينسلخون عنها فى سن مبكرة قبل أن يبلغوا العشرين فى أغلب الحالات . . . . وهى فترة خطرة حرجة فى سن الشباب الذى يجد نفسه فجأة قد أصبح حراً بعيداً عن نفوذ الوالدين . . . وفى هذه الحرية المبكرة يضل الشباب الطريق أو تنحرف نسبة كبيرة منهم .

والانسلاخ عن الأُسرة يعنى بالتالى الخروج على المجتمع الذى يعيش فيه . والنتيجة شعور بالضياع والوحدة . . . والإنسان فى وحدته يتحول إلى حيوان أو يتحول إلى عبقرى . . . فهو فى الحالتين يريد أن يُثبت وجوده ، محاربة الانحراف إذن لا بد أن تبدأ فى المجتمع الصغير الذى ينشأ فيه ، ثم المجتمع الكبير الذى سيخرج إليه ويواجه العالَم . . إذا استطاع الأمريكيون الإبقاء على الصلة القوية التى تربط أفراد الأُسرة الواحدة ، نجحوا فى القضاء على الجريمة التى زلزلت ضمير أُمة تعيش فى قمة الحضارة والتقدم .

على أن الجريمة لم تعد مقصورة على أمريكا الشمالية ، بل تعدتها إلى أوروبا الغربية ، بنسب مختلفة ، حتى روسيا نفسها ، بعد زوال الحكم الشيوعى ، ودخول عصر الانفتاح ، انتشرت فيها الجرائم ، وشاع الخوف ، وأصبح يُقال للسائحين من التحذيرات ما يُقال فى أمريكا تماماً ، بالإضافة إلى التحذير من الفتيات الجميلات اللاتى يبتسمن للسياح فى المحلات أو الطرقات ، فكثيراً ما تستخدمهن عصابات الإجرام فى أغراضها .

تلك هى آفات الحضارة الغربية المعاصرة ، وآثارها فى حياة أصحابها ، كما تحدثت عنها الوقائع ، وكما تكلمت الأرقام ، وكما دلَّت الشواهد القاطعة .

إنها الحضارة التى يريد بعض كُتَّابنا أن يجعلوها « حضارة عالمية » مع أنها غربية المولد والمنشأ والمسيرة ، غربية الوجهة والفلسفة والسلوك ، بل تكاد تكون الآن حضارة أمريكية ، بغلبة الطابع الأمريكى بخصائصه عليها فى جوانب عدة ، حتى إن بعض بلاد أوروبا الغربية لتقاوم هذا الغزو الثقافى الأمريكى لها ، كما رأينا ذلك أخيراً فى فرنسا .

إنها ليست متقدمة إلا فى الجانب المادى ، فلا يجوز وصفها بالتقدم بإطلاق ، كما لا يجوز وصفنا بالتخلف بإطلاق .

فنحن متخلفون عن القوم مادياً ، هذا صحيح ، ولكننا متقدمون عنهم كثيراً فى جوانب أخرى من الحياة أكثر أهمية وضرورة لسعادة الإنسان ، إن كان هم الإنسان هو السعادة وحدها ، إنها الجوانب الروحية والأخلاقية والإنسانية ، وهى الجوانب التى بها غدا الإنسان إنساناً مُكرَّماً مُستخلَفاً فى الأرض ، مُسخَّراً له كل ما فى هذا الكون .

* *

● كلمة حق من كاتب حر :

ويسرنى أن أُنوه هنا بالمقال القيم الذى كتبه الدكتور جلال أحمد أمين فى جريدة « الأهالى » فى ١٩٩٤/٩/٢١ حول « مؤتمر السكان والشعور بالعار » وفيه يقول :

« كنت كلما زرت أوروبا أو أمريكا خلال الثلاثين عاماً التى انقضت على دراستى للدكتوراة (فى بريطانيا) تأكد لدىّ هذا اليقين : أن المسألة ليست مسألة تقدم وتخلف ، بل شىء آخر ، كان هذا يمثل - فى جانب منه - خيبة أمل فى ذلك المثل الأعلى الذى كنا نحاول احتذاءه (يعنى تقليد النموذج الغربى فى التنمية) ، ولكنه كان يمثل أيضاً تحرراً عقلياً ونفسياً حقيقياً . فقد تخلصت من خرافة كبيرة كانت تعشعش فى عقلى ، والأهم من ذلك أنى تخلصت - أو كدت أتخلص - تماماً من ذلك الشعور بالعار :

نعم نحن فقراء ، ولكن هذا لا يعنى أننا متخلفون ! هم متقدمون عنا فى التكنولوچيا ، أى فى إنتاج السلع والخدمات ، أو بالأحرى : فِى فن إنتاج سلع وخدمات معيَّنة دون غيرها ، ولكن فى الحياة أشياء أُخرى غير إنتاج السلع والخدمات ، بل إن هناك سلعاً وخدمات أُخرى لا ينتجونها ، أو لا يفضلونها ، وقد تكون أفضل لنا .

لا بد إذن أن نميز - هكذا اتضح لى - بين الفقر والتخلف . نعم نريد

التخلص من الفقر ، وعلاجه زيادة أنواع معينة من السلع والخدمات ، وليس أى سلعة أو خدمة .

« أما التخلف . . فأنا أعرف الآن ما هو ؟ إنه ليس إلا هذا الشعور بالعار ، فأنت لست متخلفاً إلا بمقدار شعورك بالعار إزاء هؤلاء الذين يسمون أنفسهم متقدمين ، وسوف تظل متخلفاً مهما زاد متوسط دخلك ، ومهما ارتفع معدل نموك ، ومهما زاد ما تملك من سلع وخدمات ، طالما أنك تشعر بالعار ، لأنك لا تملك ما يملكونه !

« بل لعل أول شروط النهضة ، هو التخلص من هذا الشعور بالعار ، وإلا كانت النتيجة إذا استمررنا نرفع شعار التنمية ، ونفهمه على النحو الذى نفهمه الآن ، إذا استمررنا نسمى أنفسنا متخلفين ، ونحدد هدفنا بأنه اللحاق بمستوى المعيشة فى الغرب ! ستكون النتيجة : أننا - بعد خمسين عاماً أُخرى من التنمية - سيكون لدينا محلات « ماكدونالد » أكثر ، و « كوكا كولا » أكثر ، و« بلوجينز » أكثر ، وأيضاً سلاح أكثر ، وإعلانات أكثر ، وأفلام جريمة أكثر ، وشذوذ جنسى أكثر ، ومخدرات أكثر !! وستكون المرأة المصرية أو العربية - خلال هذه الفترة - قد حققت بالطبع نجاحاً باهراً فى الحصول على مساواتها بالرجل ، كلاهما يتمتع بنفس مستوى المعيشة ، وبحرية الحصول على نفس الكمية من الماكدونالد ، والبلوجينز ، والمخدرات ، والإعلانات ، وكلاهما له نفس النصيب فى المساهمة فى الجريمة والشذوذ الجنسى » !

إنها كلمة حق من رجل درس الدكتوراة فى الاقتصاد من بريطانيا ، وتزوج من إنجليزية ، ويعمل أُستاذاً للاقتصاد فى الجامعة الأمريكية فى القاهرة ، ولكنه تحرر عقلياً ونفسياً من خرافات عبيد الحضارة الغربية والفكر الغربى ، فقال ما قال ، ونِعْمَ ما قال .

* * *

الفصل الثالث

عقلاء رجال الغرب

يدقون أجراس الإنذار

- خفوت صوت الإيمان في عصرنا .
- دق أجراس الإنذار من خطر الحضارة المادية .
- الجميع يشعرون بخطر المادية المحدق .
- تحذيرات رجال العلوم .
- تحذيرات رجال الفلسفة والفكر .
- تحذيرات رجال الأدب .
- تحذيرات رجال السياسة .

خفوت صوت الإيمان فى عصرنا

لم يعد خافياً أن جمرة الإيمان فى ظل حضارة العصر قد فقدت كثيراً من توهجها واشتعالها فى القلوب ، إن لم تكن قد انطفأت تماماً فى قلوب كثيرة ، أماتتها المادية ، أو أمرضتها الغفلة والشهوة ، وأن صوت الإيمان قد خفت فى حنايا الضمائر ، ولم يعد له من السلطان والتأثير ما كان من قبل . . .

● دق أجراس الإنذار من خطر الحضارة المادية :

لقد أفاقت البَشرية على أخطار تهدد مسيرتها الحضارية ، بل تهدد وجودها ذاته . وشعرت البَشرية كلها أنها فى أمسِّ الحاجة إلى الإيمان بجوار العلم ، بل قبله ، وإلى الروح إلى جنب المادة - بل أسبق منها - وقد بدأ العالَم كله يعى ويحس بخطر الاستغراق فى العلم المادى واستخداماته « التكنولوچية » بعيداً عن الله تعالى وعن الإيمان به ، وبحسابه ولقائه ، والاهتداء بهداه .

لقد صنع الإنسان الآلة ليُسخِّرها لمنفعته ، ثم أصبح بعد مدة من الزمن عبداً لها !

تماماً كما صنع الإنسان الجاهلى الصنم ، نحته بيده ، ثم غدا بعد ذلك أمامه عابداً خاشعاً ، يسأله الرزق فى السلم ، والنصر فى الحرب !

إن علماء الغرب أنفسهم هم أول مَن شعر بخطر هذه « الآلية » التى جعلت الحياة الإنسانية لفظاً بلا معنى ، وجسداً بلا روح .

ومنذ عقود من السنين ونحن نسمع أجراس الإنذار ، يدقها علماء ومفكرون كبار من داخل العالَم الغربى ، أحسوا بالخطر ، فلم يسعهم إلا أن يُنبهوا ويُنذروا قومهم لعلهم يحذرون .

* *

● الجميع يشعرون بخطر المادية المحدق :

لقد تفاقم الخطر ، وتطاير الشرر : خطر المادية ، وشرر الحياة الآلية ، ولم يبق ذو عقل إلا أعلن شكواه من هذا البلاء الواقع والمتوقع ، الظاهر والكامن ، كمون النار فى البركان ، يوشك أن ينفجر فى لحظة من اللحظات ، فيأتى على الأخضر واليابس .

يستوى فى ذلك العلماء والأُدباء ، والفلاسفة والمفكرون ، والسياسيون والإداريون . وسنقتصر فى هذا الباب على الغربيين وحدهم ، لن ننقل هنا شهادات مثل محمد إقبال ، أو أبى الأعلى المودودى ، أو حسن البنا ، أو أبى الحسن الندوى ، أو سيد قطب ، أو وحيد الدين خان ، أو محمد الغزالى ، أو محمد قطب ، أو غيرهم من أقطاب المسلمين . مكتفين بشهادات أهل الغرب ، حتى يكون الشاهد على الحضارة من أهلها .

* *

● تحذيرات رجال العلوم :

من هؤلاء العلامة « ألكسيس كاريل » أحد أقطاب العلم ، والحاصل على جائزة « نوبل » فى العلوم ، وصاحب الكتاب القيم الشهير « الإنسان ذلك المجهول » الذى نقد فيه الحضارة الغربية نقداً علمياً رصيناً ، قائماً على منطق العلم ومسلماته .

* نقد ألكسيس كاريل :

يقول « ألكسيس كاريل » فى كتابه ذاك : « إن الحضارة العصرية تجد نفسها فى موقف صعب ، لأنها لا تلائمنا ، فقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية ، إذ أنها تولَّدت من خيالات الاكتشافات العلمية ، وشهوات الناس ، وأوهامهم ،

ونظرياتهم ، ورغباتهم ، وعلى الرغم من أنها أُنشئت بمجهوداتنا ، إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا » (١) .

« لقد أُهمل تأثير المصنع على الحالة الفسيولوچية والعقلية للعمال ، إهمالاً تاماً عند تنظيم الحياة الصناعية ، إذ أن الصناعة العصرية تنهض على مبدأ : « الحد الأقصى من الإنتاج بأقل التكاليف » حتى يستطيع فرد أو مجموعة من الأفراد أن يحصلوا على أكبر مبلغ مستطاع من المال ، وقد اتسع نطاقها دون أى تفكير فى طبيعة البَشر الذين يديرون الآلات ، ودون أى اعتبار للتأثيرات التى تُحدثها طريقة الحياة الصناعية التى يفرضها المصنع على الأفراد ، وأحفادهم » (٢) .

« يجب أن يكون الإنسان مقياساً لكل شىء ولكن الواقع هو عكس ذلك ، فهو غريب فى العالَم الذى ابتدعه ، إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه ، لأنه لا يملك معرفة عملية بطبيعته . . ومن ثَمَّ فإن التقدم الهائل الذى أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة هو إحدى الكوارث التى عانت منها الإنسانية . . فالبيئة التى ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة لا بالنسبة لقوامنا ولا بالنسبة لهيئتنا . . إننا قوم تعساء ، ننحط أخلاقياً وعقلياً . . إن الجماعات والأُمم التى بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم ، هى على وجه الدقة ، الجماعات والأُمم الآخذة فى الضعف ، والتى ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها ، ولكنها لا تدرك ذلك ، إذ ليس هناك ما يحميها من الظروف العدائية التى شيَّدها العلم حولها . . وحقيقة الأمر أن مدنيتنا مثل المدنيات التى سبقتها ، أوجدت أحوالاً معينة للحياة من شأنها أن تجعل الحياة نفسها مستحيلة ، وذلك لأسباب لا تزال غامضة . . . .

---

(١) الإنسان ذلك المجهول ، ترجمة شفيق أسعد فريد - مكتبة المعارف بيروت ص ٣٧ الطبعة الرابعة .

(٢) المصدر السابق ص ٣٨

إن القلق والهموم التى يعانى منها سكان المدن العصرية تتولد عن نظمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية . . إننا ضحايا تأخر علوم الحياة عن علوم الجماد . العلاج الوحيد الجائز لهذا الشر المستطير هو معرفة أكثر عمقاً بأنفسنا » (١) .

وفى موضع آخر : « إننا لن نصيب أية فائدة من زيادة عدد الاختراعات الميكانيكية ، وقد يكون من الأجدى أن لا نضفى مثل هذا القدر الكبير من الأهمية على اكتشافات الطبيعة والفلك والكيمياء ، فحقيقة الأمر أن العلم الخالص لا يجلب لنا مطلقاً ضرراً مباشراً ، ولكن حينما يسيطر جماله الطاغى على عقولنا ، ويستعبد أفكارنا فى مملكة الجماد ، فإنه يصبح خطراً ، ومن ثَمَّ يجب أن يحول الإنسان إتمامه إلى نفسه وإلى السبب فى عجزه الخُلُقى والعقلى ، إذ ما جدوى زيادة الراحة والفخامة والجمال والمنظر وأسباب تعقيد حضارتنا إذا كان ضعفنا يمنعنا من الاستعانة بها فيما يعود علينا بالنفع ؟ حقاً إنه لمما لا يستحق أى عناء أن نمضى فى تحميل طريق حياة تعود علينا بالانحطاط الخُلُقى ، وتؤدى إلى اختفاء أنبل عناصر الأجناس الطيبة ، ومن ثَمَّ فإنه من الأفضل كثيراً أن نوجه اهتماماً أكثر إلى أنفسنا من أن نبنى بواخر أكثر سرعة ، وسيارة تتوافر فيها أسباب الراحة ، وأجهزة راديو أقل ثمناً » (٢) .

وفى خواتيم كتابه ينادى قومه بما يشبه الإنذار بضرورة إعادة بناء الإنسان على أُسس جديدة ، فيقول : « يجب علينا الآن أن نعيد إنشاء الإنسان - فى تمام شخصيته - الذى أضعفته الحياة العصرية ومقاييسها الموضوعة . كذلك يجب أن يحدد الجنسان مرة أُخرى . فيجب أن يكون كل فرد إما ذكراً أو أُنثى ، فلا يُظهر مطلقاً صفات الجنس الآخر العقلية وميوله الجنسية وطموحه . وبدلاً

(١) المصدر السابق ص ٤١ - ٤٢ (٢) المصدر نفسه ص ٥٦ ، ٥٧

من أن يشبه الآلة التى تنتج فى مجموعات ، يجب على الإنسان - بعكس ذلك - أن يؤكد وحدانيته ، ولكى نعيد تكوين الشخصية يجب أن نحطم هيكل المدرسة والمصنع والكتب وأن ننبذ مبادىء الحضارة التكنولوچية نفسها .

« إن مثل هذا التغيير ليس غير عملى على الإطلاق . . وتجديد التعليم يحتاج بصفة خاصة إلى قلب الأهمية النسبية المنسوبة إلى الأبوين والمدرسين فى تكوين الطفل . . . إننا نعلم أنه من المستحيل أن ننشىء أفراداً بالجملة ، وأنه لا يمكن اعتبار المدرسة بديلاً من التعليم الفردى ، إن المدرسين غالباً ما يؤدون عملهم التهذيبى كما يجب ، ولكن النشاط العاطفى والجمالى والدينى يحتاج أيضاً إلى أن ينمى ، فيجب أن يدرك الوالدان بوضوح أن دورهما حيوى ، ويجب أن يعدا لتأديته . . أليس من العجيب أن برامج تعليم البنات لا تشتمل بصفة عامة على أية دراسة مستفيضة للصغار والأطفال وصفاتهم الفسيولوچية والعقلية ؟ يجب أن تُعاد للمرأة وظيفتها الطبيعية التى لا تشتمل على الحمل فقط ، بل أيضاً على رعاية صغارها » [1] .

وفى موضع آخر يقول : « يجب أن نحرر الإنسان من الكونيات التى خلقها علماء الطبيعة والفلك . . تلك الكونيات التى حُبِس فيها الإنسان منذ عصر النهضة ، إذ على الرغم من ضخامته الهائلة ، فإن عالَم المادة أضيق من أن يتسع للإنسان ، فهو كبيئته الاقتصادية والاجتماعية ، لا يلائمه » [2] .

ويختم الكتاب كله بقوله : « لقد حان اليوم الذى نبدأ فيه العمل لتجديد أنفسنا . . ولكننا لن نضع برنامجاً ، لأن البرنامج قد يخنق الحقيقة الحية خلف درع صُلب ، إنه سيمنع انبثاق غير المتنبأ به ويحبس المستقبل داخل حدود عقلنا .

---

(١) المصدر السابق ص ٣٥٣

(٢) المصدر نفسه ص ٣٥٩

« يجب أن ننهض ونمضى .. يجب أن نحرر أنفسنا من التكنولوچيا العمياء ، وننفهم تعقد طبيعتنا وخصبها .. لقد حددت علوم الحياة أهدافها للإنسانية ، ووضعت تحت تصرفها الوسائل المؤدية إلى بلوغها ، ولكننا ما زلنا غارقين فى عالم خلقته علوم الجماد دون أى احترام لقوانين نمونا ، فى عالم لم يُصنع لنا ، لأنه ولد بسبب غلطة ارتكبها عقلنا ، وبسبب جهلنا بذاتنا الحقيقية .

« وليس فى استطاعتنا أن نكيف أنفسنا بالنسبة لهذا العالَم .. ومن ثَمَّ فنثور عليه .. سنقلب قيمه وسنعيد إنشاءها تبعاً لاحتياجاتنا الحقيقية .. إن علم الإنسان يمدنا اليوم بقوة لتنمية إمكانيات جسمنا .. فنحن نعرف الآليات السرية لنشاطنا الفسيولوچى والعقلى ، كذا أسباب ضعفنا .. ونعرف كيف عدونا على القوانين الطبيعية ، ونعرف لماذا عوقبنا ، ولماذا فقدنا طريقنا فى الظلام .. ولكن مهما يكن من أمر . فإننا نرى خلال ضباب الفجر ، وعلى الضوء الباهت ، طريقاً قد يقودنا إلى الخلاص .

« لأول مرة فى تاريخ الإنسانية ، تستطيع حضارة متداعية أن تميز أسباب انحلالها ، ولأول مرة تجد مثل هذه الحضارة قوة العلم الهائلة تحت تصرفها ، تُرى هل تُستخدم هذه المعرفة وهذه القوة ؟ إنها أملنا الوحيد فى الفرار من المصير المشترك لجميع حضارات الماضى العظمى .. إن مصيرنا بين أيدينا .. فيجب أن نسير قُدُماً فى الطريق الجديد » [(١)] .

❊

❊ نقد رينيه دوبو :

وهذا إنذار آخر أسجله هنا بنقل فقرات من كتاب مهم آخر ظهر فى السبعينات لعالِم من كبار علماء البيولوچيا ، ومن حملة جائزة نوبل أيضاً ، ويعتبر كتابه امتداداً لكتاب « ألكسيس كاريل » ، بعد نحو ثلث قرن من الزمان .

---

(١) نفس المصدر ص ٣٥٧

هذا الكتاب هو كتاب (So Human An Animal) للبروفسور « رينيه دوبو » (الأمريكى الجنسية ، الفرنسى الأصل) الذى ترجمه إلى العربية الدكتور نبيل صبحى الطويل تحت عنوان « إنسانية الإنسان » [1] والكتاب - برغم ما فيه من نقاط ضعف ومآخذ - خليق أن يُقرأ ، وما أنقل هنا دليل على الباقى . يقول « دوبو » :

« نحن ندَّعى أننا نعيش فى عصر العلم ، إلا أن الحقيقة هى أن الميدان العلمى كما يُدار الآن ، ليس فيه توازن يسمح للعلم بأن يكون ذا فائدة تذكر فى إدارة أُمور الإنسان ؟ لقد جمعنا جسماً هائلاً من المعلومات حول المادة ، وتقنية قوية لضبط واستغلال العالَم الخارجى .. ومع ذلك لا يزال جهلنا فاضحاً بالآثار التى قد تنتج عن اللَّعب بمهاراتنا هذه ، ونتصرف فى غالب الأحيان وكأننا آخر جيل يعيش على هذه الأرض .

« لقد اكتسبنا معلومات كثيرة عن آلية الجسم ، وبعض المهارة فى ضبط تفاعلاته وتصليح عيوبه ، ولكن ، بالمقابل ، نحن نكاد لا نعلم شيئاً مطلقاً عن الطرق التى يحول بها الإنسان قابلياته الموروثة ليهندس بها شخصيته الفردية ، فبدون هذه المعلومات لن تفيد الاختراعات الحديثة - التقنية والاجتماعية - الأهداف الإنسانية .

« إن الحياة الشاذة التى يعيشها عامة الناس الآن تخنق وتعطل التفاعلات الحيوية الضرورية لسلامة الإنسان العقلية ، ونمو الإمكانات الإنسانية .

« إن كل المفكرين قلقون على مستقبل الأبناء الذين سيقضون حياتهم فى بيئات اجتماعية ومحيطية سخيفة عابثة باطلة ، نخلقها نحن له بدون أى تفكير ، وأكثر ما يزعج هو علمنا بأن الخصائص العضوية والفكرية للإنسان تخططها

---

(١) نشرته مؤسسة الرسالة فى بيروت .

اليوم البيئات الملوثة ، والشوارع المتراصة والأبنية الشاهقة ، والخليط الحضرى المتمرد ، والعادات الاجتماعية التى تهتم بالأشياء ، وتُهمل البشر » [١] .

« الإنسان العصرى قلق حتى ولو كان فى زمن السلم ، وفى جو البحبوحة الاقتصادية ، لأن عالم التكنولوچيا الذى يشكل محيطه المباشر ، والذى فصله عن عالم الطبيعة الذى تطور الإنسان فيه أصلاً ، فشل - أى عالم التكنولوچيا - فى توفير حاجات الإنسان الأساسية التى لم تتغير ولم تتبدل ، ومن نواح كثيرة يشبه إنسان العصر « الحيوان البرى » الذى يقضى حياته فى حديقة الحيوانات ، فالإنسان الآن كهذا الحيوان . . يتوفر له الغذاء الكافى والحماية الكافية من القسوة ، ولكنه يُحرم من المثيرات الطبيعية الأساسية للعديد من وظائفه الجسدية والفكرية ، فالإنسان اليوم ليس فقط غريباً عن أخيه الإنسان وعن الطبيعة ، بل الأهم بكثير هو أنه غريب معزول عن أعماق ذاته » [٢] .

« منذ قرنين تقريباً والإنسان الغربى يعتقد أن خلاصه سيأتى عن طريق الاكتشافات التكنولوچية ، ولا جدال فى أن المكتشفات التكنولوچية زادت من غناه المادى وحسَّنت صحته العضوية . . إلا أنها لم تجلب له بالضرورة الغنى والصحة اللذين يولدان السعادة » [٣] .

« وتواجهنا العلوم المادية بتناقضات لا حلول لها عندما نحاول فهم حدود الفضاء ، أو بدايات الزمن ، أضف إلى ذلك أن الإنجازات العلمية تثير - بصورة عامة - مسائل أخلاقية يعتبرها كثير من العلماء خارج نطاق كفاءاتهم ، ويشيرون إلى أن العلم والتكنولوچيا أدوات ووسائل ليس لها أخلاق ، ويمكن استعمالها لخير البشرية أو لدمارها ، والاعتقاد بأن العلم قادر على حل أكثر المشاكل العملية أمر يكذبه الوعى المتزايد بأن تكنولوچيا العلم تثير مشاكل جديدة فى محاولاتها لحل المشكلات القديمة » [٤] .

---

(١) إنسانية الإنسان ص ٣١ من الترجمة العربية

(٢) المصدر السابق ص ٤٩

(٣) المصدر نفسه ص ١٨٦

(٤) نفس المصدر ص ٢٢٠

وإذا سمح للتكنولوچيا بالنمو دون مراقبة مناسبة ، فقد تصبح قوة مُخرِّبة تؤثر على العلاقات الدقيقة التى بُنيت عليها المدنيات فى الماضى ، وكما تنبأ الكاتب الإنكليزى « أ . م . فورمستر » فى كتابه « توقف الآلة » :

« ستسير التكنولوچيا قُدماً .. ولكن ليس على خطوطنا التى رسمناها لها وستتقدم ولكن ليس نحو أهدافنا » !

وأكثر المسائل التى تثيرها التكنولوچيا - أساساً - اجتماعية سياسية اقتصادية أكثر مما هى علمية فى طبيعتها ، أضف إلى ذلك أن التكنولوچيا غير قادرة - نظرياً - على التهرب من الرقابة البشرية ، إلا أنها فى الواقع تسير فى طريق مستقل لسبب بسيط ، هو أن مجتمعاتنا لم تضع بعد توجيهات وضوابط للتحكم فيها بالأُسلوب الفعَّال المناسب .

وكل المجتمعات المتأثرة بمدنية الغرب تتبع « **توراة التنمية** » كعقيدة ، وتدور فى دائرة تشبه « حلقات ذكر الدراويش » ، وتقول هذه « التوراة » : انتجوا أكثر ، لكى تستهلكوا أكثر ، ثم لكى تنتجوا أكثر !! ولا يحتاج الإنسان لكى يكون عالِم اجتماع حتى يدرك أن هذه هى فلسفة مريضة ، مجنونة ، فلن يستطيع تسارع النمو الاستمرار طويلاً ، فضلاً عن الاستمرار الدائم إلى ما لا نهاية .

والواقع أن هذا النمو قد يتوقف فى فترة أقصر مما يتوقعه الوعى النامى بين جمهور المثقفين ، والذى يعتقد أن التكنولوچى بدون ضوابط يضر بصفات « الكيف » لحياة الإنسان .

وفى حديث بعنوان : « هل تستطيع أمريكا التغلب على خرافة النمو » ؟ كان سكرتير وزارة الداخلية « استيوارت . ل . أودال » شجاعاً عندما قال : إنه من السهل اعتبار أمريكا التى صنعها الإنسان . . كارثة على مستوى القارة » لقد ذكّر « أودال » مستمعيه : « إننا نملك أكبر عدد من السيارات وأسوأ ساحات « الخردة » بالمقارنة لأية دولة أخرى فى العالَم ! نحن أكثر سكان العالَم تنقلاً ونتحمل أكبر قدر من الازدحام ! ونولِّد أكبر قدر من الطاقة ، وفى أجوائنا أكثر الهواء تلوثاً فى العالَم » ، ولقد نقل عن رئيس بلدية « كليفلند » قوله مازحاً : « إذا لم نكن واعين فسيذكرنا التاريخ على

أساس أننا الجيل الذى رفع إنساناً إلى القمر . . بينما هو غائص إلى ركبتيه فى الأوحال والقاذورات » !! [1] .

* * *

* كلمات هنرى لنك :

ويقول الدكتور « هنرى لنك » طبيب النفس الأمريكى الشهير ، معارضاً للذين ينكرون الإيمان بالغيب ، باسم العلم واحترام الفكر ، مبيناً أن العلم وحده لا يستطيع أن يحقق للإنسان أسباب السعادة الحقة :

« والواقع أنه يوجد الآن فى كل ميدان من ميادين العلم من الظواهر ما يؤجج شعلة ذلك الضلال ، وأعنى به تعظيم شأن الفكر ، ومع ذلك كان علماء النفس هم الذين توصلوا إلى أن الاعتماد المطلق على التفكير فحسب ، كفيل بهدم سعادة الإنسان ، وإن لم يقوض دعائم نجاحه ، ثم إن إماطة اللثام عن هذا الاكتشاف لم تتم إلا عن طريق تجارب هؤلاء العلماء مع الناس ، واختباراتهم العلمية التى أجروها على الآلاف ، وبقى أن أقول : إن الوصول إلى هذه المكتشفات قد تم بالنسبة لعلاقتها بطرق التعليم والدين والشخصية وفلسفة الحياة عموماً .

« فلن نهتدى إلى حل شاف لمشكلات الحياة العويصة ، ولن ننهل من مورد السعادة عن طريق تقدم المعلومات والمعرفة العلمية وحدها ، فارتقاء العلم معناه ازدياد الارتباك واضطراد التخبط ، وما لم يتم توحيد هذه العلوم كلها تحت راية حقائق الحياة اليومية الواضحة وإخضاعها ، فلن تؤدى هذه العلوم إلى تحرير العقول التى ابتدعتها وابتكرتها ، بل ستقود حتما إلى انهيار هذه العقول وتعفنها ، كما أن هذا التوحيد لا بد أن يأتى عن طريق آخر غير طريق العلم ، وأعنى به طريق الإيمان » [2] .

* *

---

(١) انظر : فصل « التخلص من أسطورة النمو والتنمية » من كتاب « إنسانية الإنسان » ص ٢١٩ - ٢٣١

(٢) العودة إلى الإيمان ص ٨١ - ٨٢ ، وقد تُرجم إلى العربية فى أوائل الخمسينات وذكر مترجمه - ثروت عكاشة - أنه طُبع فى أمريكا ٤٨ طبعة .

● **تحذيرات رجال الفلسفة والفكر :**

أما الفلاسفة والمفكرون الذين حذَّروا من مادية الحضارة الغربية ، وإغراقها فى الآلية الصناعية فهم كثيرون . .

*** تحذير چون ديوى :**

من ذلك تحذير الفيلسوف الأمريكى الشهير « چون ديوى » الذى قال : « إن الحضارة التى تسمح للعلم بتحطيم القيم المتعارف عليها ، ولا تثق بقوة هذا العلم فى خلق قيم جديدة . . لهى حضارة تدمر نفسها بنفسها » (١) .

*

*** تحذير توينبى :**

ومنهم المفكر الكبير المؤرخ البريطانى المعاصر « توينبى » إذ ينقل عنه الكاتب الأمريكى « كولن ولسون » مقولته : « لقد أغرت فنون الصناعة ضحاياها ، وجعلتهم يسلمونها قياد أنفسهم ببيعها « المصابيح الجديدة » لهم مقابل « المصابيح القديمة » ، لقد أغرتهم فباعوها أرواحهم وأخذوا بدلاً منها « السينما » و « الراديو » وكانت نتيجة هذا الدمار الحضارى الذى سببته تلك « الصفقة الجديدة » إقفاراً روحياً وصفه « أفلاطون » بأنه « مجتمع الخنازير » ووصفه « الدوس هكسلى » بأنه « عالم زاهٍ جديد » !!

ويأمل توينبى فى نهاية البحث بأن خلاص الغرب لا يكون إلا بالانتقال من الاقتصاد إلى الدين ، ولكنه - كما يذكر « ولسون » - لا يخبرنا كيف سيتم هذا الانتقال ، وإنما يؤكد قائلاً : « إن الغربى يستطيع بواسطة الدين أن يتصرف تصرفاً روحياً يضمن سلامته بالقوة المادية التى ألقتها بين يديه ميكانيكية الصناعة الغربية » (٢) .

*

---

(١) نقل ذلك عنه دوبو فى كتابه الآنف الذكر « إنسانية الإنسان » ص ٤٣

(٢) عن كتاب « سقوط الحضارة » لكولن ولسون ، وهو كاتب أمريكى معروف ناقد للحضارة الغربية أيضاً .

* تحذير جارودى :

ولعل أحدث رجال الفكر من نُقَّاد الحضارة الغربية المادية ، ومن أهلها هو المفكر الفرنسى الشهير « روجيه جارودى » الذى انتهى به نقده للحضارة الغربية إلى هداية الإسلام ، ولنستمع إليه يقول فى محاضرة له فى جامعة قطر منذ عدة سنوات : « بفضل تخصيص ٦٠٠ مليون دولار سنة ١٩٨٢ للإنفاق على التسلح أصبح كل ساكن من سكان الأرض تحت تهديد ما يعادل أربعة أطنان من المتفجرات ، وصارت الموارد والثروات فى نفس السنة موزعة بشكل أدى إلى هلاك ٥٠ مليون نسمة فى العالَم الثالث بسبب المجاعة وسوء التغذية ! ومن الصعب أن نسمى ذلك المسار التاريخى الذى سلكته الحضارة الغربية تقدماً ، والذى أصبحت على آثره ، ولأول مرة فى تاريخ الملحمة الإنسانية الذى يمتد على مدى مليونى أو ثلاثة ملايين سنة قادرة تقنياً على محو كل أثر للحياة الاجتماعية على وجه البسيطة .

على الصعيد الاقتصادى يسود مفهوم النمو ، أى تلك الرغبة العمياء فى زيادة الإنتاج أكثر وأكثر ، بسرعة متزايدة ، وإنتاج أى شىء صالحاً كان أو غير صالح ، مضراً أو مسبباً للهلاك .

على الصعيد السياسى ، قامت علاقات اجتماعية داخلية وخارجية يطغى عليها العنف ، أى الصراع بين مصالح الأفراد والطبقات والأُمم ، ونزعتهم إلى القوى والهيمنة .

على الصعيد الثقافى الذى يتميز بفقدان المعنى والغاية ، قامت تقنية غايتها التقنية لذاتها ، وعلم يهدف إلى العلم ذاته ، وفن لا يهدف إلا للفن ، وحياة لا تهدف إلى شىء .

وفى مستوى العقيدة ضاع مفهوم التسامى والعلو ، أى ذلك البُعْد الإنسانى الحقيقى للبَشر .

إن الثقافة « الفرعونية » التى تعتمد عليها هذه الحضارة تدَّعى حصر الحياة

فى الضرورة والصدفة ، كما يدَّعيه أحد علماء الأحياء ، أو إلى عاطفة لا طائل من ورائها مثلما كتب أحد الفلاسفة ، أو إلى اللامعقول كما أعلنه أحد الروائيين ، أى انعدام المعنى ، وموت الإله ، وموت الإنسان ، وموت كل شىء ، مثلما يردده علينا دعاة العدم والمتنبئون به ، وليس هناك من حضارة أغفلت بصفة كلية التساؤل عن معنى الحياة والموت مثلما هو الشأن بالنسبة للحضارة الغربية الحالية ، فهذه الثقافة « الفرعونية » تعتمد على مبادئ أربع زجَّت بنا فى ظرف خمسة قرون فى طريق مسدود لو استمررنا فيه فسوف يؤدى إلى انتحار الكون بأكمله :

* الفصل بين العلم والحكمة . . أى الفصل بين الوسائل والغايات .

* إخضاع كل حقيقة واقعية إلى المفاهيم الكمية ، مستبعدين بذلك الحب والإيمان والمعنى .

* الفردانية التى تجعل من الأفراد أو المجموعات محور ومقياس كل شىء وتعتبر كل « نظام » توازناً مؤقتاً بين أطماعهم المتنافسة .

* إنكار التسامى . . أى إمكانية (الاكتفاء) بالنسبة لحتميات نمو يقتصر على الكم ويستبعد الخلق والحرية والأمل » .

وقد تجلى نقد جارودى للحضارة المعاصرة ونظامها العالمى الجديد الذى يجسد نهمها ، ورغبتها فى السيطرة : سيطرة أثرياء الشمال تقودهم أمريكا على فقراء الجنوب فى العالَم ، سيطرة فرعون وقارون وهامان على المستضعفين فى الأرض . تجلى ذلك فى تعليق « جارودى » على « مؤتمر السكان » الذى عُقد بالقاهرة (٥ - ١٣ سبتمر ١٩٩٤) تحت مظلة الأُمم المتحدة ، ونشرت الصحف العربية نبذاً من قوله ، ونشرته كاملاً صحيفة الشعب - القاهرة فى ١٦/٩/١٩٩٤ وهذا نصه :

« يشكل مؤتمر القاهرة الذى يجعل من الديمغرافيا فى إفريقيا وأمريكا اللاتينية وآسيا السبب الأساسى للأزمات التى تهدد العالم (الافتقار إلى المواد

الغذائية والماء والنفط ، وقحط الأراضى وتلوث الكتلة الهوائية) ، الحلف المقدس العنصرى والتقنوقراطى بين الدول الأكثر غنى فى العالَم (الولايات المتحدة وأوروبا واليابان) وبين حلفائهم (الأقليات الغنية التى تمسك بزمام السلطة فى البلدان الفقيرة تحت رعاية البلدان الغنية) ضد الشعوب الأكثر فقراً والأكثر حرماناً والذاهبة ضحية ما يزعم أنه « النظام الدولى الجديد » الذى يُبقى على الفوضى الاستعمارية القديمة ويزيد من خطورتها .

« هؤلاء يعملون من أجل الوصول إلى مآربهم فى ترسيخ فكرة « القنبلة الديمغرافية » فى العقول ، هؤلاء يقولون إن الأرض لا تستطيع أن تُطعم سبعة بلايين ساكن حسب التوقعات لسنة ٢٠١٠ م .

« أما نحن فنقول : يفيد « برنامج الأمم المتحدة للتنمية » أنه فى العام ١٩٩١ فيما يسيطر خُمس سكان الكرة الأرضية الأكثر غنى على ٨٤٫٧ ٪ من موارد العالَم الطبيعية ويستهلكها ، فإن خُمس سكان القارة الأكثر فقراً لا يملك سوى ١٫٤ ٪ من هذه الموارد .

« وهكذا يأتى الأغنياء إلى القاهرة ، تحت غطاء الأُمم المتحدة التى يتسلط عليها القادة الأمريكيون ، ليقولوا للفقراء : لا تنجبوا بعد الآن أطفالاً كى نستطيع الاستمرار فى نهبنا وإفراطنا !

« تجاه هذه الإبادة الجَماعية للأكثر حرماناً نقول : إذا كنتم تزعمون أن الأرض لا تستطيع إطعام جميع الناس ، فلماذا تجبر الولايات المتحدة أوروبا على تبوير ١٥ ٪ من أراضيها الصالحة للزراعة ، لولا أنها تريد الإبقاء على صادرات وأسعار القمح الأمريكى على مستواها ، وذلك على حساب الجياع من الناس ؟

« لماذا تصرفون مئات البلايين لتكديس جبال من اللَّحم والزبدة والحليب المجفف فى أوروبا إن لم تكونوا تريدون الإبقاء على أسعار هذه المواد الغذائية على مستواها ومنعنا من الحصول عليها ؟!

« إنكم تستنفدون أفضل أراضينا فى قارات ثلاث ، وتحرمون أريافنا من سكانها ، لأن زراعاتكم الخفيفة بما تستهلك من أسمدة كيمياوية وتربيتكم الصناعية للمواشى تجعل فلاحينا يتكومون فى ضواحى عواصمنا فى إطار من التنظيم المدنى الجنوبى ، لأنهم فقدوا إمكان العيش على أراضى أجدادهم .

« هؤلاء يقولون : سنفقد محرك « نمونا » أى البترول .

« ونحن نقول : تستهلك الولايات المتحدة التى تمثل ٥ ٪ من سكان العالَم ، ربع الإنتاج العالمى لسياراتها ولسد حاجة ٩٠٠ لتر لكل هكتار أرض ومتطلباته من ماكينات زراعية وأدوية مبيدة للحشرات وسماد مستعمل فى الزراعة الصناعية .

« وتنوى الولايات المتحدة ، من أجل الاستمرار فى عربدتها الاستيلاء بالقوة على مناجم العالَم ، فى فنزويلا والمكسيك وكذلك فى آسيا وفى الخليج والعراق والاتحاد السوفييتى السابق ، وكذلك فى القارة الإفريقية على مناجم نيجيريا والصومال ، كما تحضر ذرائع الحرب ضد الأهداف المتبقية أى إيران وليبيا والسودان .

« هؤلاء يقولون : سينضب الماء فى العالَم .

« ونحن نقول : إن المال الذى فرضه تجار الأسلحة لبيع ٢٣ طائرة حربية إلى باكستان من قِبَل فرنسا ، بوسعه أن يُزوِّد بماء الشرب سكان باكستان البالغ عددهم ٥٥ مليون نسمة يفتقرون إليه .

« ونحن نقول : إن تخصيب الصحراء من داكار إلى مقديشيو بواسطة شبكة مضخات مائية تحركها حابسات مياه تعمل بواسطة الطاقة الشمسية يكلف ١٫٥ بليون دولار ، أى ما يعادل تكلفة بناء حاملة طائرات مجهزة بست وثمانين طائرة عاطلة عن الطيران ، أى ما يعادل أيضاً عُشر المبالغ التى تجنيها الولايات المتحدة لبيع أسلحتها إلى جلادى الجنوب أصحاب الامتيازات .

« وهكذا تستمر شعوبنا في شرب ماء المستنقعات الملوث ، كي تتمكن أحواض السباحة ذات التكلفة الباهظة أن تتكاثر لدى المترفين .

« هؤلاء يقولون : إن السكان الكثيرى العدد فى الجنوب يتسببون فى تلوث الهواء وازدياد حرارة المناخ .

« ونحن نقول : مَن الذى يتسبب فى الفجوات الحاصلة فى طبقة الأوزون إن لم تكن مداخن مصانعكم وأسطوانات انفلات الغاز من محركات سياراتكم وعبوات عطركم المضغوطة ؟

« إن واحداً من سكان الولايات المتحدة يساهم فى ازدياد حرارة الأرض ست مرات أكثر من مواطن واحد فى المكسيك و ١٩٠ مرة أكثر من مواطن واحد فى أندونيسيا .

« مَن الذى يقضى على رئة الأرض من خلال القضاء على الغابات فى الأمازون ، إن لم تكن شركات الولايات المتحدة وأوروبا واليابان المتعددة الجنسية والتى تقطع الأشجار لبناء سدودها متسببة بفيضانات تقضى على آلاف الهكتارات ، بالإضافة إلى المستعمرين الجشعين الذين يقضون على الغابة أو على واحاتها التى تنبت فيها الخضار من أجل تأمين تربيتهم الصناعية للمواشى .

« هؤلاء يقولون : إن قارتنا مستغلة إلى أقصى حد ، وما يهدد الكرة الأرضية بالموت ليس ولادة أبنائنا ، ما يهدد بالموت هو نموذج نموكم الجنونى الذى ما فتئتم منذ خمسة قرون تحاولون فرضه على الكرة الأرضية بأسرها بواسطة الاستعمار فى البداية ومن ثَمَّ بواسطة صندوق النقد الدولى .

« هذا النمو الذى يتمثل بإنتاج متزايد أكثر فأكثر لأى شىء وبسرعة أكبر فأكبر ، سواء أكان مفيداً أو غير مفيد ، مضراً أو مميتاً ، مثل تجارة الأسلحة والمخدرات ، وهذا تسمونه « تنمية » خالطين بين « النمو » الكمى للأشياء وبين « التنمية النوعية » للإنسان .

« إن جميع سفسطاتكم ترتكز على هذه المسلَّمة : إن الأرض لا تستطيع إطعام جميع الكائنات الحية إذا استطعنا فرض نماذجنا المستوردة فى الاستهلاك والتبذير من دون هدف إنسانى ، مسيرين كما لو بقدرة قادر بنواميس « التبادل الحر » العمياء و« بوحدانية السوق » التى تطفىء لدى شبيبتكم الإيمان بالمستقبل ، وبمعنى الحياة ، وبالخلق المستمر للناس وثقافاتهم ، ضاربين بعرض الحائط التطور الداخلى الناشىء من أرض هؤلاء الذين تستغلونهم وتاريخهم وثقافتهم .

« هؤلاء يقولون « مؤتمر القاهرة » كما لو أن الأمم المتحدة ، وهى عميلة لتنفيذ أوامر الدولة العظمى الباقية ، تشكل حكومة للعالَم .

« هكذا يزعمون أنهم يستطيعون الإبقاء ، إلى ما لا نهاية ، على الانحرافات التى تؤدى بنا إلى حرب إبادة ، على مستوى الكرة الأرضية بمنع الناس من الولادة مثلما فعلوا ذلك فى البرازيل ، عندما عقموا خمسة وعشرين مليون امرأة ، وملايين أخرى فى آسيا وإفريقيا .

« ونحن نقول : إن ما يهدم الأرض ويُفقد الحياة معناها ومستقبلها هو النظام الذى يريد فرض سيطرته على العالَم أجمع بواسطة « حرية للتبادل » تجعل التبادل غير متكافىء أكثر فأكثر ، وتجعل من وحدانية السوق التى تتيح المجال باستمرار أو بديمومة ارتباط المستعمرين القدامى بمستعمريهم السابقين .

« لقد أعلن أحد رؤساء الولايات المتحدة خلال السنة الماضية : « يجب خلق سوق واحدة من الألسكا إلى أرض النار » ، وأضاف وزير خارجيته : « سوق واحدة من فانكوفر إلى فلاديفوستوك »

« ونحن نقول : « إن مؤتمر القاهرة يجب ألا يسمح بصلب الإنسانية على صليب من ذهب ، لمحاولته الإبقاء على مثل علاقات القوة هذه بين أقلية مالكة وأكثرية مستغلة بمنع هذه الأخيرة من نشر حياتها » .

* *

● تحذيرات رجال الأدب :

وأما الأدباء الذين نقدوا مادية الحضارة ، وحذّروا من سيطرتها على الإنسان بمقالاتهم أو أشعارهم أو رواياتهم وأقاصيصهم ، فهم كثيرون من شتّى المدارس ، ومختلف الاتجاهات .

وحسبى أن أذكر هنا ما كتبه أديب أمريكى كبير ، هو « چون شتاينيك » وهو كاتب قصصى يُعَد فى نظر كثيرين أعظم كُتَّاب القصة فى أمريكا ، وذاك فى خطاب أرسله إلى صديقه « ادلاى استيفنسون » مرشح الحزب الديمقراطى لرئاسة الجمهورية لسنة ١٩٥١ و١٩٥٦

وخلاصة الخطاب كما نشره الأستاذ أحمد بهاء الدين فى صحيفة « الأخبار » القاهرية [١] :

« أن مشكلة أمريكا هى ثراؤها ، وأن لديها أشياء كثيرة ، ولكن ليس لديها رسالة روحية كافية ، وقال : لو أننى أردت أن أُدمر شعباً ، فإننى أعطيه أكثر مما يريد ، فهذه الوفرة تجعله جشعاً تعيساً مريضاً ! إن شعبنا لا يمكن أن يعيش طويلاً على الأُسس الحالية لحياته .

« إننا فى حاجة إلى ضربة قويه جعلنا نفيق من ثرائنا ، لقد انتصرنا على الطبيعة . ولكننا لم ننتصر على أنفسنا » !!

ويكتب الأُستاذ أنيس منصور عن الأدب الغربى المعاصر تحت عنوان « هذا الجيل بلا حدود ولا قيود ولا أمل » [٢] .

يقول : « هذه عبارة الكاتب الفرنسى « شارل موليه » فى الجزء الثالث من كتابه عن « أدب القرن العشرين والمسيحية » فى ٥٠٠ صفحة ، وهو فى هذا الكتاب بأجزائه الثلاثة لا يدافع عن المسيحية ولا يهاجمها ، ولكن يجعلها

---

(١) بتاريخ ٢٨/ ١/ ١٩٦٠

(٢) صحيفة « الأخبار » القاهرية فى ١٢/ ٢/ ١٩٦٠

حائطاً كبيراً ترجع إليه الحضارة الغربية فى محنتها الروحية ، وهذا الكتاب هو أحسن الكتب وأشملها عن أدب القرن العشرين ، فلم يظهر كتاب شامل عن أدب القرن العشرين إطلاقاً ، وإنما كل الكتب التى صدرت هى دراسات خاصة مطولّة عن كثير من هؤلاء الأُدباء . . ولكن هذه الدراسات الموضوعية قد انفرد بها صابراً مجتهداً « شارل موليه » .

« والمؤلف يعتمد على النصوص الأدبية ولا يُطلق حكماً دون أن يكون فى يديه وفى جيوبه حيثيات هذا الحكم ، وهو لا يخلو للمداولة ويصدر أحكامه ، وإنما يصدرها علناً فى محكمة النقد الأدبى .

« والجزء الثالث هذا قد تناول فيه الآثار العميقة لكل من « مالرو » ، و« كافكا » ، و« فركرو » ، و« شولوخوف » ، و« مولنيه » ، و« بومبار » ، و« فرانسواز ساجان » ، و« لاديستاس ريمون » . ومن رأى المؤلف أن الفيلسوف السياسى الموسيقار الطيار « أندريه مالرو » هو الذى وضع أصابعه على الخطر الذى ينتظر الإنسانية ، فهو وحده الذى أدرك منذ أكثر من ربع قرن محنة الروح الأوروبية ، و« مالرو » هو الذى نفث روح القلق والأسى فى الأدب الفرنسى والأُوروبى بعد ذلك .

« والغريب فى هذا الجزء الثالث ما قاله المؤلف عن الأديبة الفرنسية « فرانسواز ساجان » التى صدرت لها قصتان هما « مرحبا أيها الحزن » و« إبتسامة ما » فهو يرى أن « ساجان » قد سجلت روح اليأس والمرارة واللامبالاة والتواكل ، تلك الروح التى عبَّر عنها « سارتر » فى أعقاب الحرب الأخيرة ، والذى يتذكر ما قال « سارتر » فى الأعداد الأُولى من مجلة « العصور الحديثة » يجده يصرخ ويقول : « لقد انتهت الحرب فى فرنسا الجائعة ، ولكن السلام لم يبدأ ، إننا نعيش فى محنة ما بين الحربين ، لقد كذب هؤلاء الذين قالوا : إن السلام من طبيعة الأشياء وإن الحرب مسألة عارضة . . فما هذا الذى نحن فيه ؟ إنه الحرب والسلام معاً . إنها المحنة دائماً » !!

« وهذا الذى قاله سارتر فى قصصه وكتبه إنما هو تعميق للإحساس بالمأساة

واليأس والمرارة ، وقد عبَّر عنه الشاعر الألمانى « بروشرت » الذى توفى سنة ١٩٤٧ ، فقال فى قصته « أمام الباب » : « نحن جيل بلا رابط ولا عمق ، عمقنا هو الهاوية ، نحن جيل بلا دين ولا راحة ، شمسنا ضيقة ، حبنا وحشية ، وشبابنا بلا شباب !! إننا جيل بلا قيود ولا حدود ولا حماية من أحد » .

« وكان لا بد أن تظهر هذه الصورة الشابة المعذبة فى طلبة الجامعات والمدارس وأعماق الأديرة ، ومن هذه الأديرة ، ومن الرهبانية القائمة ، خرجت « فرانسواز ساجان » لتعلن فى قصتها : إننى لا أفكر ، ولا أستطيع ، ولا أطيق أن أبقى وحدى ، ولا أريد لأحد أن يكون كذلك ، وأريد أن أعيش مثل شىء جديد ، ولو كان فيه عذاب . المهم أن يكون جديداً .

« وكذلك فعلت « سسيل » بطلة قصة « مرحباً أيها الحزن » ، ولم تتردد « دومنيك » طالبة الحقوق وبطلة قصة « إبتسامة ما » .

« سسيل ودومنيك صورتان لأبناء هذا الجيل الذى يتحرك ويتألم ويروح ويجىء ، ويحارب ويصرخ فى الظلام بلا حدود ولا قيود يؤمن بها ، ولا أمل له ، ولا أمل فى أن يكون لديه أمل » . . وكفى بهذه الوثائق مستنداً .

❊ ❊

● تحذيرات رجال السياسة :

وأما السياسيون فنكتفى منهم بالسياسى الأمريكى الشهير « چون فوستر دالاس » وزير خارجية أمريكا فى عهد الرئيس « أيزنهاور » وصاحب كتاب « حرب أم سلام » ؟

يقول « دالاس » فى فصل من كتابه ، تحت عنوان « حاجتنا الروحية » :

« إن هناك شيئاً ما يسير بشكل خاطىء فى أُمتنا ، وإلا لما أصبحنا فى هذا الحَرَج ، وفى هذه الحالة النفسية . . لا يجدر بنا أن نأخذ موقفاً دفاعياً ، وأن يتملكنا الذعر . . إن ذلك أمر جديد فى تاريخنا !

« إن الأمر لا يتعلق بالماديات ، فلدينا أعظم إنتاج عالمى فى الأشياء

المادية ، إن ما ينقصنا هو إيمان صحيح قوى ، فبدونه يكون كل ما لدينا قليلاً ، وهذا النقص لا يعوضه السياسيون مهماً بلغت قدرتهم ، أو الديبلوماسيون مهما كانت فطنتهم ، أو العلماء مهما كثرت اختراعاتهم ، أو القنابل مهما بلغت قوتها !

« فمتى شعر الناس بالحاجة إلى الاعتماد على الأشياء المادية ، فإن النتائج السيئة تصبح أمراً حتمياً .

« وفى بلادنا لا تجتذب نظمنا الإخلاص الروحى اللازم للدفاع عنها ، وهناك حيرة فى عقول الناس ، وتآكل لأرواحهم ، وذلك يجعل أُمتنا معرَّضة للتغلغل المعادى – كما كشف عنه نشاط الجواسيس الذين تم كشفهم حتى الآن – ولن تستطيع أى إدارة لمكافحة التجسس أن تقوم بحمايتنا فى هذه الظروف .

« . . . . لقد تقابلنا مع أقسى الاختبارات التى يمكن أن يلتقى بها أى شعب . . وهو اختبار الحياة فى رفاهية . . .

« لقد قال يسوع : إن هذه الأشياء المادية سيحظى بها أُولئك الذين يعملون من أجل ما أمر به الله ، ومن أجل تحقيق عدالته . . ولكن عندما يحدث ذلك فعندئذ يبدأ الامتحان الأكبر ، لأن هذه الأشياء المادية – كما أنذر يسوع – يمكنها أن تصبح الصدأ الذى ينخر فى الأرواح .

« كذلك فإن لدينا نموذجاً معروفاً ، فالرجال الذين لديهم إحساس بالواجب إزاء كائن أعلى ، يجاهدون لتحقيق إرادته ، لأن إيمانهم يمنحهم القوة والفضيلة والحكمة المبسطة . . إنهم لا يبنون ليومهم فقط ، بل للغد ، وليس لأنفسهم وحدهم ، وإنما للجنس البشرى ، ومجتمع هذا أساسه ستكون من نتائجه الثروة والرفاهية للكثيرين إذا ساعدته الأحوال . . وعندما تأتى هذه المنتجات الفرعية فإنها تكون طيبة ، إلى درجة أنها تشجع على الاعتقاد بأنها النهاية المرتقبة ، وبذا سيبتعد الناس عن بذل الجهود الإنشائية للأجل الطويل ويبدأون الصراع من أجل الحصول على الأشياء المادية .

« **لقد أخفقنا بشكل يدعو إلى الرثاء فى أن نرى أن من الممكن الحصول على عدالة اجتماعية . دون أن نمارس الإلحاد والمادية** . . إن ذلك يعتمد على الرغبة الاختيارية للفرد فى قبول أو التخلى عن الالتزامات الاجتماعية تجاه الفرد الآخر .

« ونتيجة لذلك فإن كثيراً من قومنا قد فقدوا إيمانهم فى مجتمع حر وكأُمة فقدنا كذلك إيماننا الدينى وممارسة شعائرنا الدينية . رغم أننا ما زلنا متدينين **إننا نُفرِّق بين الدين وممارسة الدين ولم نعد نؤمن بأن الإيمان يتمشى مع الظروف الحديثة .. ومتى تحطمت الصلة بين الإيمان والعمل ، فلن نستطيع بعد ذلك أن ننمى قوة روحية نستطيع نشرها فى جميع أنحاء العالم** .

« ويجب أن نفهم كذلك بوضوح أن مجتمعاً حراً ليس معناه مجتمعاً يسعى كل فرد فيه لنفسه ، بل إنه مجتمع متناسق ، والقيود المفروضة هى قبل كل شيء ، روابط الأخوة المنبعثة من الإيمان ، فإن الناس خلقوا لكى يعيشوا إخواناً فى رعاية الله » .

ثم يختم هذا الفصل بقوله :

« لن تكون هناك فائدة من إنشاء « أصوات أمريكا » أخرى عالية الصوت إلا إذا كان لدينا شيء نقوله ، يكون أكثر إغراءً مما قيل حتى الآن !

« لقد كتب الرئيس « ولسون » قبل وفاته بأسابيع قليلة مقالاً استعرض فيه تهديد المبادىء الثورية وأعمال الشيوعية ، وختمه بقوله : « إن اختصار المسألة بأسرها هو ما يلى : **إن حضارتنا لا تستطيع الاستمرار فى البقاء من الناحية المادية . إلا إذا استردت روحانيتها** . .

« هذا هو التحدى النهائى لكنائسنا ومنظماتنا السياسية وللرأسماليين عندنا ، ولكل فرد يخاف الله ، أو يحب بلده » . . .

فهل تستطيع المسيحية أن تقدم « طوق النجاة » لعالم يهدده الغرق ويحيط به الموج من كل مكان ؟؟

هذا ما سيجيب عنه الفصل التالى . . .

* * *

الفصل الرابع

الحضارة التى ينشدها العالَم

- حكم القرآن على الحضارات المادية .
- الحضارة التى ينشدها العالَم تتجلى فى الإسلام .
- المجتمع الذى يكوِّنه الإسلام .
- إسلام يتمثل فى أُمة .
- عقبات فى سبيل اهتداء الغرب بالإسلام .



حكم القرآن على الحضارات المادية

لقد دمغ القرآن الكريم بالطغيان والفساد حضارات ، أقامت من البناء المادى آيات ، وخلّدت مصانع وعمارات ، ومع هذا استحقت عذاب الله ونقمته ، برغم ما كان لها من جنّات وعيون ، وكنوز ومقام كريم ، ونَعمة كانوا فيها فاكهين .

ذلك لأنهم عمروا الأرض ، وخربوا الإنسان .. أقاموا المبانى ، وهدموا المعانى .. عملوا للدنيا ، ونسوا الآخرة .. أكلوا نعمة الله ، ولم يؤدوا شكرها .. حابَوا الأقوياء ، وطغوا على الضعفاء .. أضاعوا الصلوات واتبعوا الشهوات .

من هنا كانت عقوبة الله لهم ، وتدمير الله عليهم ، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وإنذاره للظالمين بعدهم أن يصيبهم ما أصابهم إن لم يتداركوا أنفسهم بتوبة وإصلاح .

اقرأوا قول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ (1) .

لم يغن هذه الأمم من عذاب الله ما شيّدته من حضارات مادية ، وما تركته عاد إرم ، من آثار عمرانية شاهقة ﴿ لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ وما نحتته ثمود في الجبال من بيوت لم تزل بقاياها مشهودة إلى اليوم ، وما أقامه فرعون من أوتاد ، لعلها تلك « الأهرام » الفارعة التى تشهد بطول باعهم فى فن الهندسة والعمران إلى اليوم .

---

(1) الفجر : ٦ - ١٤

لم يغن ذلك عنهم شيئاً بعد أن ﴿طَغَوْاْ فِى الْبِلادِ * فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الْفَسَادَ ﴾ .

وقال تعالى فى شأن فرعون وقومه : ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّات وَعُيُون * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَة كَانُواْ فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴾ (١) .

وانظر إلى قصة عاد وما بنوا وشيدُّوا ، وكيف حذَّرهم نبيهم هود من الاستغراق فى المتاع المادى على حساب الجانب الروحى ، وخوَّفهم عقاب الله إذا هم ظلوا على شركهم وفسادهم ، ونسيانهم أمر آخرتهم ، يقول القرآن الكريم : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُواْ اللهَ وَأَطِيعُون * وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِىَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُواْ اللهَ وَأَطِيعُون * وَاتَّقُواْ الَّذِى أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّات وَعُيُون * إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُواْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ * إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢) .

وفى سورة أُخرى - سورة فُصِّلت - يعرض القرآن لموقف عاد وعتوها فى الأرض وطغيانها بغير الحق فيقول : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُواْ فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ، أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِى

---

(١) الدخان : ٢٥ - ٢٩ (٢) الشعراء : ١٢٣ - ١٤٠

أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى ، وَهُمْ لا يُنصَرُونَ ﴾ (١) .

وفي سورة هود يقول تعالى : ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ، جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ (٢) .

ويحدثنا القرآن عن ثمود الذين ﴿ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُواْ اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ * فَاتَّقُواْ اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَلا تُطِيعُواْ أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴾ (٣) .

وفي سورة النمل يقول عنهم : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُواْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ (٤) .

ويُحدِّثنا القرآن عن قوم لوط ، وما ابتكروه من فاحشة لم يسبقهم بها أحد من العالمين ، وكيف دمَّر الله عليهم قراهم : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ (٥) .

ويُحدِّثنا القرآن عن سبأ في اليمن ، وقد كان لهم في مسكنهم آية : جنتان عن يمين وشمال ، ولكنهم أعرضوا وكفروا بنعمة الله ، فأرسل عليهم سيل العرم ، ومزَّقهم كل ممزق : ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُواْ ، وَهَلْ نُجَازِي إِلا الْكَفُورَ ﴾ (٦) .

---

(١) فصلت : ١٥ - ١٦ (٢) هود : ٥٩ (٣) الشعراء ١٤٢ - ١٥٢
(٤) النمل : ٥٢ - ٥٣ (٥) هود : ٨٢ - ٨٣ (٦) سبأ : ١٧

ويؤكد القرآن الكريم في مواقف كثيرة سنن الله تعالى في إهلاك الأمم، برغم ثرواتها، وآثارها المادية والعمرانية، محذراً بذلك اللاحقين أن يحذوا حذو السابقين، في فساد اعتقادهم، وفساد أعمالهم.

يقول تعالى مخاطباً مشركي العرب: ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ ﴾ (١).

﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، كَانُواْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ، فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٢).

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، كَانُواْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِى الأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُواْ آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا، سُنَّتَ اللهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٣).

لم يُنج هؤلاء من عقوبة القدر الأعلى، ما كان لهم من كثرة العدد، ولا من شدة القوة، ولا من الآثار البارزة في الأرض، ولا ما عندهم من العلم المادي، الذي ردوا به علم النبوة، ولم يؤمنوا إلا بعد أن وقعت الواقعة، وفات الأوان، فالتمسوا الخلاص، ولات حين مناص.

وبهذه الآيات المحكمات من كتاب الله الكريم، يمكننا أن نحدد موقف الإسلام من الحضارة المادية المعاصرة، التي أخذت الأرض فيها زخرفها

---

(١) الأنعام: ٦ (٢) الروم: ٩ (٣) غافر: ٨٢ - ٨٥

وازيَّنت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أو كادوا ، فهم مهددون ببأس الله تعالى ، وعقوباته القدرية ، إن لم يتداركهم الله برحمة منه ، فيُصلحوا ما أفسدوا ، ويرتقوا ما فتقوا . وإلا فعذاب الله شديد ، وما هو من الظالمين ببعيد .

* *

● أسباب هلاك الأُمم :

نبّه القرآن الكريم في الكثير من آياته على أن الأُمم لا تقوم أو تسقط عبثاً ، بل بناء على سنن ثابتة لا تتبدل ، وفي الآيات التي ذكرناها هنا في هلاك الأمم الغابرة ، نبَّه أُولي الألباب على أسباب دمار هذه الأُمم وهلاكها - برغم ازدهارها المادي والعمراني - فكان من هذه الأسباب :

١ - الجحود بآيات الله تعالى وعصيان رسله .

٢ - اتباع أمر كل جبار عنيد ، وإطاعة أمر المسرفين الذين يُفسدون في الأرض ولا يصلحون ، كفعل عاد وثمود .

٣ - الفرح بالعلم المادي ، والإعراض عما جاء به الوحي ، كالذين حكى الله عنهم في آخر سورة غافر .

٤ - الغرور بالقوة المادية والثروة المالية ، والغفلة عن بأس الله عَزَّ وجَلَّ ، كفعل فرعون وقارون .

٥ - الظلم والبخس والبغي بغير الحق ، وخصوصاً على الفقراء والمستضعفين ، كفعل مدين قوم شعيب .

٦ - اقتراف الفواحش ، واتباع الشهوات ، كفعل قوم لوط .

٧ - شيوع الفساد في الأرض ، واستعلان المنكر ، وعدم التناهي عنه كما فعل بنو إسرائيل ﴿ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ [1] .

---

(١) المائدة : ٧٩

٨ - الكفر بأنعم الله وعدم القيام بشكرها ، بل استخدامها فى معاصى الله ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (١) .

٩ - الترف والبطر : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ (٢) .

وكل واحدة من هذه الجرائم حرية أن تعجل بعقاب الله وبأسه الذى لا يُرَد عن القوم المجرمين .

فكيف إذا اجتمع عدد منها فى أُمة من الأُمم أو مجتمع من المجتمعات ؟

والناظر فى الحضارة التى تسود عالمنا اليوم ، يجدها قد أخذت بنصيب ، يكثر أو يقل ، من حضارات الهالكين ، وانحرافاتهم العقدية والفكرية والسلوكية ، فلا غرو أن يخشى عليها أن ينزل بأهلها ما نزل بهم ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ * وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ (٣) .

* *

● قانون المداولة بين الأُمم ووراثة الحضارات :

ومما نبَّه عليه القرآن كذلك سُنَّة من سنن الله فى هذا العالَم هى : سُنَّة « التداول بين الأُمم » أو تبادل الأدوار فى الحضارات ، وهو القانون المذكور فى قوله تعالى : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ، وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (٤) .

وكما أن الفرد الفقير لا يبقى فقيراً أبداً ، والغنى لا يظل غنياً أبداً ، فكم

---

(١) النحل : ١١٢
(٢) القصص : ٥٨
(٣) إبراهيم ٤٥ - ٤٦
(٤) آل عمران : ١٤٠

فقير يغتنى ، وكم من غنى يفتقر ، وكذلك القوى والضعيف ، والملك والسوقة ، فهكذا يقال فى الأمم .

وقد قال تعالى فى فرعون وقومه ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا ، وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ، وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾ (١) ، ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِى إِسْرَائِيلَ ﴾ (٢) .

وقد بيّن القرآن فى وراثة الأمم الهالكة قاعدتين أساسيتين :

الأولى : أن المستضعفين المظلومين يرثون الجبابرة الظالمين : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ، فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ، ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ * وَاسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ (٣) .

والثانية : أن الصالحين هم الذين يرثون الفاسدين والمفسدين ، فإن الله لا بديل من فاسد لفاسد ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ ﴾ (٤) .

والصالحون هنا ليسوا هم الدراويش أو البُلْه ، بل هم الصالحون للقيام بعمارة الأرض وخلافة الله فيها بالعلم النافع ، والعمل الصالح ، والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر ، والدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلَاةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (٥) .

---

(١) الأعراف : ١٣٧ (٢) الشعراء : ٥٧ - ٥٩ (٣) إبراهيم : ١٣ - ١٥
(٤) الأنبياء : ١٠٥ (٥) الحج : ٤٠ - ٤١

هذا ما يخشاه المؤمنون بالله تعالى على حضارة الغرب وجبابرتها المستكبرين فى الأرض بغير الحق ، الذين أضاعوا الصلوات ، واتبعوا الشهوات ، وكفروا بأنعم الله . ولم يغرّهم ما ينعمون به من متاع الدنيا وزخرفها ، فهذا هو « الاستدراج » الذى حدَّثنا القرآن عنه ، وحذَّرنا من عواقبه : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۞ وَأُمْلِى لَهُمْ ، إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ (١) .

وهو « الإملاء » للظالم الذى ذكره لنا رسول الله ﷺ حين قال : « إن الله ليُملى للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته » ثم تلا : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِىَ ظَالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (٢) ، (٣) .

وكثيراً ما يكون هذا الأخذ بغتة حين لم تُغْنِ النُّذُر ، ولم يعظهم ما أنزل الله بهم من فساد البر والبحر ، ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون ، فما استكانوا لربهم وما يتضرعون : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۞ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ ، وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤) .

* *

● ما الدواء ؟ وأين الطبيب ؟

هذا ما يخشاه المؤمنون بمنطق الإيمان .

وهو ما خشيه « ألكسيس كاريل » ، و« رينيه دوبو » بمنطق عالِم الحياة .

وما خشيه « توينبى » بمنطق عالِم التاريخ .

وما خشيه « جارودى » بمنطق المفكر الفيلسوف .

وما خشيه « دالاس » بمنطق السياسى .

ولكن السؤال المهم : كيف الخلاص ؟ وما الدواء ؟ وأين الطبيب ؟

* *

---

(١) القلم : ٤٤ - ٤٥ (٢) هود : ١٠٢

(٣) رواه البخارى ومسلم ، كما رواه الترمذى وابن ماجه عن أبى موسى ، وذكره فى صحيح الجامع الصغير (١٨٢٢) . (٤) الأنعام ٤٤ ، ٤٥

● **الدواء كما يراه « ألكسيس كاريل » وتعليق سيد قطب :**

نقل الأُستاذ سيد قطب - رحمه الله - فقرات مطوَّلة من كتاب الدكتور ألكسيس كاريل « الإنسان ذلك المجهول » ونقده العلمى للحضارة الغربية ، وتشخيصه للداء تشخيصاً سليماً إلى حد كبير ، إلا أنه لم يجد عنده دواءً ناجعاً يقدمه للبَشرية ، يشفيها من أدواء المادية المعاصرة .

كيف الخلاص إذن ؟

الدكتور « كاريل » يرى أن طريق الخلاص هو « مزيد من علوم الإنسان يمكننا من إعادة إنشاء الإنسان » ، هو « معرفة أكثر عمقاً بأنفسنا » عن طريق علوم الحياة لتحل محل علوم الجماد .

ويعلق على ذلك الشهيد سيد قطب فيقول :

« ونحن نهتف مع الدكتور كاريل : « مزيداً من علوم الإنسان » ولكننا لا نرى معه - أن هذا - وحده - يكفى ، ولا نثق مثله هذه الثقة المطلقة فى ما قد نصل إليه من المزيد فى علوم الإنسان ، ولا نقف - مثله - يائسين من « وسيلة أُخرى لمعرفة القواعد التى لا تلين لوجوه نشاطنا العضوى والروحى ، وتميز ما هو محرَّم ، مما هو شرعى ، وإدراك أننا لسنا أحرار لنعدل فى بيئتنا وفى أنفسنا تبعاً لأهوائنا » .

« إن المزيد من علوم الإنسان ضرورى لنا . . لنعرف منه - على الأقل - أقصى الإمكانيات التى فى طوقنا ، وطوق العلم ، أن نبلغها من المعرفة « بالإنسان » ونقف على حدود المجهول الذى لا حيلة لنا وراءه . فهذه المعرفة ضرورية لنحدد - على ضوئها - ما الذى نملك وما الذى لا نملك من التصرف فى شأن « الإنسان » لعلنا نلتزم حدودنا ولا نتعداها ، ولا نخبط وراءها فى التيه بلا دليل ، كما فعلنا حتى اليوم بلا مبالاة .

« والدكتور « كاريل » كان قد سبق فقرر لنا أن هناك أسباباً لتخلف علوم

الحياة عن علوم الجماد - ليست طارئة ولا وقتية - إنما هى ثابتة وطبيعية ، أسباباً ترجع إلى تعقد الحياة من جهة ، وإلى طبيعة عقلنا من جهة أخرى ، ومن ثَمَّ قرر لنا أن علوم الحياة لن تبلغ - فى يوم من الأيام - ما بلغته علوم الجماد من الدقة والجمال . . وبالضبط قال لنا بألفاظه :

« إن معرفة أنفسنا لن تصل أبداً إلى تلك المرتبة من البساطة المعبرة ، والتجرد ، والجمال التى بلغها علم المادة ، إذ ليس من المحتمل أن تختفى العناصر التى أخَّرت تقدم علم الإنسان » (ص ٢٣) .

« فمن العجيب - بعد ذلك - أن يجعل اعتماده كله ، فى حل مشكلة الحضارة ، وإعادة إنشاء الإنسان على « مزيد من علوم الإنسان » .

« ولكننا لكى نزيل هذا العيب ، يجب أن نواجه مشكلة دكتور « كاريل » نفسه ، فإن مواجهتها تفيدنا فى تعيين الجهة التى يمكن أن يأتى منها الخلاص الحقيقى ، والاتجاه الواحد الميسور للخلاص . .

« إن هذا الرجل الواسع المعرفة ، العميق الحساسية ، الشديد الإخلاص ، المتحرر الفكر ، الثائر على الحضارة الصناعية ، حتى ليرى أن ليس هناك ما هو أقل من « قلب الحضارة الصناعية وظهور فكرة أُخرى للتقدم البَشرى» .

« إن هذا الرجل - على كل هذه الفضائل والخصائص فيه - رجل « غربى » نشأ فى البيئة الغربية ، بكل ملابسات تاريخها القديم وحاضرها الراهن ، كما أنه نشأ فى ظل هذه الحضارة ، وفى بيئة « العلم » الذى هو طابعها الظاهر . .

« وبسبب كل هذه الملابسات فهو . . سجين هذه الحضارة . . سجين بيئتها وتاريخها وملابسات حياتها . . سجين الانطباعات والرواسب العميقة العنيفة فى هذه البيئة . .

« ومن ثَمَّ لا يملك - حين يثب الوثبة الكبرى - أن يخرج من إطارها . .

« ونزيد هذه الحقيقة العجيبة إيضاحاً :

« إن الدكتور « كاريل » يتنفس فى بيئة آمنت بالعلم التجريبى إيماناً مطلقاً فترة قرنين من الزمان . . وعلى الرغم من أنها بدأت فى هذا القرن الأخير تفيق من نشوة انتصار العلم ، وهى تراه يقف على عتبات المجهول عند آفات كثيرة . فإن رواسب القرنين الماضيين لا تزال عميقة وعنيفة . . حتى عند الذين عرفوا « حدود العلم » . .

« وهو فى الوقت ذاته يتنفس فى بيئة عرفت الدين - فى أحسن صوره - تصوفاً روحياً مرفرفاً شفيفاً ، واتصالاً بالغيب من غير وساطة مادية ظاهرة ، وصلاة ودعاء يغيب فيها الفرد عن ذاته ، ويندمج فى الملأ الأعلى .

« وهذه هى الصورة الوضيئة المشرقة الحبيبة إلى نفس الدكتور العالِم الشاعر المتصوف المرفرف ، كما يصفها فى كتابه هذا ، وكتابه الآخر الذى عنوانه « الصلاة » وكما يكرر ضرورة توفير الجو المناسب لانطلاقها فى حياة البشر . . وكما يثور على الحضارة المادية الصناعية ، لأنها تخنقها ، وتخنق معها كل شعور بالجمال ، وكل نشاط فنى أو روحى أو دينى . .

« ومن هاتين النقطتين : نقطة الإيمان بالعلم ، ونقطة تصور الدين على هذا النحو وفى هذه الحدود . . تنشأ مشكلة الدكتور « كاريل » ، وأمثاله ممن تهولهم فظاعة التدمير الذى تنشئه هذه الحضارة فى حياة الإنسان « وروحه » وتهتف بهم أشواقهم الروحية إلى استشراف حياة فيها للعقيدة الروحية مكان . .

« تنشأ المشكلة من ثورته على هذه الحضارة ومن « سجنه » فى إطار هذه الحضارة فى الوقت ذاته .

« ومن هنا لا يرى أن هناك وسيلة أخرى لوقف هذا التدمير الذى تنشئه هذه الحضارة فى الكيان الإنسانى . .

« إنه لا يملك منهجاً للحياة إلا الذى يقرره العلم . . لأن الدين - كما هو فى بيئته - فى أحسن صوره ، لا فى الصورة الكريهة المنفرة الأخرى - هو مجرد نشاط روحى ، وتهذيب خُلُقى ، واتصال بالعوالم الغيبية . . .

« وهو فى صورته هذه يمثل جانباً واحداً من جوانب التكوين الإنسانى . فالاقتصار عليه شديد الخطورة ، لأنه معوق للنشاط الواقعى العملى الإيجابى - المادى - وهو يحذر أشد التحذير من أن يكون الهروب من الحضارة إلى مثل هذا العالم الذى لا يحوى إلا النشاط الروحى . . وهو محق تماماً فى تحذيره هذا . إذ كان لا ينشىء إلا نكسة إلى « الرهبنة » التى ذاقت منها أوروبا ما ذاقت فى تاريخها ، والتى انتهت - كما أسلفنا - إلى الجموح المادى الكافر الغليظ الجافى .

« فأما لو فكر فى أن يكون للحياة منهج دينى واقعى . . فإن صورة كريهة مفزعة تخايل له . لأنها الصورة التى عرفتها كذلك أوروبا . . صورة الكنيسة الطاغية التى تفرض تصوراتها الخرافية على العلم والعلماء وعلى الحياة والأحياء . . وهى صورة كذلك أمرّ وأدهى .

« لا مفر إذن - لأمثال هؤلاء المخلصين المساكين - إلا أن يلجأوا إلى « العلم » وإلى العلم وحده . حتى فيما يحسون هم أنفسهم أن العلم لن يصل بهم فيه إلى نتائج حاسمة قاطعة كالتى وصل إليها فى عالَم المادة . .

« ولكن ماذا بيدهم ؟ ماذا يملكون للبَشرية غير هذا » ؟ (١) .

* *

● اللُّورد « لوثين » وتعليق المودودى :

وقبل الشهيد سيد قطب بنحو ثلاثين سنة كتب الأُستاذ أبو الأعلى المودودى معلقاً - بمثل ما علَّق به الشهيد - على خطبة « اللُّورد لوثين » أحد رجالات بريطانيا المهتمين بالثقافة والحضارة ، وكان يرأس تحرير إحدى المجلات العلمية ، وقد ألقى خطبة فى الهند - قبل استقلال باكستان عنها - فى

---

(١) انظر : الإسلام ومشكلات الحضارة للشهيد سيد قطب ص ١٦٤ - ١٦٧

الثلاثينات بمناسبة تخريج فوج من جامعة « عليكره » الشهيرة ، نقد فيه الحضارة التى أدى العلم فيها إلى أمرين عظيمين :

الأول : أنه وسع من سيطرة الإنسان على الطبيعة وقواها .

والثانى : أنه - من جانب آخر - قد أضعف من سلطان الدين الموروث على الأجيال المتخرجة فى الجامعات ، وعلى سائر الناس على العموم .

وكل ما يوجد اليوم من المفاسد فى هذه الدنيا المعاصرة ، فإن نصفه - على الأقل - آت من هذين السببين ، فالإنسان المتعلم قد كاد يسكر بنشوة القوة والمقدرة الهائلة التى تردد بها العلم ، ولكنه لم يتقدم فى سبيل الأخلاق مثل تقدمه فى المدنية والعلوم ، مما يكون ضماناً بألا تُستخدم هذه القوى لهلاك الإنسان ، بل لفلاحه [1] .

عرض المودودى للخطبة فى فصل من كتابه « نحن والحضارة الغربية » وعلَّق عليها ، والمودودى أحد الأعلام الذين درسوا هذه الحضارة وخبروها وحلَّلوها ونقدوها عن علم وبصيرة ، فى أكثر من كتاب من كتبه .

ولا عجب أن اهتم بهذه الخطبة فى وقتها وبيان ما اشتملت عليه من تشخيص لأمراض الحضارة ، ووصف العلاج فى نظره ، وهو الدين .

يقول اللُّورد فى خواتيم خطبته أو محاضرته :

« إن كنتُ لا أخطىء فى تقدير الأوضاع الراهنة فإن من الحقيقة أن الاختبار الذى قد تعرَّض له الدين فى هذا الوقت لن يخرج منه فائزاً إلا إذا اطمأن الجيل الناشىء بعد ما يمتحن نظامه الداخلى ، أنه يضمن الحل الأقوم لكل ما يواجهه فى الحياة من المسائل العملية ، والمشكلات المزعجة المتعقدة ، وذلك أن النِحْلة الشخصية قد مضى زمانها ، وأن الديانة العاطفية

---

(١) انظر : نحن والحضارة الغربية ص ٧٥ ، ٧٦

المحضة أيضاً لم تعد طُلبة أحد الآن . وقد انتهى كذلك عهد ذلك الدين الذى لا يهدىء من بال الفرد ولا يشد أزره ، إلا بأن يعطيه تعليمات قليلة بشأن سلوكه الخُلُقى ، ويبعث فى نفسه أملاً فى نجاة لن يتكشف أمرها إلا بعد الممات ، وإنما الإنسان العلمى العصرى يريد أن يمتحن كل شىء حتى الحق والصدق على محك النتائج البيِّنة . وإن كان عليه أن يتبع الدين فهو يطلب أن يُبيِّن له الدين ماذا بيده من حل مسائل حياته العملية . أما الأمل فى حصول النجاة بعد سلسلة متكررة من المواليد فى هذه الدنيا ، أو الرجاء فى التوصل إلى الملكوت السماوى بعد اجتياز باب الموت ، فليس من الأمر الذى يدفعه إلى اعتناق الدين على أساسه وحده ، إنه يطلب من الدين أن يُزوِّده قبل كل شىء بذلك المفتاح الذى يفتح به الحقيقة المغلقة لهذا الوجود ، ويهتدى إلى حل للغزه تطمئن إليه النفس ، وأن يُبيِّن له ثانياً بإقامة البرهان على الصلة الواضحة بين العِلَّة والمعلول والسبب والنتيجة على النحو العلمى السانتيفيكى أنه بأى وجه يمكن الإنسان أن يُسخِّر تلك القُوَى التى قد انفلتت من يده الآن ، وقد جاءت تهدد نوعه بالهلاك والبوار بدل أن تنفعه ، وبأى طريق يتغلب على المفاسد الاجتماعية المنتشرة فى بنى جنسه كالبطالة ، وعدم المساواة ، والظلم والاعتداء ، والحرب والقتال ، وكيف يمنع التنازع بين الأفراد ، وتبدد النظام العائلى ، الذى قد ذهب بمباهج الحياة الإنسانية كلها .

« إن الإنسان لا يتطلع اليوم إلى الدين إلا بسبب أن العلم (Science) قد زاد فى مشكلاته بدلاً أن يحلها ! فهو مضطر لأن يطلب من الدين حلاً لشبهاته ومشكلاته اضطراراً لم يُعهد فيه من قبل ، فإذا كان الدين يريد الآن أن يحتفظ بمكانته ، ويستعيد ما زال من سلطانه ، فعليه أن يجيب عن كل هذه الأسئلة جواباً روحياً ، يكون فى الوقت نفسه علمياً سانتيفيكيا ، ويمكن أن يختبر صدقه على محك النتائج فى هذه الدنيا ، بدون أن يحال ذلك على

الحياة الأُخرى بعد الموت ، إننا - أهل الغرب - نعلم أن هذا هو السؤال الأخطر الأهم الذى قد واجهنا فى هذا العصر ، فهل باستطاعتكم - معشر أهل الهند - أن تجيبوه وتجدوا له حلاً » ؟

ويعلق العلامة المودودى رحمه الله على ذلك ، فيقول :

« وإذا مرّ القارىء على هذا الجزء من خطبة اللورد « لوثين » فإنه ليخيل إليه أن هناك ظمآن لا يعرف وجود الماء ، ولكنه يحس بكيفية ظمئه أصدق ما يكون من الإحساس . فهو يمضى يبين لنا أن أوام كبده يتطلب شيئاً ما يكون فيه هذا وهذا من الصفات ، فلو أننا نضع أمامه فى هذه الحالة كأساً من الماء ، لصاحت فطرته من الفور : إن هذا هو الشيء الذى يتعطش إليه ، ووثب نحوه ليشربه ، وليس هذا يخص اللُّورد « لوثين » وحده ، بل الأمر أن الذين قد لفحهم سعير الحضارة والمدنية الغربية فى أوروبا وأمريكا وسائر العالَم ، وقد جاوزوا الحافة الشجراء من صحراء الفلسفة والعلوم إلى قلبها الرملى القفر الذى لا ماء فيه ولا ظل ، قد أصابهم جميعاً مَثل هذا الأوام ، وهم كلهم يتطلبون شيئاً بتلك الصفات التى ذكرها اللُّورد « لوثين » ، وهم لا يعرفون اسم الماء ، ولا أين يوجد ، ولكنهم يصيحون الفينة بعد الفينة « ظمىء الفؤاد فهاتها يا ساقى » !

« إن الماء لا ريب قد سمع القوم باسمه ، ولكنه يرتاعون لهذا الاسم لمجرد أنهم لم يجدوا مسماه الحقيقى ، وأما الذى قد بلغهم عنه من أسلافهم الجاهلين المتعصبين ، فهو أن الماء شيء مسموم جداً يجب أن لا يقاربه أحد ، ولكنهم قد بلغ منهم التعطش أن لو يوضع أمامهم الشيء بذاته بدون أن يُعلن اسمه فلا جرَم آن يصيحوا : إن هذا هو الذى هم يظمأون إليه ، ولو يقال لهم : إنه هو « الماء » الذى كانوا يهابون ذكره ، لقضوا العجب من هذا الخداع الذى قد انخدعوا به إلى الآن .

« إن الإنسان العلمى العصرى ، قد امتحن النصرانية وخبر ما عندها جيداً ،

وقد تجلى له كالشمس أنها ليست العلاج الشافى لمرضه ، وبعد النصرانية قد تروقه ، وتسحر لُبه الديانتان : الهندكية والبوذية ، لفلسفاتها الخيالية الأُسطورية ولتعبدهما للقديم على الوجه التقليدى التاريخى ، ولكن فشل هاتين الديانتين أيضاً يفتضح لأول امتحان النقد والتحليل العلمى .

« فأما البوذية فتكاد تكون طبعة هندية للنصرانية [1] ، وأما الديانة الهندكية فهى تخلق بنفسها تلك المشاكل والعقد ، التى لأجل التخلص منها يشعر الإنسان العلمى العصرى بضرورة الدين ، فهى التى تشجع على عدم المساواة بين الإنسان والإنسان أكثر من غيرها ، وتجعل المراباة واستثمار الأموال - الذى هو أقبح صور السلب ، والنهب الاقتصادى - جزءاً لنظامها لا ينفك . وتُبقى على السبب الحقيقى لقيام الحروب - وهو التفريق بين المجتمع الإنسانى بمفارقات الجنس والنسل ، وبعث المنافرة النسلية بين أفراده - شيئاً متأصلاً فى أساسها لا يبرحه ، فالنظام الذى قد قررته هذه الديانة للحياة الاجتماعية ليس من شأنه أن يصل بين الأفراد الإنسانيين ، بل هو يقسمهم على شتَّى الأجناس والطبقات ، وإن قوانين اجتماعها تبلغ من الخلوقة والبلى بحيث قد اضطر أبناء البيوتات الهندكية النازلة من آلاف السنين أنفسهم أن يلغوها فى عصر الوعى العلمى والعملى هذا . ذلك بأن تلك القوانين لا تقوم على أساس من العلم والعقل ، بل تستند إلى العصبيات والأوهام .

« ثم إن هذه الديانة توجد أضعف وأفقر فيما وراء هذه المسائل الدنيوية من مسائل اللاهوت والأخلاق ، فليس عندها مفتاح لفتح المغلق من حقيقة هذا الكون بطريقة مقنعة ، وعقائدها من جنس العقائد التى لا يُطلب فى بابها إلا القبول والإذعان ، ولا يمكن أن يثبت شىء من ذلك ببرهان علمى أو عقلى . وأما فى نظام الأخلاق فلا شك أن الديانة الهندكية تقدم طلسماً من المفروضات الرائعة المعجبة ، كما قدم واحداً منها فى أيامنا هذه المهاتما غاندى ،

---

(١) وقد يقال بل إن النصرانية فى صورتها الأخيرة هى طبعة « رومية » للبوذية الهندية !

ولكنه يخلو من البرهان العقلى والحكمة العملية (Practical Wisdom) وفى عصر الوعى العلمى هذا لا بد أن يفتضح فشله عما قريب ، إن لم يكن قد افتضح بعد .

« ولا يبقى فى المضمار بعد ذلك إلا الإسلام ، وهو الذى يثبت على المحك ، ويوافق كل معيار من تلك المعايير التى يطلبها فعلاً الإنسان العلمى العصرى ، أو يمكن أن يطلبها لدينه المنشود .

« أما القول بأن الدين مسألة شخصية فقط ، ولا صلة له إلا بالضمير الفردى وحده ، فقد أصبح من خبر كان ، إنه من جملة السخافات الفكرية التى راجت فى القرن التاسع عشر ، فلا ينفك يرددها فى الهند فى هذا العقد الرابع من القرن العشرين أولئك المحافظون الذين قد تعوَّدوا السير خلف العالم على مسافة خمسين عاماً أبداً ، على رغم ادعائهم للتجدد والتقدم ، وذلك أنه قد أصبح أو كاد من المسلَّم به الآن أنه لا يمكن تصور الفرد منفصلاً عن الجماعة ، إذ كل فرد إنسانى قد ارتبط بفرد آخر بما لا يُحصى من الأواصر الكبيرة والصغيرة ، وليس المجتمع فى جملته إلا كالجسم الحى يكون فيه الأفراد بمثابة الجوارح والأعضاء ، وإن كانت هناك ضرورة للدين ، فهى ليست للفرد وحده لطمأنينة قلبه ونجاته بعد الممات ، بل هى للجماعة كلها ، لكى **تنظم أمرها ، وتدبر جميع شؤون حياتها الدنيوية على ضوء هدايته . وإن انعدمت ضرورة الدين ، فهى تنعدم للفرد أيضاً كما تنعدم للجماعة .**

« ومن التصور الصبيانى السفيه أن يكون نظام الحياة الاجتماعية على وضع ، وتكون عقائد الأفراد وأعمالهم الدينية على وضع آخر مختلف ، لا صلة بينها وبين ذلك النظام ، لأن العقائد والأعمال الدينية إن لم تكن مرتبطة بالحياة الاجتماعية برباط ، فإنها شىء عبث يخلو من كل فائدة ، وليس ذلك فقط ، بل هى حرية أن تضعف وتضمحل فى نظام اجتماعى لا تتعامل مع أجزائه الأخرى . ومن ذلك لا يمكن أن يكون الأمر إلا على أحد اثنين : إما أن

يكون نظام الجماعة بأكملها لا دينيا صرفاً ، ويُطرد الدين من حياة الإنسان طرداً تاماً ، كما هو مذهب الشيوعيين ، وإما أن يكون النظام الاجتماعى بأكمله دينياً ويعترف بكون الدين هادياً ومرشداً لكل من العلم والمدنية ، كما يقتضيه الإسلام . ولطالما جرَّبت الدنيا الصورة الأولى منهما فنتجت عن هذه الشجرة الخبيثة تلك الثمرات الكريهة الـمُرَّة التى قد ذكرها اللُّورد « لوثين » ، وهذه هى التى كان يمكن أن تنتج عن تلك الشجرة فنتجت بالفعل وستنتج أبداً فيما يُستقبل . فليست نجاة الدنيا الآن إلا فى الصورة الأخرى ، ويبدو أن فرصة ظهورها إلى حيز العمل لا تزال تتقارب يوماً بعد يوم ، ولكن الانتفاع بهذه الفرصة أو تضييعها للأبد - كما مر - متوقف على المسلمين » .

ويؤكد الأُستاذ المودودى هنا : « أن سبيل النجاة والخلاص واضحة ، ولكن عيون الغربيين لا تستطيع أن تراها ، لما يغشاها من ظلام التعصب ، وإنما يؤكد حاجة أهل الحضارة اليوم إلى رجال من أهل الإسلام ينهضون بالعزم والجد ليزيحوا الغشاوة من أبصارها ، ويبرهنوا لها أن صراط الإسلام المستقيم هو وحده سبيل النجاة مما هى فيه . إن مثل هذه الجماعة المجتهدة والمجاهدة لو تنبعث من بين المسلمين اليوم فإنه يمكنهم أن يصبحوا قادة العالم بأجمعه ، ويستعيدوا مكانة العز والشرف التى كانوا عليها فى الغابر ، والتى يرون عليها اليوم الأُمم الغربية فيتحلب ريقهم حرصاً على اتباعها .

« ولكنه إن بقى جمهور هذه الأُمة متقاعدين هكذا بضعف الهمة وخور العزيمة ، وبقى شبابها هكذا يظنون غاية كمالهم فى اقتيات فضالات الغير ، وبقى علماؤها متشبثين كما هم الآن بالمناقشات العقيمة حول مسائل الفقه والكلام ، التى قد ولى زمانها .. وبقى من هوان قادتها ، وزعمائها السياسيين ومن حالتهم الذهنية المتخلفة أن يظنوا السير فى مؤخر ركب الأُمم الأخرى أعلى مراتب العزيمة النضالية ، ويعتبروا دفع أُمتهم إلى الخداع الأكبر من خدع هذا القرن العشرين ، غاية الكياسة والحكمة .. وبالجملة إن بقى كل أجزاء هذه الأُمة ، من الأيدى العاملة إلى الأذهان المفكرة والنفوس

الواعية ، على تعطلها أو على تعسفها وخرقها ، ولم يتقدم من هذا الحشد العظيم المشتمل على مئات الملايين من الأفراد ، رجال قليلون قد تشمروا لمزاولة الجهاد والاجتهاد في سبيل الله . . فإن هذه الأُمة المسلمة أيضاً ستتبع الدنيا إلى ما هى منحدرة إليه من الدرك الأسفل ، وتهوى فى هاوية الهلاك مشدودة بذيلها ، وسينادى الغضب الإلٰهى مرة أُخرى : ألا بُعْداً للقوم الظالمين » ! [1] .

* *

● عجز العلم والفلسفة عن إيجاد المخرج :

لقد تبين لنا أن إنسان العلم الحديث هو « ذلك المجهول » الذى لم يستطع العلم أن يسبر غوره ، وأن يتعرف على حقيقته ، وأن ينفذ إلى أعماقه ، كما بيَّن ذلك « ألكسيس كاريل » و« رينيه دوبو » ، وغيرهما . لقد عرف العلم الجمادات أو المادة ، وحلَّلها واكتشف قوانينها ، ولكنه عجز عن معرفة الإنسان ، لأن الإنسان من التركيب والتعقيد بحيث لا يعرفه إلا مَن خلقه فسوَّاه : ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [2] .

وما دام العلم يجهل الإنسان ، فلا يؤمل منه أن يُحسن توجيهه وتربيته والتشريع له ، بل بدا اليوم أن العلم - وبعبارة أدق : تطبيقاته التكنولوجية - أصبح خطراً على فِطرة الإنسان ، وبيئة الإنسان .

و« إنسان الفلسفة » ليس أحسن حظاً من إنسان العلم ، والفلسفة رغم اهتمامها بالإنسان - منذ أنزلها « سقراط » من السماء إلى الأرض ووجَّه العقل الإنسانى إلى محاولة اكتشاف ذاته : اعرف نفسك - لم تتفق على رأى

---

(١) من كتاب « نحن والحضارة الغربية » للأستاذ أبى الأعلى المودودى - نشر دار الفكر بدمشق ص ٨٤ - ٩١

(٢) الملك : ١٤

فى نظرتها إلى الإنسان : أهو روح أم مادة ؟ جسم يفنى أم روح يبقى ؟ عقل أم شهوة ؟ ملاك أم شيطان ؟ الأصل فيه الخير أم الشر ؟ . . أهو انسان كما نراه ، أم ذئب مقنّع ؟ أهو أنانى أم غيرى ؟ أهو فردى أم جَماعى ؟ أهو ثابت أم متطور ؟ أتجدى فيه التربية أم لا تجدى ؟ أهو مختار أم مجبور ؟

اختلفت الفلسفات فى الإجابة عن هذه التساؤلات وتناقضت ، فلا تستطيع أن تخرج منها بطائل ، حتى قال شيخنا الدكتور عبد الحليم محمود - وهو أستاذ الفلسفة فى كلية أُصول الدين - قبل أن يكون شيخاً للأزهر : « الفلسفة لا رأى لها ، لأنها تقول الرأى وضده ، والفكرة ونقيضها » .

هنا نجد الفلسفة الإلهية مناقضة للفلسفة المادية ، والفلسفة المثالية مناقضة للفلسفة الواقعية ، وفلسفة الواجب معارضة لفلسفة المنفعة أو اللّذة ، إلى آخر ما نعرفه من تناقضات فى الساحة الفلسفية ، فهذا يثبت ، وذاك ينفى ، وهذا يبنى ، وذاك يهدم .

ومن هنا لا تستطيع الفلسفة وحدها أن تهدى الإنسان سبيلاً أو تشفى له غليلاً ، أو تمنحه منهجاً يركن له ويطمئن إليه ، ويقيم حياته على أساسه .

فهل تستطيع المذهبية الماركسية وفلسفة المادية الجدلية - التى كان لها بريقها ودعاتها ، فى عصرنا - أن تقوم بهذه المهمة ؟

* *

● الماركسية داء لا دواء :

ونقول : إذا عجز العلم ، وعجزت الفلسفة عن إنقاذ الإنسان المعاصر من الدمار المعنوى الذى يهدده صباح مساء ، فلا يُتصور أن تكون « الماركسية » هى البديل الذى يقدم قارورة الدواء للمريض ، ومضخة الإطفاء للحريق - كما توهم ذلك بعض الناس أيام نفاق سوق الماركسية - وذلك لأمرين :

الأول : أن الماركسية جزء من الحضارة المادية المعاصرة ، بل هى الجزء الأشد غرقاً وإغراقاً فى المادية ، لأن فلسفتها الكلية قائمة على المادية الخالصة ، فلا ترى للكون إلهاً ، ولا للإنسان روحاً ، ولا وراء الدنيا آخرة ، فكيف تكون البديل لنفسها ؟ وكيف يصلح الداء دواء إلا على طريقة أبى نواس :

* وداونى بالتى كانت هى الداء * ؟!

وقد قال الشاعر :

إذا استشفيتَ من داء بداء فأقتل ما أعلَّك ما شفاك !

والثانى : أن الماركسية عاجزة كل العجز عن تكوين الإنسان المطمئن القلب ، المشرق الروح ، السعيد النفس ، لأن هذا ينبع من الإيمان بالله وبالخلود فى الآخرة ، والماركسى لا يؤمن إلا بالمادة المحسَّة وبالحياة الحاضرة ، لهذا يقول فلاسفة الأخلاق :

« الإنسان الماركسى ليس إنساناً حراً . . ذلك أن على المناضل العادى أن يطيع رؤساءه إطاعة عمياء ، فيكون عبد « أسياده » كما هو عبد الكون المادى . إنه لولب بسيط يعمل فى آلة التطور ، وما حريته إلا أن يخضع - بحسب النظرية الألمانية الزائفة - طائعاً مختاراً واعياً ! إن مثل الماركسى فى العالَم - وقد تحرر ، أو قل : تحلل ، من الدين ومن الأخلاق ومن الله ! - مثل العامل فى المصنع ، إنه يشعر بأنه عبد حتمية قاهرة كحركة الآلة الطاغية ، وأن آلة العالم تأمر وتسيطر ، ويبدو أن ليس فى وسعه الخروج على مشيئتها ، ولا الإفلات من أسرها إلا خلال لحظات ثورة أو لهو ، كما يأبق العبد ويفلت لحظة من رقابة سيده .

« ثم إن الإنسان الماركسى ، فى الواقع ، عاجز أشل ، إنه يعلم أن ليس فى وسعه الحيلولة دون حدوث ما هو حادث حتماً ، ويعجز عن استخدام مبادهته الخاصة على نحو أصيل ، وغاية ما يقدر عليه الإسهام فى تسارع إيقاع التطور .

« إنه يشعر بعجزه عن تأمين مصيره الخاص ، فيقضى معظم حياته خائفاً مذعوراً .

« والإنسان الماركسى ، أخيراً ، لا يتمتع بروح اجتماعية حقيقية ، لأنه لا يعرف الحب الحقيقى ، ولا يحترم إنسانية الإنسان ، نعم إن الماركسية تزعم الإسهام فى إسعاد البَشر ، ولكن هل تستطيع أن تحب الناس ؟

« إن الإنسان لا يحب حباً حقيقياً ، إلا أشخاصاً يعترف بأن لكل واحد منهم قيمة فردية خاصة ومصيراً خاصاً .

« يقول بردييف : « تتكشف الأخلاق الشيوعية الثورية عن أنها أخلاق لا تعرف الرحمة نحو الإنسان المشخص الحى ، نحو الغريب ، فالفرد ليس سوى لبنة لا بد منها فى بناء المجتمع الشيوعى ، إنه أداة وحسب ، وإن الشيوعية لتنطوى فى ذاتها على عنصر سليم صحيح يتصل بنظرتها إلى الحياة ، وهذا العنصر يطابق النظرة المسيحية ، ويمثل فى أن على الإنسان ألا يستهدف مصلحته الخاصة ، بل أن ينفق حياته فى خدمة مثل أعلى ، ولكن هذه الفكرة – وهى بذاتها رائعة – تفسر برفض منح الشخص البشرى جدارة مستقلة ، وقيمة مستقلة ، أى منحه نفحة روحية » [(١)] .

❊ ❊

● عجز الأيديولوچيات الوضعية :

إن الماركسية شأنها شأن الأيديولوچيات الوضعية كلها ، إنها لا يمكن أن تكون بديلاً عن الدين ، كما قال بحق عالمان من أساتذة جامعة « هارفارد » الشهيرة فى كتاب أصدراه فى الثمانينات بعنوان « مستقبل العقيدة » .

---

(١) من كتاب فلسفة الأخلاق للدكتور عادل العوا .

وهذا يؤكد ما قاله من قبل المفكر والمؤرخ العالمى « أرنولد توينبى » فى كتابه « العادة والتغيير » يقول :

« حيث إن التدين جزء من الطبيعة البَشرية . . وحيث إن الإنسان لا يستطيع أن يعيش دون دين من نوع ما . . فلقد ترتب على تراجع الدين عن موقعه فى أوروبا أن قامت ديانات بديلة تسمى : المذاهب الفكرية ، أو الأيديولوچيات الفردية أو الرأسمالية ، والجَماعية أو الشيوعية ، والوطنية أو القومية .

« إن الحرب الباردة التى يستعر أوارها بين الأيديولوچيات المعاصرة من جانب ، والأديان العليا « السماوية » من جانب آخر ، هى أخطر - بالنسبة لمستقبل البَشرية - من المشادّة بين الشيوعية والرأسمالية ، بالرغم مما يلقاه الحوار بينهما من اهتمام عالَمى ، فهل هذه الأيديولوچيات أديان جديدة أم انتكاسات ؟

« فى الحق إنها ليست أمراً جديداً . . إنها انتكاسة للحرية التى اكتسبها الإنسان عبر العصور . . إنها تأخر ورجعية إلى فجر الحضارة حينما كان الإنسان يعبد ما لا يستطيع أن يسيطر عليه من قوى غامضة ، وهو حينما تقدم واستطاع أن يكون له دور مهم فى البيئة الطبيعية . . ترك عبادة قوى الطبيعة ، وعبد قوته الجَماعية كما تتمثل فى الحاكم .

« إن الشيوعية قد أخطأت السبيل - لا فى إصرارها على العدالة الاجتماعية - ولكن فى تضحيتها بالحرية من أجل العدالة .

« والرأسمالية أيضاً قد أخطأت السبيل - لا فى إصرارها على احترام فردية الإنسان وحريته - ولكن فى تضحيتها بالعدالة فى سبيل الفردية .

« إن كلا منهما يؤيد جانباً على حساب الآخر . . وكلتا النظريتين مادية ، وكما كان الإنسان لا يستطيع أن يحيا بالخبز وحده . . فإن هذين التفسيرين الماديين للعدالة والحرية تفسيران خاطئان .

« على أنه يبدو أن كلتا العقيدتين ستستمر فى الحياة ، ولن تستطيع إحداهما التغلب نهائياً على الأخرى . . والإثنان فى صراع مع الوطنية أو القومية . .

ولو أن هذا الصراع لا يحظى باهتمام كبير .. ولكنه ما إن تصطدم إحداهما مع الوطنية حتى تنتصر الوطنية .. وحينئذ يصبح الشيوعى والرأسمالى وطنياً أولاً ، وتتبعها صفته الثانية : الشيوعية أو الرأسمالية .

« إن جميع الأيديولوچيات تشترك فى نقطة ضعف واحدة قد تودى بها جميعاً ، وذلك فى منافستها للأديان العليا على اكتساب ولاء الجماهير .

« وهذا معناه العودة إلى عبادة الإنسان .. فبعد أن حررته الأديان من عبودية المجتمع ، وعبودية الفرد ، ليتجه إلى الله وحده .. عاد الإنسان إلى سجن المجتمع ، وبعد أن كان فى علاقة مباشرة مع الحقيقة الخالدة .. عاد إلى ديكتاتورية العصور البائدة .

« فتضاءل ليصبح مجرد « نملة اجتماعية » فى مجتمع النمل !!

« لقد استطاعت الأديان أن تُعلِّم الإنسان أنه ليس حشرة اجتماعية .. ولكنه إنسان ذو كرامة وإدراك واختيار .. ولن تستطيع الأيديولوچيات أن تنسيه هذه الحقيقة .. لأنها لا تستطيع أن تحقق له الانعتاق الروحى الذى منحته له الأديان ....

« إن كل إنسان يخطىء ويفشل ويزل ويشقى ، وفى النهاية ينتهى إلى الموت ، ومن هنا جاءت حاجته العميقة إلى العون الروحى الذى لا تستطيع أن تقدمه له الأيديولوچيات .

« ومع هذا فإن الأيديولوچيات ستستمر فى اجتذاب الناس إلى حظيرتها ، ما لم تعمل الأديان على أن تستعيد سلطانها على قلوب البَشر ، وهى لن تستطيع ذلك إلا إذا صدقت مع نفسها واستطاعت :

١ - أن تتعاون بدلاً من الصراع والعداوة .

٢ - وأن تهتم اهتماماً جدياً بحقائق العصر الحديث .

٣ - وأن تنفض عنها الطقوس التى طغت على جوهرها ، مما تراكم من الخزعبلات عبر العصور .

« فالدين هو قلب الحياة للإنسان ، وهو جوهر الحياة للإنسانية ، هو النور الذى يغمر القلوب ، فلا غنى للإنسان عن الدين .. ولن تستطيع الأيديولوچيات أن تحل محل الدين ؛ لأنها تمنحنا التعصب والتباغض ، بدلاً من أن تمنحنا المحبة والتعاون ، إنها قد تمنحنا لقمة الخبز ، ولكنها تسلبنا الطمأنينة النفسية والتحرر الروحى » (١).

إن الدين الذى ينشده « توينبى » يتجسد فى « الإسلام » الحق ، فهو الدين الذى تحرر من الخرافات ، وقام على أساس من العقل والنظر ، وعنى بالجوهر قبل الشكل ، وبالروح قبل الطقوس ، واهتم بحقائق العصر ، اهتمامه بحقائق الماضى ، واستشفاف حقائق الغد ، ودعا إلى الإخاء البَشرى ، وإلى الحوار بالتى هى أحسن بين المختلفين .

* *

● **الدين هو معقد الرجاء :**

وإذا سقط إنسان العلم وإنسان الفلسفة وإنسان الأيديولوچية الوضعية ، بقى إنسان الدين ، ولكن أى دين هو القادر على بناء الإنسان المنشود ؟

لا يمكن أن يكون المنقذ هو الديانات الوثنية فى آسيا أو إفريقيا ، تلك التى جعلت الإنسان يعبد الأشياء التى سخَّرها الله له ، والتى تعجز أن تجيب الإنسان عن أسئلته الخالدة عن الوجود والمعرفة والقيم العليا ، كما أشار الأستاذ المودودى .. فلم يبق إلا الأديان السماوية الكبرى : اليهودية والنصرانية والإسلام ، فأيها هو صاحب رسالة الغد ، وحضارة الغد ؟؟

* *

---

(١) انظر كتابنا « بينات الحل الإسلامى » ص ٥٥ - ٥٧ طبع مكتبة وهبة بالقاهرة .

● عجز المسيحية عن القيام بدور المنقذ :

وجواباً عن ذلك السؤال نقول منصفين : إن المسيحية القائمة فى العالَم اليوم ، وفى الغرب خاصة ، لا تستطيع أن تقوم بدور المنقذ للبشرية المعاصرة مما تعانيه من القلق والتخبط تحت سلطان الحضارة الغربية السائدة ، وأن تبنى الإنسان المنشود .

وذلك لعدة أسباب نجملها فيما يلى :

١ - إن المسيحية فى صورتها المثالية لا تحمل رسالة حضارية ، بل هى - فى صلب تعاليمها - لا تهتم بالحياة ، ولا تحتكم للعقل ، ولا تدعو إلى العلم ، ولا تحنو على فِطرة الإنسان ، هذا إن لم نقل بصراحة : إنها - كما صوَّرها كهنتها - معادية للحياة ، مناوئة للعقل ، مجافية للعلم ، قاسية على فطرة الإنسان .

والمسيحى المثالى يتجسد فى « الراهب » المعتزل للحياة ، المنقطع عن الدنيا ، المعرض عن الطيّبات ، حتى عن الزواج .

والأخلاق المسيحية أخلاق غير واقعية ، لأنها فوق الطاقة المعتادة للبشر ، كما فى قول الإنجيل : « أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، مَن ضربك على خدك الأيمن ، فأدر له خدك الأيسر ، ومَن سرق قميصك فأعطه إزارك .... » .

إن المسيحية الأصلية كانت رسالة مؤقتة ، لفترة محدودة ، ولقوم معينين ، ولم تكن مهيأة قط لتكون رسالة عامة ولا خالدة ، وقد عبَّر المسيح عن ذلك بأنه إنما بُعِث لخراف بنى إسرائيل الضالة ، وأنه لم يقل كل الحق ، كما بشَّر بمن يأتى بعده ليُبيِّن للناس كل شىء ، ويكسر عمود الكفر .

فكيف والمسيحية الأصلية نفسها قد غُيِّرت وبُدِّلت ، وذهب كتابها الأصلى ، ودخل عليها من التحريف اللَّفظى والمعنوى ، فى عقائدها وشعائرها وأُصولها

وفروعها ما مسخها وأضاع حقيقتها ، وأخرجها من التوحيد إلى التثليث ، ومن عبادة الله الواحد إلى عبادة المسيح أو العذراء !

والمسيح يقول : « لا يدخل الغنى ملكوت السموات حتى يدخل الجمل فى سم الخياط » ، ويقول لمن أراد أن يتبعه : « بع مالك ثم اتبعنى »

وشعار المسيحية المتوارث المشهور : اعتقد وأنت أعمى ! أى اعزل إيمانك عن عقلك .

والإيمان المسيحى بطبيعته وتاريخه شىء خارج دائرة العقل ، حتى قال القديس « أوجستين » يوماً فى تعليل إيمانه بغير المعقول : أومن بهذا ، لأنه محال !

معنى هذا أن المسيحى الحق لا بد أن يختار بين الحضارة والدين ، فإما دين بلا حضارة ، وإما حضارة بلا دين !

٢ - إن المسيحية ينوء كاهلها بتاريخ شديد الظلمة ، حالك السواد ، ملطخ بدماء العلماء والمفكرين الأحرار ، تاريخ تقشعر لمجرد ذكره الأبدان ، وتشيب لهوله الولدان ، تاريخ وقفت فيه الكنيسة مع الجمود ضد الفكر ، ومع الخرافة ضد العلم ، ومع الاستبداد ضد الحرية ، ومع الظلام ضد النور ، وصنعت من المجازر البشرية - وخاصة مع النخبة والصفوة - ما لا ينساه التاريخ .

وبهذا لم يعد وجه المسيحية مقبولاً بحال للقيام بالدور المنتظر ، حتى لو افترضنا قدرتها على ذلك ، وما هى بقادرة .

٣ - إن المسيحية لا تنفصل عن « الأكليروس » عن رجال الكهنوت ، وسيادة المسيحية تعنى سيادة هؤلاء الذين يتحكمون فى ضمائر الناس ، ويزعمون أنهم وحدهم الممسكون بمفاتيح أبواب الملكوت ، وأنهم حلقة الوصل بين السماء والأرض ، ومحتكرو الوساطة بين الله وعباده ، والبشرية

التى دفعت ما دفعت للتحرر من استبداد الملوك ورجال الدنيا ، ليست مستعدة أن تقع أسيرة لاستبداد رجال الدين .

٤ - إن الحضارة الغربية يزعم لها الكثيرون أنها حضارة مسيحية ! ويحاولون إلصاقها بالمسيح ، وإن كان المسيح منها براء فهى - كما قلت مرة - حضارة المسيح الدجَّال ، لا حضارة المسيح ابن مريم ، لأن الدجَّال أعور ، وهى حضارة عوراء ، تنظر إلى الحياة بعين واحدة ، هى العين المادية .

ولهذا كله يستبعد المفكرون الغربيون أنفسهم أن تكون المسيحية هى مصدر الخلاص ، وسبيل النجاة .

فدور المسيحية قد انتهى إلى غير رجعة ، والمسيح عندهم « قد مات » ، وهو ما عبَّر عنه « نيتشة » وغيره بأن الإله قد مات !

وعبارة « موت الإله » شديدة الوقع على الحس الإسلامى ، والعقل الإسلامى ، لأن الإله عندنا هو رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، الذى خلقهم وسوَّاهم ، وأحياهم ثم يميتهم ثم يُحييهم ، ومثل هذا الإله المحيى المميت لا يُتصور أن يموت ، بل هو الحى القيوم الذى لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم ، بلْهَ أن يعتريه موت .

أما إله الغرب ! أو إله المسيحيين ، فهو - فى اعتقادهم - مجرد بَشَر تجسَّد فيه ، أو حل فيه روح الإله ، وهم يعتقدون أنه صُلِب من قبل ، فلا غرابة أن يموت من بعد !!

يقول البرفسور « رينيه دوبو » فى نقده للحضارة الغربية ، وبعد فصل كامل سماه « البحث عن معنى » وتحت عنوان فصل جديد : « التخلص من أسطورة النمو والتنمية » :

« إذا راجعنا التاريخ ربما يظهر موضوع « البحث عن معنى » عملاً لا فائدة منه . ففى كل مرة تتعرض البشرية لمثالية تعطيها معنى لحياتها تتجزأ هذه

المثالية ، وتختفى ، ولقد ظهر فى الماضى كثير من العقائد الدينية والفلسفية والاجتماعية أنارت للبَشر طريقهم لمدة ما ، وضاعت من بعد ذلك فى مستنقع من شكوك فلسفية وجدل ضيق عقيم .

« بدت المسيحية فى القرون الوسطى كقوة موحدة عندما أعطت شعوب أوروبا بعض الآمال ، والمطامح المشتركة ، والسلوك الاجتماعى المستوحى من محبة الله وخوفه . ولقد حرَّكت أفكار المسيحية القدرات البشرية فى أعمال جَماعية مدهشة ، كبناء الأديرة ، والكاتدرائيات ذات الفن القوطى والرومانى .

« ولكن بعد ذلك انشغل المسيحيون باطراد فى مجالات لاهوتية مكررة ، وتحولَّت المسيحية من عقيدة روحانية من المحبة إلى اعتقاد جامد محافظ خال من أى إلهام ، والآن كثيرا ما نراها - أى المسيحية - تتفتَّت لتصبح فئات متعددة تتبنى اخلاقا اجتماعية مبهمة .

« فاللاهوتيون مشغولون بمناقشات فلسفية زائفة لمحاولة التوفيق بين المسيحية والرأى الذى لا معنى له ، عن « موت الإله » !

ليت « دوبو » عرف الإسلام بحق ، إذن لوجد فيه ما افتقده فى المسيحية !

* *

● اليهودية أشد عجزاً :

وإذا كانت المسيحية عاجزة عن القيام بدور المنقذ ، فإن اليهودية أشد عجزاً !

واليهودية نفسها لا تزعم أن لديها هداية تقدمها للبَشر ، فهى ديانة يغلب عليها الطابع العنصرى ، وبنو إسرائيل - وحدهم دون الناس - هم شعب الله المختار !

و« الله » فى دين اليهود ليس رب العالمين ، ولكنه رب إسرائيل ، والآخرة

عند اليهود ليست هى ملكوت السماء عند النصارى ، ولا جنة الخلد عند المسلمين ، إنما هى مُلك إسرائيل .

و« العهد القديم » كتاب اليهود المقدَّس الذى يضم أسفار التوراة وملحقاتها يدور جلّه حول تاريخ إسرائيل ، وأحلام إسرائيل .

التوحيد الذى دعا إليه موسى عليه السلام ضاع فى هذا الكتاب الذى شوَّه صورة الأُلوهية ، وأضفى على الإله من نقائص البَشر ، من الجهل والخوف والحسد ، والضعف ، يلحظه كل قارئ للتوراة .

والأنبياء الذين جعلهم الله هُدَاة للبَشر ومعلِّمين ، لُوِّثت سيرتهم وأُلصقت بهم التهم ، فى هذا الكتاب ، فلم يعودوا ليصلحوا أُسوة للناس .

والشريعة فيه تُحل لبنى إسرائيل ما تُحرِّمه على غيرهم ، فالربا حرام إذا تعامل اليهودى مع مثله ، أما مع غيره من الناس فهو حلال زلال .

أما تعاليم « التلمود » فتجعل من اليهود « عصابة » تستحل دماء البَشر ، وأموالهم وحرماتهم ، باسم الدين ، فكل مَن عداهم من الأُمم يجب أن يكونوا عبيداً لهم ، وأن يكون لهم السيادة على العالَم ، وكل مَن دونهم أحط من البهائم .

على أن اليهود لو كانوا يملكون رسالة لهداية البَشر ، لكانوا أبعد الناس عن الصلاحية لحملها ، فهم - بأنانيتهم وعزلتهم ، وحقدهم وطمعهم وشرههم - لا يصلحون لحمل رسالة عالَمية .

وهم - بما نُشِر عنهم فى بروتوكولات حكماء صهيون ، وما ظهر على أيديهم فى فلسطين ولبنان - أعداء البَشرية لا منقذوها !

وهم - بتاريخهم الدموى مع أنبياء الله ورسله - زكريا ويحيى والمسيح ومحمد عليهم الصلاة والسلام - لا يصلحون لحمل رسالة .

وهم بتاريخهم فى إيقاد الفتن ، وتمزيق الجماعات ، وبث الأفكار الهدَّامة ، ونشر الفلسفات ، والمذاهب الانحلالية - لا يصلحون للإنقاذ ، وإخراج البشرية من الظلمات إلى النور ، فإن فاقد الشيء لا يُعطيه !

* *

● **الحضارة التى ينشدها العالَم تتجلى فى الإسلام :**

إن البَشرية اليوم فى حاجة إلى حضارة جديدة ، لها فلسفة ورسالة غير فلسفة الحضارة الغربية ورسالتها ، الحضارة الغربية بشقيها : الرأسمالى والشيوعى ، فكلاهما ثمرة لشجرة واحدة ، هى الشجرة الملعونة فى القرآن والتوراة والإنجيل ، هى شجرة المادية النفعية .

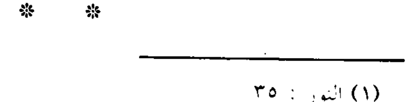
البَشرية فى حاجة إلى حضارة تعيد إليها إيمانها بالله وبرسالاته ، وبلقائه وبحسابه وعدالة جزائه ، وبالقيم العليا التى لا يكون الإنسان إنساناً بغيرها ، ولا يكون للحياة مذاق ولا معنى بسواها .

البَشرية فى حاجة ماسَّة إلى حضارة جديدة تعطيها الدين ولا تُفقدها العلم .. تعطيها الإيمان ولا تسلبها العقل .. تعطيها الروح ولا تحرمها المادة .. تعطيها الآخرة ولا تحرِّم عليها الدنيا .. تعطيها الحق ولا تمنعها القوة .. تعطيها الأخلاق ولا تسلبها الحرية .

إنه فى حاجة إلى حضارة تتصل بها الأرض بالسماء ، وتتعانق فيها المعانى الربَّانية والمصالح الإنسانية ، ويتآخى فيها العقل المفكر والقلب المؤمن ، ويمضى فيها الإنسان قُدُماً إلى الأمام مستضيئاً بنور الوحى الإلهى ، ونور الفكر البشرى ، فكلاهما من فضل الله ورحمته بالإنسان .. ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ (١) .

وليست هذه الحضارة إلا حضارة الإسلام ، التى يتجلى فيها التوازن والتكامل بصورة لا يقدر عليها إلا العليم الحكيم ، الذى لا يَعْزُب عن علمه مثقال ذَرَّة فى الأرض أو السموات .

* *



(١) النور : ٣٥

● حضارة التوازن والتكامل :

إن الإسلام هو الرسالة الوحيدة التى تُقدِّم للبَشرية منهجاً يتميز بالتوازن والتكامل . ونعنى بالتوازن : التوسط بين طرفى الغلو والتفريط ، اللذين لم يسلم منهما منهج بشرى صرف ، أو منهج دينى دخله تحريف البشر ، وهو ما يُعبِّر عنه القرآن باسم « الصراط المستقيم » وهو المذكور فى فاتحة الكتاب ، الذى يسأل المسلم ربه كل يوم أن يهديه إليه ما لا يقل عن سبع عشرة مرة فى صلواته : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (١) فهو منهج متميز عن طريق المغضوب عليهم وطريق الضالين .

وقد يُعبِّر عنه بـ « الميزان » الذى يجب إلا يشوبه طغيان ولا إخسار كما قال تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلا تَطْغَوْا فِى الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ (٢) .

فالطغيان هو الميل إلى جانب الغلو والإفراط ، والإخسار : هو الميل إلى جانب التقصير والتفريط ، وكلاهما ذميم .

فى هذا المنهج تلتقى المتقابلات التى يحسب كثير من الناس التقاءها ضربا من المحال ، لأنها فى نظرهم متضادة ، والضدان لا يجتمعان ، ولكنها فى الإسلام تلتقى فى صورة من الاتساق المبدع ، بحيث يأخذ كل منها المساحة المناسبة له ، دون أن يطغى على مقابله : لا طغيان ولا إخسار .

فهو يضع الموازين القسط .

بين الربانية والإنسانية .

بين الوحى والعقل .

بين الروحية والمادية .

---

(١) الفاتحة : ٦ (٢) الرحمن : ٧ - ٩

بين الأُخروية والدنيوية

بين الفردية والجَماعية .

بين المثالية والواقعية .

بين الماضوية والمستقبلية .

بين المسئولية والحرية .

بين الاتباع والابتداع .

بين الواجبات والحقوق .

بين الثبات والتغير .

بين الاعتزاز والتسامح .

وبهذا التوازن تتميز الأُمة المسلمة عن غيرها من الأُمم ، ويضعها فى مرتبة الأُستاذية ، وهو ما خاطبها الله تعالى به بقوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (١) .

وأما التكامل فلا نعنى به التوسط أو التعادل بين طرفين متقابلين كالذى ذكرناه فى التوازن .

إنما نعنى به اجتماع معان وأُمور يكمل بعضها بعضاً ، ولا يُستغنى بأحدها عن الآخر ، لكى يؤدى الإنسان رسالته كاملة فى عمارة الأرض ، وخلافة الله ، وعبادته ، كما أمر الله تعالى .

مثال ذلك :

العلم . . . والإيمان .

الحق . . . والقوة .

---

(١) البقرة : ١٤٣

العقيدة . . . والعمل .

الدين . . . والدولة .

التربية . . . والتشريع .

وازع الإيمان . . . ووازع السلطان .

الإبداع المادى . . . والسمو الخُلُقى .

القوة العسكرية . . . والروح المعنوية .

فليس العلم مقابلاً أو مضاداً للإيمان ، فى نظر الإسلام ، ولا فى واقع الأمر . وليس الحق مقابلاً للقوة ، وليست العقيدة مقابلة للعمل ، ولا التربية مقابلة للتشريع . . . وهكذا ، إنما هى معان يكمل بعضها بعضاً .

فإن الحياة التى ينشدها الإسلام لا تستقيم ولا تتكامل إلا بهذه الأُمور كلها .

وعيب المناهج والأنظمة البَشرية أنها تهتم ببعض الجوانب دون بعض ، وتركز على بعض القيم دون بعض ، فنراها تعنى - مثلاً - بالاقتصاد والإنتاج ، أعنى بإشباع البطون ، ولكن لا تعنى كثيراً بإشباع العقول ، وقد تعنى بإشباع العقول بالعلم المادى ، ولكنها لا تعنى بإشباع القلوب والأرواح برحيق الإيمان . وقد تهتم بتيسر المواصلات بين البلدان ، على حين تغفل الاهتمام بالصلات الاجتماعية والنفسية بين الناس .

ولكن الإسلام - منهج الله - يعنى بإشباع حاجات الإنسان كله : جسمه وعقله وروحه ، ويهتم بالإنسان فى كل أحواله ، فرداً ، وعضواً فى أُسرة ، وعضواً فى مجتمع ، ويوجه عنايته التوجيهية والتشريعية إلى الإنسان فى كل مراحله وأوضاعه ، الإنسان طفلاً ، والإنسان شاباً ، والإنسان شيخاً . . الإنسان رجلاً ، والإنسان امرأة . . الإنسان حاكماً ، والإنسان محكوماً ، الإنسان من حيث هو إنسان : أبيض أو أسود ، شرقى أو غربى ، غنى أو فقير ، يعيش فى ناطحات السحاب أو فى الغابات والأدغال .

* *

● تكامل العلم والإيمان فى الإسلام :

ومن أظهر ما ينجلى فيه التكامل الإسلامى ، هو تكامل العلم والإيمان .

فمن مظاهر التكامل فى نظام الإسلام أن التقى به العلم والإيمان جنباً إلى جنب ، ولم يقم فى مجتمعه ما قام فى المجتمعات الأُخرى من نزاع بين العلم والدين ، راح ضحيته الأُلوف من أهل العلم والفكر ، ومَن رأى رأيهم أو سار على دربهم ، وتاريخ أوروبا فى العصور الوسطى حافل بالمجازر البَشرية الرهيبة التى سيق إليها العلماء والدارسون فى ظل محاكم التفتيش وغيرها .

وقد حكى الشيخ محمد عبده فى كتابه « الإسلام والنصرانية ، مع العلم والمدنية » جملاً من هذه الوقائع تقشعر لمجرد ذكرها الجلود ، وتستنكرها فى عصرنا أدنى العقول .

ومن حسن حظنا نحن المسلمين أن ديننا لا يضيق بالدعوة إلى العلم والتقدم ، كما قد يتوهم الذين لا يعرفون الإسلام ، ويريدون أن يُجروا عليه ما جرى على الأديان الأخرى .

ونحن نعتبر التقدم العلمي وما يُثمره فى الحياة من استخدامات تكنولوچية نافعة - تيسر على الإنسان حياته ، وتوفر عليه جهده البدنى والعقلى - عبادة بالنسبة للفرد المسلم ، يتقرَّب بمعرفتها واتقانها إلى ربه ، كما يتقرَّب بالصِلاة والصيام . وهى - بالنسبة للمجتمع - فريضة كفائية ، يأثم المجتمع كله إذا لم يقم من أبنائه عدد كاف يسد كل الثغرات ، ويلبى كل الحاجات ، التى يتطلبها المجتمع فى كل مجالاته المدنية والعسكرية .

إن مما تميز به الإسلام عن غيره من الأديان الأخرى ، هو احترامه للعقل ، ودعوته إلى النظر والتفكير ، وحثه على العلم والتعلم ، وإشادته بالعلماء وأصحاب العقول ، وحملته على الجمود والجهل ، وتمجيده للقراءة والكتابة والقلم ، منذ أول آيات أُنزلت من القرآن .

لم يقل فى الإسلام ما قيل فى أديان سابقة من مثل : آمن ثم اعلم ، أو أغمض عينيك ثم اتبعنى ! أو الجهالة أم التقوى ! بل قرر مَن يُعتد بهم من علماء المسلمين : أن إيمان المقلِّد لا يُقبل ، وأن العقل أساس النقل . فبالعقل ثبت وجود الله فى وجه الملاحدة والمشككين ، وبالعقل ثبت إمكان الوحى ووقوعه ، وثبتت النبوة الخاتمة ، وثبت إعجاز القرآن .

ولا عجب أن طالب القرآن المشركين وأمثالهم من أصحاب العقائد الباطلة بقوله : ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) .

وقال فى شأنهم : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلا ظَنّاً ، إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِى مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾ (٢) .

لقد شاع فى تاريخ الكنيسة الغربية طوال العصور الوسطى عندهم : أن العقل ضد الوحى ، وأن العلم عدو الدين ، وأن الفكر خصم الإيمان ، وأن الشريعة نقيض الحكمة . أما الإسلام فلم يعرف هذه المشكلة ، فالعقل والوحى عنده أثران من آثار الألوهية ، لا يتعارضان ، ولا يتناقضان ، ولهذا نرى الوحى يمجد العقل ، ويحث على الانتفاع به ، ونرى العقل هو الدليل على صدق الوحى ، وهو الأداة لفهمه وشرحه .

ومن هنا قرر المحققون من أئمة الإسلام : أنه لا تعارض أبدا بين صحيح المنقول وصريح المعقول ، وما ظنه بعض الناس من تعارض ، فلا بد أنه نتيجة خطأ فى فهم ما هو من العقل أو ما هو من الدين .

(أ) ولقد مضت أربعة عشر قرناً على نزول القرآن الكريم ، نشأ فيها كثير من المعارف والأفكار ، ورغم هذا لم تخالف آية من آياته حقيقة علمية ثابتة ، وهذا من دلائل الإعجاز فى هذا الكتاب العظيم .

---

(١) البقرة : ١١١ (٢) يونس : ٣٦

(ب) ومع أن القرآن ليس كتاب « علم » بالمعنى الاصطلاحى للعلم الآن ، فقد تضمن إشارات كثيرة إلى حقائق علمية ، لم تكن تخطر على بال أحد فى عصر نزوله ولا بعد عصره بقرون ، وأُلِّفت فى ذلك كتب كثيرة كشفت عن لون جديد من إعجاز القرآن ، اشتهرت تسميته « الإعجاز العلمى » عُقدت لبيانه ندوات ومؤتمرات فى أقطار عدة ، وأُنشئت له هيئة مستقلة فى رابطة العالم الإسلامى بمكة المكرَّمة .

(جـ) وأكثر من ذلك أن القرآن ينشىء بتعاليمه « العقلية العلمية » التى تنكر الخرافة ، وترفض اتباع الظنون والأهواء ، وتستعصى على التبعية والتقليد ، وتؤمن بالبرهان فى العقليات ، وبالتوثيق فى النقليات ، وتعتمد على الملاحظة والتجربة فى الماديات ، وتعتقد أن العقل نعمة مُنحها الإنسان ، لينظر بها ، ويفكر فى الانتفاع بالكون وما فيه ، والاستفادة من سير التاريخ ، وما يجرى فيه من سنن لله لا تتبدل . ففيه آيات : ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (1) ، و﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (2) ، و﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (3) ، و﴿ لأُولِى الأَلْبَابِ ﴾ (4) و﴿ لأُولِى النُّهَى ﴾ (5) .

(د) ويشيد القرآن بالعلماء فى آيات كثيرة من سوره : ﴿ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (6) ، ويجعلهم وحدهم أهلا لخشية الله تعالى ومخافته : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (7) وقد ذكر القرآن العلماء هنا بعد ذكر السماء والماء والنبات والجبال والحيوان والإنسان ، مما يشير إلى أن العلماء هنا هم الراسخون فى العلوم الكونية والحيوية وما يتعلق بها ، وأن علمهم هذا يُعرِّفهم بقدرة الله عزَّ وجلَّ ، وعظيم نعمته ، وواسع رحمته ، وبالغ حكمته .

(هـ) وذكر القرآن من قصص النبيين والصالحين ما يَلفت الأنظار - بقوة -

---

(1) البقرة : 164 (2) يونس : 24 (3) البقرة : 230
(4) آل عمران : 190 (5) طه : 54 (6) الزمر : 9
(7) فاطر : 28

إلى قيمة العلم ومنزلته ، فى إعانة الإنسان على وظيفته فى خلافة الله فى الأرض ، واستخدامه فى كثير من الأُمور النافعة ، كما فى قصة آدم وتفوقه على الملائكة بالعلم ، وقصة يوسف وتدبيره أمر مصر فى أعوام المجاعة بالعلم والتخطيط ، وقصة سليمان وإحضاره عرش بلقيس بالعلم ، وغيرها من قصص النبيين والمؤمنين .

وفى ضوء هذه القيم والمفاهيم تأسست النهضة العلمية الكبرى فى رحاب الحضارة الإسلامية المتكاملة . . ترجم المسلمون كتب « الأوائل » كما كانوا يسمونهم من المشرق والمغرب ، وخصوصاً : اليونان ، الذين كان لهم باع طويل فى الفلسفة ، التى كانت تشمل شُعَبها : الجوانب العلمية والرياضية والطبيعية ، فاستفاد المسلمون منها ، وهذَّبوها ، وشرحوها ، وأضافوا إليها إضافات هامة ، بل ابتكروا علوماً جديدة مثل علم « الجبر » ، واكتشفوا المنهج الاستقرائى والتجريبى الذى طبَّقوه عملياً فى مختلف جوانب الحياة ، والذى اقتبسه الغربيون منهم ، وقامت على أساسه النهضة الغربية الحديثة ، فهى حسنة من حسنات الحضارة الإسلامية ، كما شهد بذلك المنصفون من الغربيين أنفسهم .

لقد كانت الحضارة الإسلامية هى الحضارة الأولى - وربما الحضارة الفذَّة - فى العالم لعدة قرون ، يوم كانت أوروبا غارقة فى بحار الظلمات ، ولا ترى الضوء إلا من سم الخياط .

وكانت جامعات المسلمين هى جامعات العلم الكبرى فى العالَم فى بغداد أو فى القاهرة ، أو فى دمشق ، أو فى قرطبة ، والأندلس ، أو فى غيرها من مواطن العلم فى عالَم الإسلام ، وكان الطُلاب من أنحاء العالَم يفدون إلى هذه الجامعات ليتعلموا ويتقدموا .

وكانت المراجع العلمية فى العالَم هى المراجع الإسلامية : فى الطب

أو الصيدلة أو الفلك أو الفيزياء والبصريات ، أو الكيمياء أو الرياضيات ، أو تقويم البلدان والجغرافيا . . . وغيرها ، وإذا أخذنا الطب مثلاً نجد هذه الكتب العربية الإسلامية كانت مراجع للعالَم عدة قرون : « الحاوى » للرازى ، « القانون » لابن سينا ، « الكليات » لابن رشد . . « التصريف لمن عجز عن التأليف » للزهراوى . . . . إلخ .

وكانت أسماء علماء المسلمين هى ألمع الأسماء العلمية فى تلك العصور ، بل هى الأسماء الوحيدة المعروفة فى تخصصاتها المتنوعة ، مثل الخوارزمى والبيرونى وابن الهيثم وابن النفيس وابن البيطار . . . وغيرهم وغيرهم .

إلى جوار علماء الإنسانيات مثل الفارابى والغزالى وابن طفيل وابن تيمية وابن خلدون . . . وغيرهم .

وكانت اللُّغة العربية هى لغة العلم الأولى فى العالَم ، فقد وسعت كل العلوم المترجمة والمبتكرة ، وكتبت بها فى سلاسة ووضوح ، ولم يشك عالم يوماً ما أن اللُّغة ضاق صدرها بعلم من العلوم ، أو عجزت عن التعبير عنه .

وكانت مدُن المسلمين فى عالَم الإسلام هى التى احتضنت هذه النهضة الشامخة ، وتجلَّت فيها آثارها المادية : فى مساجدها ، وفى مدارسها ، وفى قصورها ، وفى مستشفيَاتها ، وفى شتَّى جوانب حياتها .

كما تجلَّت آثارها المعنوية فى سلوك المسلمين : فى صلتهم بربهم ، فى صلاتهم وصيامهم ، فى زكاتهم وصدقاتهم ، فى أوقافهم الخيرية التى شملت الإنسان والحيوان ، فى مواقفهم الإنسانية والأخلاقية التى تميَّزوا بها عمن سواهم ، حتى فى أثناء الحروب ، حتى قال « جوستاف لوبون » : « ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب » . . يعنى : من المسلمين .

كانت حضارتهم حضارة ربَّانية ، كل شىء فيها موصول بذكر الله ، وكل أمر ذى بال فيها لا يبدأ باسم الله فهو أبتر ، وكانت حضارة أخلاقية ،

لا ينفصل فيها العلم عن الأخلاق ، ولا الاقتصاد عن الأخلاق ، ولا السياسة عن الأخلاق ، ولا الحرب عن الأخلاق .

* *

● العلم لا يغنى بغير الإيمان :

لهذا نقول : رغم إيماننا بالعلم وأهميته ، وبالعقل وضرورته ، فليس العقل كل شيء فى الإنسان ، ولا العلم كل شيء فى الحياة .

إن العقل له ميدانه الذى لا يتجاوزه ، والعلم له مجاله الذى لا يتعداه ، وبعد ذلك يقف العقل والعلم حائرين . فسر الوجود ، وغاية الحياة ، ومبدأ الكون ومصيره ، وقضية الموت والحياة ، وما يتصل بذلك من قضايا الوجود الكبرى ، لا يستطيع العقل أن يدركها وحده ، ولا يستطيع العلم أن يمد إليها سلطانه ، لأن سلطانه فيما يخضع للملاحظة والتجربة ، أى فى الماديات والمحسوسات .

فكان لا بد من معرفة أخرى تنبع من مصدر آخر ، لتحديد مركز الإنسان وغايته ، ومهمته فى هذه الأرض ، وعلاقته بالكون والحياة ، وخالق الكون والحياة ، وليس هذا المصدر إلا الوحى الإلهى ، ولا سبيل إلى التلقى عنه إلا بالإيمان . وقد حاول بعض مفكرى البَشر فى مختلف العصور أن يصلوا إلى الحقائق الكبرى بعقولهم ، وأن يحلوا مشكلات الوجود بأفكارهم ، فلم يستطيعوا ، وخرجوا بنتائج متناقضة ، لا يطمئن بها قلب ، ولا تستقيم بها حياة . إن الإيمان وحده هو الطريق المأمون ، إذا استند إلى الوحى المعصوم ، ولا يوجد وحى معصوم اليوم إلا فى كتاب الإسلام .

إن الإيمان - كما جاءت به الرسالة الخاتمة - هو الذى يُفسِّر قضايا الوجود الكبرى ، ويصل الإنسان بالوجود الكبير ، وبالأزل والأبد ، ويجعل لحياته طعماً وهدفاً ورسالة .

وهو - مع ذلك - الذى يعصم العلم من الانحراف ، ويحول دون استخدامه فى الشر والعدوان ، ولهذا رأينا سليمان حين أُحضر إليه عرش بلقيس بواسطة ﴿ الَّذى عندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ [1] يُرجع الفضل إلى الله فلا يطغى أو يغتر ، بل قال ما قصَّه القرآن :

﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِراً عندَهُ قَالَ هَذَا من فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنى ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ [2] .

وفى قصة ذى القرنين بعد أن أتم بناء السد ، يقول فى تواضع المؤمنين : ﴿ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَبِّى ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّاءَ ، وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقاً ﴾ [3] .

ورأينا العلم الذى قام بتوجيه الإيمان فى ظل الحضارة الإسلامية يبنى ويعمر ، ويعمل لخدمة الإنسان ، وتزكية الإنسان ، وإسعاد الإنسان .

كما رأينا حين قام العلم فى الغرب - لظروفه التاريخية مع الكنيسة - بعيداً عن هُدى الله ، مقطوعاً عن الإيمان بالله ، كانت نتيجته الأسلحة الكيماوية والجرثومية وآلات الفتك والدمار ، التى جعلت البَشرية تبيت على أحلام مزعجة ، وتصحو على مخاوف مفزعة ، لقد أعطاها العلم الوسائل ، ولكنه لم يعطها الغايات ، وحقق لها المتعة المادية ، ولكن لم يحقق لها السكينة النفسية ، انتصرت به على الطبيعة ، ولكن لم تنتصر به على نفسها وشهواتها .

ومن هنا كان لا بد لنا من إيمان العلماء ، وعلم المؤمنين ، وهذا ما تقوم عليه الحياة الإسلامية المتكاملة .

ولهذا جمعت أول آية نزلت من القرآن بين العلم والإيمان ، وهى قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذى خَلَقَ ﴾ [4] فالقراءة - وهى مفتاح العلم - إنما يريدها الإسلام قراءة باسم الله الخالق .

---

(١) ، (٢) النمل : ٤٠ (٣) الكهف : ٩٨ (٤) العلق : ١

وإذا كان مفتاح الإسلام هو العلم والفهم ، فإن جوهر الإسلام هو الإيمان ، وجوهر الإيمان هو التوحيد ، بل هو جوهر الرسالات السماوية كلها ، ولهذا كان النداء الأول فى رسالة الرسل : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إلهٍ غَيْرُهُ ﴾ (١) .

* *

● مكانة الإيمان من حياة الإنسان :

إن حقيقة الدين ومهمة الإيمان تتجلى :

أولاً : فى وصل ما بين الإنسان وربه ، وإشعاره بقربه وحبه ، وملء ما بين جنبيه ثقة به ، واعتماداً عليه ، واطمئناناً إليه ، وأُنساً به ، ويقيناً بكل ما جاء من عنده .

وتتمثل ثانياً : فى الارتفاع بقيمة الإنسان من مجرد « حيوان متطور » كما تَصَوَّره أو صوَّره بعض الناس ، إلى كائن مكرَّم مكلَّف مسؤول ، مخلوق فى صورة الخالق ، مخلوق فى أحسن تقويم ، مستخلَف فى الأرض ، مغبوط من الملأ الأعلى ، فلا غرو أن يعمل الدين على إعلاء « نفخة الروح الإلهى » فى كيانه على « قبضة الطين والحمأ المسنون » فيه ، وبذلك لا يعيش الإنسان مشدوداً إلى أسفل . . إلى المتاع الأدنى ، بل يحيا دائماً مشرئباً متطلعاً إلى الأُفق الأعلى .

وتتمثل ثالثاً : فى توسيع صلته بالكون العريض من حوله ، فهو ليس كائناً طفيلياً فى هذا الوجود الكبير ، ولا هو - أى الكون - بالعدو الذى يصارعه ، أو المجهول الذى يطارده ، بل هذا الكون كله مسخَّر لمنفعته ، وهو كذلك آية تدله على ربه . كما أن الناس - كل الناس - فيه إخوة له ، يشاركونه فى العبودية لله والبنوة لآدم .

وتتمثل رابعاً : فى مد عمر هذا الوجود إلى ما بعد هذه الحياة القصيرة الأمد ، أى إلى حياة الخلود والأبد ، فليست قصة البشرية مجرد أرحام تدفع

---

(١) الأعراف : ٥٩

وأرض تبلع ، أو كما قال القرآن على لسان الجاحدين : ﴿ إنْ هِىَ إلا حَيَاتُنَا الدُّنيا نَمُوتُ وَنَحيا وَمَا نَحنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (١) ، بل الأمر كما قال عمر بن عبد العزيز : « إنكم خُلقتم للأبد ، وإنما تُنْقَلون من دار إلى دار » !

وهذه المعانى كلها إنما ينشئها ويحييها تنبيه الإنسان إلى سر وجوده ، وحقيقة إنسانيته ، والوعى برسالته فى الحياة ، وكلها من ثمرات الإيمان : الإيمان بالله تعالى ، والإيمان بالخلود فى الآخرة ، وهما ركنان أساسيان فى كل دين .

* *

● لا بد من عمل لتجديد الإيمان :

ولهذا كان لا بد من عمل لتجديد الإيمان فى الأنفس والحياة ، بكل الوسائل والأساليب ، فإن من أخطر الأمور تركيز الفلسفات والأنظمة التعليمية والتربوية على الجوانب المادية والتكنولوچية والعملية - وحدها - فى مناهجها وكتبها ومدارسها ، والنظرة إلى الدين نظرة إهمال أو عداء ، اتباعاً للعلمانيين فى الغرب ، أو الماركسيين فى الشرق ، فالأولون يُسقطونه من الحساب ، والآخرون يعادونه سراً وعلانية .

فإذا دخل الدين المدرسة أو الجامعة - تحت سلطان العلمانية - لم يدخل دخول صاحب البيت ورب الدار ، بل دخل كأنه زائر دخيل ، أو ضيف ثقيل ، ساعة فى آخر اليوم المدرسى ، أو الأسبوع الجامعى ، تُسَد بها خانة أو يُملأ بها فراغ ، حتى تسكُت ألسنة المتدينين المتزمتين المتعبين !

ولا عجب ، أن أصبح التعليم يشكو الجفاف والجفاء والخواء . . . ويحتاج إلى الروح الذى يوقظ القلوب ، ويُحرِّك المشاعر ، ويرد إلى الجثث الهامدة الحياة ! ورحم الله الفيلسوف الشاعر المسلم محمد إقبال الذى قال عن

---

(١) المؤمنون : ٣٧

هذا « التعليم الحديث » كما كان يسمى فى عصره : « إنه لا يعلِّم العين الدموع ، ولا القلب الخشوع » !

وما يقال عن التعليم والتربية يقال مثله عن الإعلام وأجهزته الجبارة المؤثرة فى التوجيه والتثقيف العام ، بل غدا الإعلام اليوم - بتقاليده ومواريثه ومفاهيمه السائدة - أشد خطراً من أى شىء آخر على الإيمان ، وأخلاق الإيمان .

إن الإيمان هو سبيلنا إلى رضوان الله تعالى ، وعدتنا فى طريق الآخرة ، فقد حُفَّت الجنَّة بالمكاره ، وحُفت النار بالشهوات ، ولن نقدر على احتمال المكاره فى طريق الجنَّة ، ولا أن نقاوم الشهوات المفضية إلى النار ، إلا بقوة روحية داخلية ، تستحب المكاره ، وتستعذب العذاب فى سبيل الله ، كما تركل الشهوات ولذائذ الدنيا كلها ، إذا كان من ورائها سخط الله .

وهذه القوة الروحية إنما يصنعها الإيمان ، إنه هو الذى يحفزنا إلى أداء المهمة التى خُلقنا لها ، وهى عبادة الله تعالى ، ويُحبب إلينا هذه العبادة حتى تغدو لنا قُرَّة عين .

وهو الذى يأخذ بيد المرء ليتقرب إلى الله تعالى بأداء فرائضه الواجبة عليه ، ويزداد تقرباً إليه بنوافل الطاعات ، حتى يربح حبه له ، فإذا أحبه سبحانه كان سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، وإذا دعاه أجابه ، وإذا سأله أعطاه .

على أن الإيمان ليس سبيلاً إلى سعادة الآخرة فحسب ، بل هو السبيل أيضاً إلى سعادة الدنيا التى يحرص كل الناس عليها ، ولا يجدها منهم إلا القليل ، أو أقل القليل ، وكم من أشياء يخطف بريقها أبصارهم ، فيلهثون وراءها يحسبون أن فيها السعادة المنشودة ، فإذا هى سراب بقيعة ، يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

إن الإيمان وحده هو الذى يمنح الإنسان الطمأنينة وسكينة النفس التى هى روح السعادة ، وسعادة الروح : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ، أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (١) .

قد يستطيع الإنسان بواسطة المال والثراء أن يوفر لنفسه كثيراً من اللَّذائذ ، وأن يعب من الشهوات ما يمكن أن يُشترى بالدرهم والدينار . ولكن السعادة الحقيقية لا تُعرض فى الأسواق ، ولا تُشترى بالنقود ، ولا بالنفوذ ! لأنها تنبع من أعماق النفس ، وليست سلعة نستوردها من هنا أو هناك ، وهى التى قال عنها أحد السَّلَف الصالح على شظف عيشه : إننا نعيش فى سعادة ، لو علم بها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف ! .

وقد يستطيع الإنسان بواسطة العلم أن يعيش فى عالَم أوتوماتيكى يضغط بأصبعه على زر عن يمينه أو يساره ، أو أمامه أو خلفه ، فيدنو له البعيد ، ويلين له الحديد ، ويتحرك الساكن ، ويسكن المتحرك ، ويعيش ناعماً مرفهاً ، كأن عشرات من الخدم بين يديه ، فهو لا يقل - بل يزيد - فيما يتمتع به عن قارون العتيد ، أو هارون الرشيد . بل استطاع الإنسان بالعلم أن يُحرِّك الأشياء ويسكنها ، وإن يُنطق الأجهزة ويسكتها ، بغير أزرار !

ولكن العلم - وإن هيأ للإنسان رفاهية الجسم - لم يهىء له طمأنينة القلب . منحه الوسائل ، ولم يمنحه غاية يعيش لها ، لأن هذه ليست مهمة العلم ، بل هى مهمة الإيمان .

والإيمان الذى نعنيه ، هو الذى ينمى فى الإنسان حوافز الخير ، وكراهية الشر ، ويملأ ما بين جنبيه شوقاً إلى التزكى ، ورغبة فى الترقى عن جاذبية الطين الأدنى ، إلى أُفق الروح الأعلى ، وهو الذى يعطى الإنسان الطاقة والقدرة للتحليق بأشواقه الصاعدة ، فوق مستوى الغرائز الهابطة ، وهو الذى

---

(١) الرعد : ٢٨

يهب الشباب في عنفوانه أمام الشهوات العارمة إرادة كإرادة يوسف الصديق ، تقبل ذل السجن ، وترفض إغراء المعصية ، وشعاره : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أحبُّ إليَّ مِمَّا يدعُونَنِي إليه ﴾ [1] .

الإيمان هو الذي يمنح صاحبه في مواقف التضحية والفداء ، صبراً كصبر إسماعيل ، وتسليماً كتسليمه لأمر الله ، إذ قال له أبوه ابراهيم : ﴿ يَا بُنَيَّ إنِّي أرَى فِي الْمَنَامِ أنِّي أذْبَحُكَ فانظُرْ ماذا تَرَى ، قَالَ يَا أبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُنِي إنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرين ﴾ [2] .

إن الإيمان الذي ننشده هو وحده الذي تنبت في تربته شجرة الأخلاق ، وتنمو في ربوعه أزهار الفضائل المثلى ، والقيم العليا ، ولقد أثبت التاريخ والواقع أن الأمم بدون أخلاق ، لا تنهض بعبء جسيم ، ولا تقوم بعمل مبدع .

وأن أمة بلا أخلاق ، كبنيان بلا أساس ، فهو مهما علا وامتد حتمى الانهيار ، ورحم الله شوقي إذ قال :

وإذا أُصيب القوم في أخلاقهم فأقم عليهم مأتما وعويـــلا !

ولطالما حاول كثير من الحكام والزعماء والمسئولين ، أن يضبطوا سلوك مجتمعاتهم بالقوانين والقرارات وحدها ، ناسين أن الإنسان إنما يُقاد من داخله لا من خارجه ، فلم تغن عنهم قوانينهم ولوائحهم شيئاً ، وعادوا بالخيبة والخسران ، وغلب الهوى على الحق ، والأنانية على الخير ، وعلا صوت الشهوة على صوت الواجب ، ولا غرو أن شاعت جرائم كُبر ، وظهرت مآسي وفضائح على أعلى المستويات ، وكان مما كتبه أحد القضاة في بريطانيا تعليقاً على الحكم في إحدى هذه القضايا الكبيرة المثيرة : « بدون قانون لا يستقر مجتمع ، وبدون أخلاق لا يسود قانون ، وبدون إيمان لا تسود أخلاق » !

---

(١) يوسف : ٣٣ (٢) الصافات : ١٠٢

والإيمان هو الذى يفجّر الطاقات الكامنة فى إنسان شعوبنا المسلمة ، فيندفع بقوة العقيدة فى الله وفى الدار الآخرة ، ليزرع الأعاجيب ، ويصنع البطولات ، وينشىء الروائع ، كما رأينا ذلك فى التاريخ الماضى ، وفى الواقع الحاضر .

إن الإيمان هو الذى يحل مشكلة النزعة الذاتية الفردية عند الإنسان - وهى نزعة فطرية أصيلة - حين يعلّمه أن ما يقدمه من خير للغير ، وما يضحى به من جهد للجماعة ، وما يبذل من مال أو نفس ، لن يضيع عند الله منه مثقال ذرَّة ، بل كله مكتوب له ، ومردود إليه ، ومضاف إلى رصيده عند الله : ﴿ فمَن يَعْمَلْ مثقالَ ذرَّة خيْراً يَرهُ ﴾ (١) ، ﴿ ومَن يَعْمَلْ من الصَّالحَات وهُوَ مؤمنٌ فَلا يَخَافُ ظلماً ولا هَضْماً ﴾ (٢) ، ﴿ إنَّ الله لا يَظْلمُ مثقالَ ذرَّة وإن تَكُ حسنة يُضاعفها ويُؤت من لَدُنْهُ أجْراً عظيماً ﴾ (٣) .

والإيمان هو الذى يضع بين يدى الإنسان قوة هائلة ، حين يغرس فى نفسه : أن قَدَر الله نافذ لا محالة ، وأن ما أخطأه لم يكن ليُصيبه ، وما أصابه لم يكن ليُخطئه ، وأن ما يخاف عليه الناس من رزق أو أجل ، مكتوب عند الله لا مجال فيهما لزيادة أو نقصان ، فالأرزاق مقسومة ، والآجال معدودة ، ولو اجتمعت الأمة على أن ينفعوا أحدا بشىء لم ينفعوه إلا بشىء قد كتبه الله له ، ولو اجتمعوا على أن يضروه بشىء لم يضروه إلا بشىء قد كتبه الله عليه .

هذا اليقين بالقدر ، يجعل المؤمن به يشعر أنه فى جهاده ودعوته يمثل قَدَر الله الذى لا يُرَد ، وقضاءه الذى لا يُغلب ، كما قال أحد الصحابة فى حرب الفرس لأحد قوادهم ، وقد سأله : مَن أنتم ؟ فقال : نحن قَدَر الله ! ابتلاكم الله بنا ، كما ابتلانا بكم ، فلو كنتم فى سحابة لصعدنا إليكم ، أو لنزلتم إلينا !!

والإيمان كذلك هو الذى يوثق الروابط بين أهله ، فيجمعهم فى ظل

---

(١) الزلزلة : ٧ (٢) طه : ١١٢ (٣) النساء : ٤٠

الأخوة ويصل بينهم بأوثق عُرى المحبة ، فالإيمان رحم بين أهله ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (١)

وإذا كانت هناك أشياء تُفرِّق بين الناس بعضهم وبعض ، من اختلاف العرق أو اللَّون أو اللُّغة أو الإقليم أو الطبقة أو النسب ، أو الثروة أو غير ذلك ، مما يحجز الناس بعضهم عن بعض ، فإن الإيمان بحرارته وقوته هو الذى يُذيب هذه الحواجز ، ولا يعترف بها ، ويجعل من وحدة العقيدة رابطة فوق رابطة الدم أو أقوى ، ولُحمة كلُحمة النسب ، أو أوثق ، حتى إن المؤمن ليؤثر أخاه فى العقيدة على أخيه من النسب ، بل على ابنه من الصلب .

وفى رحاب هذه الأخوة الكبيرة ، تختفى الأحقاد الصغيرة ، وتهون الدنيا التى يتهارش عليها الناس ، وهى أهون عند الله من جناح بعوضة ، وتنكمش مشاعر الحسد والبغضاء التى سماها النبى ﷺ « داء الأمم » ، وقال عن البغضاء بحق : « إنها الحالقة ، لا بمعنى إنها تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين » (٢) .

ولا يقف الأمر عند سلامة الصدر من الحسد والبغضاء ، بل يعمر القلوب حب كبير ، منبثق من حب الله تعالى ، إنه حب لكل مَن والاه وآمن به ، حيث يرتفع بالإنسان من الأنانية الدنيا إلى الغيرية العليا ، وفى هذا جاء الحديث الصحيح : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » (٣) ، « والذى نفسى بيده لا تدخلون الجنَّة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا » (٤) .

وتتمثل الغيرية فى أجلى صورها ، عندما تتجسد فى هذا المعنى الذى لم يُعرف ولن يُعرف فى غير مجتمع المؤمنين ، وهو معنى « الإيثار » أن تجود بالشىء لأخيك وأنت محتاج إليه ، وأن تتعب ليرتاح أخوك ، وتتعرَّض

---

(١) الحجرات : ١٠

(٢) جزء من حديث ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٤١٧٠) ، ونسبه إلى أحمد فى مسنده والترمذى فى جامعه ، والضياء : عن الزبير بن العوام ، ورمز له بالصحة .

(٣) متفق عليه عن أنس ، كما فى « اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان » برقم (٢٨) .

(٤) رواه مسلم عن أبى هريرة فى كتاب الإيمان برقم (٥٤) ، وفيه « ولا تؤمنوا » بحذف النون ، وهى لغة معروفة صحيحة .

صدرك لتلقى ضربات السيوف وطعنات الرماح لتحمى أخاك ، وأن تبيت على الطوى لتُقدِّم كل ما عندك من زاد عشاءً لأخيك ، وهذا هو الذى وصف الله به الأنصار فى قوله : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [(١)] .

وهنا تتحول المشاعر الراقية من الأخوة والمحبة والإيثار ، إلى تلاحم فى الخير ، وتراحم فى السرَّاء والضرَّاء ، وتعاون على البر والتقوى ، صوَّره النبى ﷺ بقوله : « إن المؤمن للمؤمن كالبنيان ، يشد بعضه بعضاً » [(٢)] ، « مثل المؤمنين فى توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمّى » [(٣)] .

إن الإيمان الحق وحده هو سبيل الخلاص ، وسفينة الإنقاذ للبشرية من الغرق المخوف : ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [(٤)] .

* *

● ملامح الإنسان الذى يصنعه الإسلام :

إن الإسلام هو الرسالة القادرة على بناء إنسان قوى متوازن متكامل الشخصية : يمشى على الأرض ، ويتطلع إلى السماء .. يعايش الواقع ، ويرنو إلى المثال .. يعمل للدنيا ، ولا ينسى الآخرة .. يجمع المال ، ولا ينسى الحساب .. يأخذ الحق ، ولا ينسى الواجب .. يتعامل مع الخلق ، ولا ينسى الخالق .. يعتز بماضيه ، ولا ينسى حاضره ومستقبله .. يُحب قومه ، ولا ينسى بنى الإنسان .. يُصلح نفسه ، ولا ينسى إصلاح غيره .. يهتدى ويهدى ، يأتمر ويأمر ، وينتهى وينهى .. فهو دائماً داع إلى الخير ، آمر

---

(١) الحشر : ٩

(٢) متفق عليه عن أبى موسى ، كما فى « اللؤلؤ والمرجان » برقم (١٦٧٠) .

(٣) متفق عليه عن النعمان بن بشير ، كما فى « اللؤلؤ والمرجان » برقم (١٦٧١) .

(٤) آل عمران : ١٠١

بالمعروف ، ناه عن المنكر ، حفظ لحدود الله ، يتواصى مع سائر المؤمنين بالحق ، وبالصبر ، كما أمر الله : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (١) .

إنسان ميّزه الله بالعقل ، فبه خوطب ، وبه كُلّف ، وعلى أساسه كان ثوابه وعقابه . به يفهم الوحى ، وبه ينظر فى الكون ، وكلاهما أثر من آثار الله ، دال على علمه وقدرته وحكمته ، فلا يقيم بينهما تعارضاً ، بل تعاضداً ، فلا تناقض بين صحيح المنقول وصريح المعقول ، بل يؤيد أحدهما صاحبه ، فبالعقل ثبت الوحى وفهم ، وبالوحى سُدِّد العقل وهُدى ، حتى اعتبر الوحى « تفكير العقل » عبادة بل فريضة .

إنسان متوازن الشخصية ، سَوِّى النفس ، لا يطغيه الغنى ، ولا ينسيه الفقر ، لا يستخفه النصر ، ولا تسحقه الهزيمة ، لا تبطره النعمة ، ولا تزلزله المصيبة ، مطمئن القلب ، راضى النفس ، متفائل الروح ، لا ييئس وإن سُدَّت فى وجهه الأبواب ، وتقطعت دونه الأسباب ، موقن بأن مع العُسر يُسراً ، وأن بعد اللّيل فجراً ، وبعد الضيق فَرَجاً ، وأنه لا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون ، ولا يقنط من رحمة ربه إلا الضالون .

إنسان يشعر بأنه مُكرَّم من الله ، مفضَّل من لدنه : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ (٢) ، وأن الله قد جعله فى الأرض خليفة له : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (٣) ، وأن الله فضَّله بالعلم على الملائكة كما فى قصة آدم (البقرة : ٣١ - ٣٣) ، وأن الله سخر له ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ، فكلها تعمل فى خدمته وتيسر مهمته : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (٤) .

إنسان يولد على الفطرة ، لم يُلوَّث بخطيئة ورثها من أبيه الأول ، كما

---

(١) سورة العصر كاملة .

(٢) الإسراء : ٧٠

(٣) البقرة : ٣٠

(٤) لقمان : ٢٠

تزعم المسيحية ، ولم يحمل ذنب أحد ، إنما يحمل مسئولية نفسه ، إن اهتدى فلها ، وإن ضلَّ فعليها ، وليس له إلا ما سعى ، لا يخاف ظلماً ولا هضماً ، أقام الله له الحُجَّة ، وبيَّن له المحجة ، وأزاح عنه العلَّة ، وأرسل له الرسول ، وأنزل عليه الكتاب ، وملَّكه أمر نفسه ، يزكيها أو يدسيها : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [1] .

إنسان يحترم فطرة الله ، التى فرَّقت بين الذكورة والأُنوثة ، فلا يمسخ هذه الفطرة ولا يتمرد عليها ، باسترجال المرأة أو تأنث الرجل ، فلكل منهما دوره فى الدنيا ، وجزاؤه فى الآخرة : ﴿ لا أُضيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى ﴾ [2] ، و« لعن الله المتشبهات من النساء بالرجال ، والمتشبهين من الرجال بالنساء » [3] . يبر المرأة أُماً ، ويرعاها بنتاً ، ويحبها زوجة ، ويصلها قريبة ، ويحميها أُنثى ، ويكرمها غريبة ، ويحترمها إنساناً ، ويرحب بها عضواً فى المجتمع .

إنسان يمشى فى مناكب الأرض ويأكل من رزق الله ، زارعاً أو صانعاً ، أو تاجراً أو مشتغلاً بأى عمل حلال ، يعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً ، ويعمل لآخرته كأنه يموت غداً . لا يُحرِّم زينة الله التى أخرج لعباده ولا الطيبات من الرزق ، ولا تُلهيه تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، يسعى إلى ذكر الله ويؤدى شعائر الله ، ثم ينتشر فى الأرض مبتغياً من فضل الله ، فلا تناقض بين دينه ودنياه ، بل يعتبر عمارة الأرض عبادة ، والسعى على المعاش قُرْبة ، وإتقان العمل الدنيوى فريضة ، فإن الله تعالى كتب الإحسان على كل شيء ، وهو يحب من كل مَن عمل عملاً أن يُتقنه ويُحسنه فإن الله يحب المحسنين .

إنسان صنعته عقيدة « التوحيد الخالص » الذى تميَّز به الإسلام ، فلم تشبْه شائبة الوثنية ، فلا يُشرك بالله شيئاً ، ولا يُشرك بالله أحداً ، لا يعبد نجماً فى السماء ، ولا حجراً فى الأرض ، لا يعبد مَلَكاً فى العالَمَ العلوى ،

---

(1) الشمس : ٩ - ١٠ (٢) آل عمران : ١٩٥

(٣) رواه عن ابن عباس أحمد فى مسنده ، وأبو داود والترمذى وابن ماجه فى سننهم ، وذكره الألبانى فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (٥١٠٠) .

ولا حيواناً فى العالَم السفلى . لا يعبد جنّاً مستوراً ، ولا بَشراً منظوراً ، إنما يعبد الله وحده لا شريك له ، وهو ما دعا إليه الإسلام أهل الكتاب : ﴿ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ ﴾ (١) .

تكمل هذه العقيدة عقيدة الجزاء ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، حيث توفى كل نفس ما كسبت : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ (٢) .

إنسان صقلته عبادات الإسلام التى حررها من رق الكهنوت ، ومن احتكار الكهان ، وفتح بابها للاتصال بالله الواحد الأحد ، بلا وسيط ولا سمسار مزعوم : من صلاة تصله بالله كل يوم خمس مرات ، ومن صيام يربى إرادته ، ويعده لتقوى الله شهراً من كل عام . ومن زكاة تزكى نفسه ، وتطهرها من رجس الشُح والأنانية : ليصبح فى زمرة المنفقين مما رزق الله ، ومن حج يجمعه مرة فى العمر بغيره من المسلمين من أقطار الأرض حول أول بيت وُضع لعبادة الله .

إنسان هذَّبته أخلاق الإسلام ، وجمَّلت حياتَه آدابه ، ووضَّحت طريقَه قيمه ومفاهيمه ، ورَقَّته تربيته وتعليمه ، يعلم علم اليقين أن عليه حقوقاً لازمة ، نحو ربه ، ونحو نفسه ، ونحو والديه ، ونحو أولاده ، ونحو أقاربه ، ونحو جيرانه ، ونحو مجتمعه وأهل وطنه ، ونحو أبناء دينه ، ونحو بنى جنسه من البَشر ، ونحو الحيوانات المذلَّلة له ، بل نحو الكون كله ، المسخَّر له من فوقه ومن تحته ومن حوله ، فعليه أن يوازن بين هذه الحقوق وأن يعطى كل ذى حق حقه .

إنسان هيأت له « شريعة الإسلام » - بمقاصدها الجامعة ، ومبادئها المتوازنة ، وأحكامها العادلة ، وفقهها الرحب - مناخاً صالحاً ، تنطلق فيه حوافزه ، وتنمو فيه خصائصه ، وتزدهر فيه فضائله ، ويحمى فيه دينه ونفسه وعرضه وماله وعقله ونسله ، بما شرع الله من أحكام ، وما فرض من فرائض ،

---

(١) آل عمران : ٦٤ (٢) الزلزلة : ٧ - ٨

وما أحلَّ من حلال ، وحرَّم من حرام ، وأوجب من عقوبات ، أقام بها الموازين القسط بين الناس ، وحفظ بها مصالح العباد فى المعاش والمعاد .

* *

● إنسان أُسرة ومجتمع :

وإنسان الإسلام ليس راهباً فى صومعة ، ولا منقطعاً فى دير ، يتعبد لله حتى يموت ، دون أن يندمج فى المجتمع ، أو يتأثر به أو يؤثر فيه .

إن المسلم إنسان اجتماعى ، وأول ما يبدو من اجتماعيته : أنه عضو فى أسرة ، يتبادل معها الواجبات والحقوق .

فله على أبويه حق التربية والرعاية والإنفاق ، حتى يبلغ أشُدّه ، ويكتفى بعمله ، ويستقل عنهما .

ولهما عليه حق البر والطاعة والإحسان : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾ ، وخصوصاً فى حالة الكبر والشيخوخة : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيراً ﴾ (١) .

وله على إخوته - ولهم عليه كذلك - حق « صلة الرحم » و « إيتاء ذى القُربى » ، لا يجوز لهم أن يتدابروا ويتهاجروا ، أو يقول كل منهم : نفسى نفسى ! فالإسلام يعد ذلك من قطيعة الرحم التى هى من كبائر الذنوب ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى الأَرْضِ وَتُقَطِّعُواْ أَرْحَامَكُمْ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾ (٢) .

والمسلم حين يبلغ مبلغ الرجال ينبغى أن يسعى إلى الزواج ، وتكوين أُسرة مسلمة تكون إحدى الخلايا للمجتمع المسلم الكبير ، فما المجتمع المسلم إلا بيوت مسلمة ، وما الأُسرة المسلمة إلا أفراد مسلمون .

---

(١) الإسراء : ٢٣ - ٢٤ (٢) محمد : ٢٢ - ٢٣

وفى عهد النبوة نزع بعض الصحابة إلى لون من الرهبانية ، أرادوا فيه أن ينقطعوا عن المجتمع ليعبدوا الله بصيام النهار ، وقيام الليل ، واعتزال النساء ! فلم يكن من النبى ﷺ إلا أن جمعهم ووعظهم ، وقال لهم فى بيان صريح : « إنما أنا أخشاكم لله ، وأتقاكم له ، ولكنى أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سُنَّتى فليس منى »[(١)] .

وبهذا أعلن النبى الكريم أن لا رهبانية فى الإسلام ، كما حثَّ على الزواج فى أحاديث كثيرة ، منها الحديث المشهور : « يا معشر الشباب ؛ مَن استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغضّ للبصر ، وأحصن للفرج ، ومَن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء »[(٢)] .

وعلى المجتمع المسلم أن يعاون الشاب المسلم فى أمر الزواج ، حتى يغض بصره ، ويحصن فرجه ، ويجد فى ظل الزوجية السكون والمودَّة والرحمة التى ذكرها الله فى كتابه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُواْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[(٣)] .

وعندما يتزوج المسلم أو المسلمة ، يصبح عليه واجبات كما أن له حقوقاً ، وهو ما أشار إليه القرآن بقوله : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾[(٤)] .

وهى درجة القوامة والمسئولية عن الأسرة المشار إليها فى قوله تعالى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾[(٥)] .

---

(١) متفق عليه عن أنس ، اللؤلؤ والمرجان (٨٨٥) .

(٢) رواه البخارى عن ابن مسعود فى النكاح ، ومسلم مختصراً . انظر : اللؤلؤ والمرجان (٨٨٤) .

(٣) الروم : ٢١ (٤) البقرة : ٢٢٨ (٥) النساء : ٣٤

وكما أن المسلم عضو فى أسرته ، هو عضو فى مجتمعه ، لا يجوز - ولا يستطيع - أن ينفصل عنه ، فهو يأخذ منه ويعطيه ، ويستفيد منه ويفيده ، ولا ينبغى له أن يأخذ ولا يعطى ، وأن يستفيد ولا يفيد ، وأن يستهلك ولا ينتج ، أو يساعد فى الإنتاج بوجه من الوجوه .

إن الإسلام يغرس فى نفس المسلم وعقله : الشعور بالجماعة ، وضرورة الجماعة ، حتى إنه حين يصلى فى قعر بيته يناجى ربه قائلاً : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [1] وحين يدعوه يقول : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [2] .

فهو عند المناجاة والدعاء يستخدم صيغة الجماعة ، وإن كان وحده ، ذلك لأنه يستحضر جماعة المؤمنين فى ضميره ، ويتحدث بلسانهم وإن كان بعيداً عنهم ، ويسأل لهم الهداية والتوفيق مع نفسه .

وحين يُخاطَب المسلم بالتكاليف القرآنية يَخاطَب بها ضمن الجماعة المؤمنة : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ حتى يشعر بأنه جزء من كل ، وأنه معهم متضامنون فى تنفيذ أحكام الله تعالى ، فهى مسئولية جماعية .

حتى الأحكام التى هى من شأن أُولى الأمر مثل تنفيذ العقوبات وإقامة الحدود يُخاطَب بها المؤمنون جميعاً : ﴿ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا ﴾ [3] ، ﴿ فَاجْلِدُواْ كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [4] .. وغيرها من الآيات ، وذلك ليَحس الجميع حكاماً ومحكومين ، أنهم مسئولون مسئولية تضامنية عن إقامتها وتطبيقها كما أمر الله ، فإذا قصر الحكام ، لم يعف المحكومون من مسئولية النصح والتوجيه على الأقل ، ثم السعى الحثيث لإقامة حكم الله .

إن الإسلام يريد من المسلم ألا يفر من المجتمع بالعزلة والاختباء ، بل عليه المصابرة والكفاح ، حتى ينتصر الحق والخير ، وفى الحديث : « المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على اذاهم ، خير من المؤمن الذى لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم » [5] .

(1) الفاتحة : ٥
(2) الفاتحة : ٦
(3) المائدة : ٣٨
(4) النور : ٢
(5) رواه أحمد والبخارى فى الأدب المفرد والترمذى وابن ماجه عن ابن عمر ، كما فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (٦٦٥١) .

وقد جاء فى الحديث : « عليكم بالجماعة ، وإياكم والفرقة ، فإن الشيطان مع الواحد ، وهو من الاثنين أبعد ، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة »[1] .

فالخير فى الجماعة ، والشر فى الشذوذ والانفراد .

ومن ثَمَّ شرع الإسلام صلاة الجمعة والجماعة والعيدين والحج ، تأكيداً لمعانى الجماعة والتجمع فى الإسلام .

والمسلم باعتباره عضواً فى المجتمع ينبغى عليه أن يقدم له من نفسه وماله ومواهبه وقدراته كل ما يعود عليه بالنفع والخير ، وكل ما يدرأ عنه الضرر والشر .

ومن ثَمَّ جاءت الأحاديث النبوية الصريحة توجب على المسلم كل يوم صدقة ، على كل سُلامى منه ، أو مفصل من مفاصله ، وهى ليست صدقة مالية فتقتصر على الأغنياء ، ولا علمية فتختص بالمثقفين والعلماء ، بل هى صدقة اجتماعية عامة ، يؤديها كل إنسان بحسب قدرته واستطاعته .

ومن هنا لا تعرف « الأسر » المسلمة القطيعة أو الانفصال بين الوالدين والأولاد ، وأى قطيعة من هذا النوع تعتبر من « العقوق » الذى يعد من كبائر الإثم فى نظر الإسلام .

حتى الوالدان المشركان اللّذان لا يؤمنان بالإسلام ، ويجتهدان فى حمل ولدهما على الشرك ، يأمر الإسلام ألا يُحرما حقهما فى البر والمصاحبة بالمعروف : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا ، وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفاً ﴾[2] .

---

(١) رواه عن ابن عمر : أبو داود فى الجهاد (٢٥٢٨) ، والترمذى فى الفتن وقال : حسن صحيح غريب (٢١٦٣) ، وابن ماجه (٢٧٨٢) ، والحاكم ، وصحَّحه ووافقه الذهبى (٤/١٥٢ ، ١٥٣) .

(٢) لقمان : ١٥

ولا تقف الأسرة فى الإسلام عند الوالدين وأولادهما ، بل تتسع لتشمل ذوى الرحم وأُولى القُربَى ، من الإخوة والأخوات ، والأعمام والعمّات ، والأخوال والخالات ، وأبنائهم وبناتهم ، فهؤلاء لهم حق البر والصلة التى يحث عليها الإسلام ، ويعدها من أُصول الفضائل ، ويَعِد عليها بأعظم المثوبة ، كما يتوعد قاطعى الرحم بأعظم العقوبة ، فمَن وصل رحمه وصله الله ، ومَن قطعها قطعه الله .

وقد وضع الإسلام من الأحكام والأنظمة ما يوجب دوام الصلة قوية بين هذه الأسرة الموسعة ، بما فيها الأقارب ، بحيث يكفل بعضهم بعضاً ، ويأخذ بعضهم بيد بعض ، كما يوجب ذلك نظام النفقات ، ونظام الميراث ، ونظام « العاقلة » (ويراد به توزيع الدية فى قتل الخطأ وشبه العمد على عصبة القاتل وأقاربه) .

* * *

المجتمع الذى يُكوِّنه الإسلام

ويُقدِّم الإسلام إلى البَشرية كذلك - إلى جوار الفرد الصالح ، والأُسرة الصالحة - المجتمع الصالح ، مجتمع الإيمان والفضيلة . مجتمع المؤمنين الأطهار . الذين يعلون على جاذبيةِ المادة ، ويصلون حبالهم بالله ، ويتعايشون بمكارم الأخلاق ، ويتواصون بالعدل والشورى ، كما قال الله تعالى : ﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ * وَالَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (١) .

ومن دعائم هذا المجتمع ومُقوِّماته بعد العقيدة والعبادة :

● الإخاء والمحبة :

١ - الإخاء والمحبة ، وهذا مقتضى الإيمان الذى يربط بين أهله برباط العقيدة الوثيق : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (٢) ، وقد أثبت التاريخ والواقع أنه لا رباط أقوى من العقيدة ، وأن لا عقيدة أقوى من الإسلام .

وأدنى مراتب هذا الإخاء : سلامة الصدور من الحسد والبغضاء ، التى اعتبرها الحديث النبوى « داء الأمم » وسماها « الحالقة » ، ليست حالقة الشعر ولكن حالقة الدين .

وكلما عمقت جذور الإيمان ، امتدت فروع الإخاء وظلاله وثماره فى النفس والحياة ، وتحررت الأنفس من الأنانية المقيتة ، وتطلعت إلى العطاء لا الأخذ ، وإلى التضحية لا الغنيمة ، وفى الحديث : « لا يؤمن أحدكم حتى يُحب لأخيه ما يحب لنفسه » (٣) .

---

(١) الشورى : ٣٦ - ٣٨ (٢) الحجرات : ١٠

(٣) سبق تخريجه ، انظر هامش ص ١٦٢

وقد يرتقى ذلك إلى درجة الإيثار الذى وصف الله به مجتمع الصحابة بقوله : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (١) .

* *

● التعاطف والتراحم :

٢ - التعاطف والتراحم ، وهذا من ثمرات الإخاء الحق ، وهو ما صوّره الحديث الشريف أبلغ تصوير حين قال : « ترى المسلمين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء ، بالحمى والسهر » (٢) .

وفى الحديث الآخر : « لا يدخل الجنَّة إلا رحيم .. أما إنها ليست برحمة أحدكم صاحبه ، ولكنها رحمة العامة » (٣) .

وأوجب ما يكون العطف والرحمة للضعفاء من الناس من اليتامى والمساكين وأبناء السبيل ، ولهذا اعتبر القرآن من مظاهر الكفر والتكذيب بالدين القسوة على هؤلاء : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَٰلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ (٤) .

* *

● التساند والتعاون :

٣ - التساند والتعاون ، وهو المظهر العملى للإخاء والتراحم ، والتعاون الإسلامى مجاله البر والتقوى وليس الإثم والعدوان ، كما بيَّن ذلك القرآن الكريم : ﴿ وتعاونوا على البرِّ والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ (٥) ولهذا حرّم الإسلام الربا والاحتكار لما فيهما من استغلال القوى للضعيف .

---

(١) الحشر : ٩

(٢) متفق عليه وقد تقدم .

(٣) رواه البيهقى فى شعب الإيمان ، عن أنس . وذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٩٩٦١) ورمز له بالضعف .

(٤) الماعون : ١ - ٣

(٥) المائدة : ٢

وقد مثّل النبى ﷺ ذلك بقوله : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » (١) ، وهو يشمل التعاون بين أفراد الشعب وفئاته بعضهم وبعض ، أو بين الشعب والحاكم ،كما ذكر القرآن التعاون بين « ذى القرنين » ، وتلك الجماعة المهددة من « يأجوج ومأجوج » قال : ﴿ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدماً ﴾ (٢) .

* *

● التكافل والتضامن :

٤ - التكافل والتضامن : بحيث ينهض القوى بالضعيف ، ويعود الغنى على الفقير ، ولا يضيع عاجز ولا مسكين فى هذا المجتمع ، والحد الأدنى فى ذلك هو فريضة الزكاة - الركن الثالث فى الإسلام - والتى يقوم عليها حراس ثلاثة : حارس من داخل ضمير الفرد المسلم ، وهو الإيمان .. وحارس من داخل المجتمع ، وهو الرأى العام المسلم .. وحارس من قبَل الدولة ، وهو القانون والسلطان : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ (٣) .

وفى المال حقوق أخرى سوى الزكاة ، وبخاصة حق الجار على جاره ، بحيث يتكافل المجتمع له فى السراء والضراء .

وفى الحديث : « ليس بمؤمنٍ مَن بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع » (٤) .

والتكافل الإسلامى يستوعب كل جوانب الحياة - مادية ، ومعنوية - فهو تكافل معيشى وعلمى وأدبى وعسكرى إلى غير ذلك من المجالات التى فصلها الدكتور مصطفى السباعى رحمه الله فى كتابه « اشتراكية الإسلام » .

* *

● التواصى والتناصح :

٥ - التواصى والتناصح ، وهذا من التكافل الأدبى ، الذى يجعل كل مسلم مسئولاً عمن حوله من أبناء المجتمع ، ينصح لهم وينصحون له ،

---

(١) سبق تخريجه ، انظرها هامش ص : ١٦٣ (٢) الكهف : ٩٥ (٣) التوبة : ١٠٣

(٤) رواه البخارى فى الأدب المفرد ، والطبرانى فى الكبير ، والحاكم فى المستدرك والبيهقى فى السنن بألفاظ قريبة ، عن ابن عباس وذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٧٥٨٣) ورمز له بالصحة .

ويوصيهم بالحق والصبر ، ويتقبل الوصية منهم كذلك . وليس فى المسلمين أحد أكبر من أن يُنصح ، ولا أحد أصغر من أن يَنصح . وهذا من أساسيات الدين ، وموجبات الإيمان ، وشروط النجاة من الخسران ، وفى القرآن : ﴿ وَالْعَصْرِ * إنَّ الإنسَانَ لَفِى خُسْرٍ * إلا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ ﴾ (١) ، ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (٢) .

وفى الحديث : « الدين النصيحة : لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولائمة المسلمين وعامتهم » (٣) ، وفى الحديث الآخر : « المؤمن مرآة المؤمن » (٤) .

* *

● التطهر والترقى :

٦ - التطهر والترقى ، فالمجتمع المسلم مجتمع نظيف يربى أبناءه على الطهارة والعفة والإحصان ، ويُحرِّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ويعتبر الخمر والميسر ، رجساً من عمل الشيطان ، ويأمر المؤمنين والمؤمنات أن يغضُّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، وينهى عن التبرج والإغراء بالقول أو بالمشى أو بالحركة ، حتى لا يطمع الذين فى قلوبهم مرض ، وحتى لا يثير الغرائز الهاجعة ، فتنطلق تعيث وتعربد ، بلا قيود من خُلُق ولا دين .

والمجتمع المسلم ليس مجتمع ملائكة مطهَّرين ، ولكن مَن ابتُلِىَ منهم ، بارتكاب معصية ، استتر بها ، ولم يتبجح بفعلها ، أو بالإعلان عنها ، وبذلك ينحصر أثرها ، ولا يتطاير شررها ، ثم يُرجى منه بعد ذلك أن يتوب منها : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (٥) .

* *

● العدالة :

٧ - العدالة ، وتشمل عدالة التعامل بين الناس فى شئون الحياة ، فإن

---

(١) سورة العصر كاملة . (٢) التوبة : ٧١ (٣) رواه مسلم عن تميم الدارى .
(٤) رواه الطبرانى فى الأوسط عن أنس (صحيح الجامع الصغير : ٦٦٥٥) .
(٥) البقرة : ٢٢٢

العدل فريضة ، والظلم حرام ، كما في الحديث القدسي : « يا عبادي : إني حرّمتُ الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرّماً ، فلا تظالموا » [١] .

وتشمل العدالة الاقتصادية أو الاجتماعية التي تقف في وجه الأقوياء حتى لا يمتصوا دماء الضعفاء ، بل تعمل على الحد من طغيان الأغنياء ، بقدر ما ترفع من مستوى الفقراء ، وما تفرض لهم من حقوق في المال ، الزكاة ، أولها وليست آخرها .

وتشمل العدالة القانونية والقضائية ، بحيث يصل لكل إنسان حقه ، وإن كان عند خليفة المسلمين ، وأن يستوفى عقوبته على جرمه ، وإن كان ابن أمير المؤمنين : « وايمُ الله ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها » [٢] .

* *

● **مجتمع متقدم :**

٨ - ومن أهم ما يوصف به هذا المجتمع الذي ينشئه الإسلام : أنه مجتمع متقدم ، وليس مجتمعا متخلفاً بحال .

وهذا أمر يحتاج إلى تجلية وتوضيح ، فإن كلمة « تقدم » كلمة مطاطة ، قابلة لأكثر من تفسير ، والحضارة الغربية اليوم تزعم لنفسها أنها حضارة التقدم ، وأن مجتمعاتها مجتمعات متقدمة ، وأن مجتمعات المسلمين وغيرهم من أبناء ما يسمونه « العالم الثالث » كلهم من المتخلفين ، وقد يتلطفون معهم ، فلا يسمون بلادهم البلاد « المتخلفة » ، وإنما يسمونها « النامية » .

« ولا بد لنا أن نجيب بصراحة هنا عن موقفنا من التقدم - أو بعبارة أدق - عن موقف الإسلام من التقدم .

إن الإجابة عن هذا السؤال تقتضي منا أن نحدد أولا مفهوم التقدم فالحكم للشيء ، أو عليه ، فرع عن تصوره .

---

(١) رواه مسلم .　　　(٢) متفق عليه .

والتقدم فى معناه البسيط : أن يكون الإنسان قدام غيره ، أى فى جهة الأمام ، ويقابله : التخلف ، وهو أن يكون الإنسان فى خلف

والأمامية والخلفية من الأمور النسبية ، فقد تعتبر فى الأمام بالنسبة لشخص وراءك ، وتعتبر فى الخلف بالنسبة لشخص أمامك ، وقد تكون أمام مجموعة كلها من المتخلفين ، فأنت حينئذ أسبق المتخلفين ، كالسابق بين العرجان !

❊ ❊

● ارتباط التقدم بأهداف الحياة :

ولكن التقدم قد يُقاس بالنسبة لهدف يريد الإنسان أن يبلغه ، فكل حركة فى اتجاهه تُقرِّب إليه ، تُعَد تقدماً ، بخلاف أى حركة فى عكس الاتجاه الموصل إلى الهدف ، لأنها حركة إلى الوراء حتماً .

وكذلك التوقف والجمود فى موضع واحد لا يعدوه صاحبه ، لا إلى أمام ولا إلى وراء ، هذا فى حد ذاته تخلف ، لأن توقفك يعطى غيرك فرصة ليخطو خطوة أو خطوات إلى الأمام ، وأنت واقف فى مكانك ، فستتخلف أنت بقدر ما يتحرك هو . وخصوصاً أن الأصل فى الإنسان أنه حى متحرك ، والحركة دليل الحياة .

وهنا يبرز السؤال الكبير ، ما الهدف أو الأهداف التى يجب على البشر أن يبلغوها ويحققوها فى حياتهم ؟ حتى يكون القُرب منها أو البُعْد عنها مقياساً للتقدم أو التخلف .

❊ ❊

● الأهداف الأساسية للحياة الإنسانية :

إن الإسلام يجعل لحياة البشر على الأرض أهدافاً أساسية ، وأبرزها كما جاء بها القرآن العظيم - ثلاثة ، ذكرها الإمام الراغب الأصفهانى فى كتابه القيم « الذريعة إلى مكارم الشريعة » ، وهى :

١ - العبادة لله تعالى :

وفى هذا يقول الله فى كتابه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإنسَ إلا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (١) .

والعبادة تعنى الطاعة المطلقة للمعبود المتضمنة لكمال الحب له ، وكمال التعظيم له ، وهذا لا يكون إلا عن معرفة بقدره ، ومعرفة بحقه ، ولهذا قال ابن عباس فى تفسير قوله : ﴿ إلا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أى : ليعرفون .

وهذا صحيح ، فمن لم يعرف مَن يعبده ، لم يعبده حقاً ، لعله عبد غيره ، وهو لا يعلم ، وكم من أصحاب الملل والنحل مَن يزعمون أنهم يعبدون الله ، وحقيقة الأمر أنهم ما عبدوا إلا بعض المخلوقات فى الأرض أو فى السماء .

ومن ثَمَّ جعل القرآن غاية الخلق فى آية أُخرى هى معرفة الله تعالى : ﴿ اللهُ الَّذى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَات وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْماً ﴾ (٢) .

ولا تنافى بين هذه الآية والآية السابقة ، ما دامت العبادة لا تصح إلا بالمعرفة ، وما دامت المعرفة لا تتم إلا بالعبادة .

والعبادة لله لا تصح إلا بإخلاصها له ، فلا يُشرَك به ولا معه أحد ولا شىء .

ومعنى هذا : تحرير الإنسان من الخضوع لكل ما عدا الله ، ومَن عدا الله . تحرير الإنسان من عبادة الإنسان (الملوك والكبراء والرسل والأنبياء ، والأحبار والرهبان .... إلخ) . وتحرير الإنسان من عبادة المخلوقات غير المنظورة (الملائكة والجن والشيطان وغيرها) . وتحرير الإنسان من عبادة الأشياء (الطبيعة ، الكواكب ، الحيوانات ، الأشجار ، الأصنام) . وتحرير الإنسان من عبادة الذات : عبادة الهوى ، وشر إله عُبِد فى الأرض الهوى ..

---

(١) الذاريات : ٥٦ (٢) الطلاق : ١٢

والعبادة فى الإسلام - كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية - تشمل كل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال .

٢ - خلافة الله فى الأرض :

والهدف الثانى للبشر - حسبما ذكر القرآن - هو الخلافة فى الأرض ، وهذا ما خصَّ الله به آدم وذُرِّيته دون الخلائق جميعاً ، وهى رتبة تطلَّعت إليها الملائكة فلم ينالوها : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا ، إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ، فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (١) .

فدلَّت هذه الآيات على منزلة آدم ، وأن الله آتاه من المَلَكات والمواهب ما لم يؤته الملائكة المقرَّبين ، لأنه - دونهم - مؤهل للخلافة ، كما أشارت الآيات إلى أن التفوق العلمى هو المرشح الأول للخلافة .

وما معنى خلافة الإنسان لله فى الأرض ؟ معناها : أن ينفذ فيها أمر الله تعالى ويُقيم فيها الحق والعدل ، كما قال تعالى لعبده ونبيه داود : ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ (٢) .

وكل إنسان راعٍ فى دائرة معينة ، وإن لم يكن ملكاً كداود - فعليه أن يحكم بالحق فى حدود دائرته ، فمعنى خلافة الإنسان لله تعالى فى أرضه إذن : أن

---

(١) البقرة : ٣٠ - ٣٣ (٢) سورة ص ٢٦

بقيم الحق والعدل ويتخلق بأخلاق الله تعالى ، بقدر الطاقة البشرية ، أى أن على الإنسان أن يجاهد ويجتهد فى سبيل الترقى ، متمثلا نكسل الإنهى الأعلى أمامه ، فيهتدى به ، ويقتبس منه ، كما قال تعالى على لسان نبيه هود : ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [(١)] .

وإذا كان ربنا على صراط مستقيم ، فالإنسان المؤمن يجب أن يكون على صراط مستقيم كما قال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ، هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [(٢)] .

فالإنسان المذموم فى القرآن : إنسان سلبى عاجز ، لا يتكلم بحق ، ولا يقدر على شىء ، يأخذ ولا يعطى ، يستهلك ولا ينتج ، كَلٌّ على مولاه ، وعالة على غيره ، يُحمل ولا يحمل ، معطل الطاقات ، أينما ذهب لا يحقق خيرا ، ولا يفيد أحدا ، فهذا مثل السوء .

وفى مقابله الإنسان المحمود : الإنسان الإيجابى الفاعل ، الصالح فى نفسه ، المصلح لغيره ، فهو ينطق بالحق ، ويأمر بالعدل ، وهو فى الوقت نفسه على صراط مستقيم : منهج بيِّن ، موصل إلى الهدف ، لا ينحرف يمنة ، ولا يسرة ، فهو حين يأمر بالعدل يطبق العدل على نفسه ، وبهذا يكون حقاً على صراط مستقيم .

٣ - عمارة الأرض :

الهدف الثالث للبَشر : كما بيَّن القرآن ، هو عمارة الأرض ، وهذا ما نص عليه القرآن فى قوله تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [(٣)] ، ومعنى ﴿ اسْتَعْمَرَكُمْ ﴾ أى طلب عمارتكم لها .

وهذا جزء من مهمة الخلافة ، ومندرج فيها ، ولكن أُفرد بالذكر ، لئلا

---

(١) هود : ٥٦ (٢) النحل : ٧٦ (٣) هود : ٦١

يظن الناس أن الدين إنما يهتم بعمارة الآخرة وحدها ، ولو بخراب الدنيا ، والحقيقة أن الدنيا مزرعة الآخرة ، وأن هذه الحياة - وإن كانت قصيرة العمر بالنسبة إلى الحياة الآخرة - لها أهميتها ، لأن فيها التكليف والابتلاء والعمل ، فاليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل .

إن هذه المقاصد الثلاثة من خلق الله للإنسان : متكاملة ومتلازمة ، فعبادة الله تعالى جزء من خلافته ، والخلافة والعمارة ضرب من العبادة لله تعالى والمؤمن الحق هو الذى يجمعها كلها فى تكامل واتساق .

وبقدر ما يحقق الإنسان هذه المقاصد أو الأهداف يكون تقدمه حقاً ، وبقدر إخفاقه فيها كلها أو بعضها يكون تخلفه .

والإنسان فى حضارة الغرب قد استطاع أن يعمر الأرض ويعمل على أن تأخذ زخرفها وتتزين ، بل تغلو فى الزينة كالعروس ، بل تغرى بالزينة كالبغى ، وقد مكّن العلم الإنسان الغربى المعاصر من أشياء لم يكن أحد يحلم بها ، فملكه العجب ، وركبه الغرور ، وأوشك أن يظن أنه على كل شيء قدير ، وأن الآخرين فى العالم عبيد له ، لأنه هو المتقدم وهم المتخلفون . مع أن تقدمه جزئى لا كلى ، وقاصر ، لا كامل .

وما ذلك إلا لأنه فقد العنصرين الأولين : العبادة لله ، والخلافة عنه ، ... يغنه العنصر الثالث وحده ، بل ربما كان سبب هلاكه ودماره .

والمسلمون لم يحققوا التقدم المنشود فى الإسلام ، لأنهم فى الد... الأخيرة لم يقوموا « بعمارة الأرض » كما أمرهم الله ، ولم يرعوا سنن... فى خلقه ، فحكمت عليهم هذه السنن أن يسودهم غيرهم ، كما أنهم... يقوموا بحق « الخلافة » كما ينبغى ، فسحبت القيادة من أيديهم وسادهم... كانوا له سادة .

* *

● أحسن الوسائل لأفضل الغايات :

والإسلام لم يكتفِ بأن ربط المسلم بأفضل الغايات ، وأرفع المقاصد ، ولكنه أيضاً هداه إلى اتخاذ أمثل الوسائل ، وأحسن الأساليب ، فى الوصول إلى تحقيق مقاصده وأهدافه .

وهذا واضح لمن قرأ القرآن وتدبره .

إن القرآن يريد للإنسان المسلم أن يفتش دائماً عن أفضل الوسائل ، ويستخدم أمثل الأساليب ، سواء فى الدعوة ومجادلة المخالفين ، أو فى مدافعة الخصوم والمبتدئين بالسوء ، أو فى تنمية أموال القاصرين واستثمارها .

فلنستمع إلى هذه الآيات الكريمة :

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (١) .

فإذا كانت هناك طريقتان للمجادلة : حسنة ، وأحسن منها ، فالمسلم مطالَب أن يجادل بالتى هى أحسن .

ويقول تعالى : ﴿ وَلا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ، ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٢) .

فهو مطالَب أن يدفع سيئة المسىء بأحسن الطرق وأولاها بالتأثير فى نفسية المبتدى بالإساءة ، حتى ينقلب من معاد إلى صديق حميم .

ويقول سبحانه : ﴿ وَلا تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إلا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ (٣) .

---

(١) النحل : ١٢٥ (٢) فصلت : ٣٤

(٣) الأنعام : ١٥٢ ، الإسراء : ٣٤

فإذا كانت هناك طريقتان لتنمية مال اليتيم : إحداهما حسنة ، والأخرى أحسن ، فنحن مطالَبون باتخاذ الأحسن .

فـ « الأحسن » هو هدف الإنسان المسلم فى كل شىء ، ولهذا أثنى الله على أُولى الألباب المهديّين من عباده بقوله : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ ، وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ (١) .

وهذا ما أمر الله به عباده بقوله : ﴿ وَاتَّبِعُواْ أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ (٢) .

وأوضح من ذلك أن الله جعل غاية خلقه للأرض وما عليها من زينة ، وخلقه للموت وللحياة وللكون كله ، أن يبتلىَ الناس : أيهم أحسن عملاً ؟ كأن الذين يعملون السيئات لا مدخل لهم هنا ، وإنما الأمر يدور على المحسنين أيهم أكثر إحساناً لعمله من الآخر ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

لتقرأ هذه الآيات :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ (٣) .

﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ (٤) .

﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ (٥) .

كأن الابتلاء فى هذه المقامات لا يهدف إلى إبراز مَن حسن عمله بالنسبة إلى مَن ساء عمله ، بل الهدف هو إظهار مَن كان أحسن عملاً من غيره ،

---

(١) الزمر : ١٧ - ١٨ (٢) الزمر : ٥٥ (٣) الكهف : ٧

(٤) الملك : ٢ (٥) هود : ٧

فالسباق إذن ليس بين سيء وحسن ، بل بين حسنى العمل ، ومَن منهم أحسن وأمثل وأحكم من الآخرين ، التنافس يجرى حول الأحسن ، لا حول الحسن !!

* *

• تقدم متكامل

إن التقدم الذى يطلبه الإسلام للحياة : تقدم متكامل ، روحى ومادى ، أخلاقى وعمرانى ، دنيوى وأخروى ، علمى وإيمانى ، ولا يجد أى تعارض بين هذه المتقابلات ، بل هو يجمع بينها فى توازن واتساق .

إنه تقدم فى الأهداف والغايات ، وتقدم فى الوسائل والأساليب معا ، فالإسلام أحرص ما يكون على نظافة الوسيلة ، حرصه على شرف الغاية ، ولا يقبل بحال الوصول إلى الغايات النبيلة بوسائل خسيسة أو قذرة ، بل هو يرفض الوصول إلى الحق بطريق الباطل ، يرفض أكل الربا وكسب الحرام لبناء المساجد ، وتشييد المدارس ، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً .

وفى ضوء هذا المفهوم المتكامل للتقدم قامت الحضارة الإسلامية الشامخة التى جمعت بين الروائع المادية التى تمثلت فى مبدعات العمارة والفنون وغيرها ، وبين المعانى الإيمانية والأخلاقية التى كانت هى الدوافع الحقيقية وراء هذا الإبداع ، وكانت هى السند الروحى والمعنوى لهذه الحضارة التى لا تخطىء العين فى عامة مظاهرها ومنجزاتها : أنها حضارة ربَّانية ، محورها الإيمان ، وركيزتها الأخلاق .

* * *

إسـلام يتمثل فى أمة

إن الإنسانية اليوم - تحت سلطان الحضارة المادية - مهددة بطوفان كطوفان نوح ، يمكن أن يأتى على بنيانها من القواعد ، ولا بد لها من سفينة كسفينة نوح ، بها يعصمها الله من الهلاك والدمار .

ولن تكون هذه السفينة إلا رسالة الإسلام ، التى جعلها الله رحمة للعالمين وهداية للحائرين .

ولكن هذه الرسالة فى حاجة إلى أُمة تمثلها وتتمثلها ، وتعطى للبَشرية الأسوة والنموذج ، كما أعطت أُمة الإسلام فى القرون الأولى ، ودخلت الأمم فى دين الله أفواجاً .

أمة يتجسد فيها الإسلام ، توحيداً خالصاً ، وإيماناً صادقاً ، وعلماً نافعاً ، وعملاً صالحاً ، وخُلُقاً فاضلاً ، ودعوة إلى الخير ، وتواصياً بالحق والصبر ، وتعاونا على البر والتقوى ، وجهاداً فى سبيل ذلك كله ، حتى تكون بحق خير أُمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله .

أمة يرى الناس فيها نموذجاً حيا للمجتمع الإسلامى ، الذى طال انتظار ميلاده .

المجتمع الإسلامى بعقائده وتصوراته ، بشعائره وتعبداته ، بأفكاره ومشاعره ، بأخلاقه وفضائله ، بآدابه وتقاليده ، بقيمه ومُثُله ، بتشريعاته وقوانينه ، باقتصاده وماله ، بلهوه وفنونه [١] . وهو ليس مجتمع ملائكة ، ولكنه مجتمع بشر تحكمهم فى الأرض هداية السماء .

أمَّة وسط ، لا تنتمى إلى اليمين ولا إلى اليسار ، لا إلى الشرق الشيوعى

---

(١) انظر فى ذلك كتابنا : « ملامح المجتمع المسلم الذى ننشده » .

ولا إلى الغرب الرأسمالي ، أُمة متميزة الوجهة ، مستقلة الشخصية ، ﴿ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ (١) .

أُمَّة لا تعيش لنفسها ، ولا لهمِّ يومها ، ولا لملء بطنها ، بل تعيش لغيرها ، وتحمل على كاهلها همّ البَشرية المعذَّبة ، والإنسانية الحائرة ، فهى أُمة ذات رسالة عالمية ، لم تنبت من ذاتها ، بل أنبتها الله ، ولم تخرج كنبات البرية ، بل أخرجها الله ، ولم يُخرجها لنفسها ، بل أخرجها للناس ، وأرسلها برسالة نبيها رحمة للعالمين ، وهداية للناس أجمعين : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾ (٢) .

ولن تستطيع هذه الأُمة أن تقوم بدورها فى إنقاذ البشرية من سعار الحضارة المادية ، إذا أصابها هى من شررها وشرورها ما أصاب الآخرين من أدواء المادية والإباحية والنفعية والأنانية .

لهذا كان على هذه الأمة أن تحصن نفسها بالإسلام ، وأن تجدد شبابها بالإيمان ، وأن تعرض عما تشكو منه حضارة اليوم من أوصاب وأمراض ، وأن تنصر الله لينصرها الله ، ويُمكّن لها فى الأرض ، ويحقق لها وعده : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ ، إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلاةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ (٣) .

* *

● شرطان لا بد منهما :

لن تستطيع أُمتنا أن تقدم البديل للحضارة المعاصرة ، إذا هى قلّدت هذه الحضارة واتخذتها مثلها الأعلى ، واتبعت سننها شِبراً بشِبر ، وذراعاً بذراع ،

---

(١) النور : ٣٥ (٢) آل عمران : ١١٠ (٣) الحج : ٤٠ - ٤١

كما دعا إلى ذلك مَن دعا من قومنا ، فى وقت من الأوقات ، زاعمين أننا لن نسلك سبيل الرقى ، ما لم « نفن » فى الأوروبيين ، وما لم ننقل حضارتهم بجذورها وفروعها ، أو - كما قال - بخيرها وشرها ، وحلوها ومُرِّها ، ما يُحَب منها وما يُكرَه ، وما يُحمَد منها وما يُعَاب .

لقد أُريد لنا يوماً أن نتخلى عن هُويتنا العربية الإسلامية ، لنلحق بالبحر الأبيض المتوسط - وبعبارة أدق - بالشاطىء الأُوروبى منه .

كما يُراد اليوم أن ننسى هذه الهوية أو نتناساها ، لنلحق بما سموه « الشرق الأوسط » - وهو التعبير البديل للعالَم العربى والعالَم الإسلامى - حتى ننصهر مع « إسرائيل » فى بوتقة واحدة ، وتجمعنا حضارة « شرق أوسطية » جديدة ، لا تُفرِّق بين عربى وإسرائيلى ، ولا بين إسلام ويهودية ! وبذلك نفقد حضارتنا المتميزة ، ورسالتنا المتفردة ، ودورنا المنشود .

إنما تستطيع أُمتنا أن تقدم البديل إذا تمسكت « بمشروعها الحضارى المتوازن المتكامل » واستماتت فى الحفاظ على هُويتها ورسالتها ، وسيكون هذا فى صالحها ، وصالح البَشرية معها .

ليس معنى هذا أن تلفظ أُمتنا الحضارة الغربية كلها لفظ النواة ، وأن تقف موقف الرفض لكل منجزاتها العلمية والعملية ، بدعوى أنها حضارة مادية الوجهة ، علمانية النزعة ، نفعية الصبغة ، عدوانية الحركة .

فالواقع أن فى هذه الحضارة جوانب إيجابية لا بد لنا من الاستفادة منها ، ومن ذلك :

١ - العلم ، وتطبيقاته التكنولوچية ، وهو فى الحق بضاعتنا تُرَد إلينا ، فأُسسه قد اقتبست من حضارتنا ، ولكنه اليوم بوثباته الهائلة علم غربى بلا ريب .

٢ - حسن الإدارة والتنظيم لشئون الحياة ، وقد بلغوا فيه مبلغاً عظيماً .

٣ - العناية بحرية الإنسان الفرد وحقوقه ، ووضع الضمانات العملية

اللازمة لحمايتها ، من مخالب السلطات الحاكمة ، وتجاوزاتها ، وهذا من حسنات الديمقراطية السياسية الغربية ، وإن كان لدينا في أُصول حضارتنا ما يغنينا ، ولكن لا بأس بأخذ الأساليب والضمانات من القوم .

فهذه جوانب من حضارة القوم لا يسعنا إغفالها أو الإعراض عنها ، وإن كان علينا أن نُحوِّر في كل ما نأخذه منهم ، بالحذف والإضافة والتعديل ، حتى يتلاءم مع قيمنا ، وينسجم مع أوضاعنا ، ويفقد نسبه الأول ، ويندمج في كياننا الثقافي والحضاري .

وقد أقر النبي ﷺ أشياء كانت في الجاهلية ، مثل بعض أنواع النكاح ، والبيوع كالسَلَم ، والشركات كالمضاربة ، والعقوبات كالدية ، ولكنه أدخل عليها من الشروط والقيود ، ما جعلها إسلامية صرفا ، كما اقتبس المسلمون من الحضارات المجاورة ما انتفعوا به ، بعد أن تركوا من « بصماتهم » عليه ، ما جعله جزءاً من النظم الإسلامية .

هذا هو الشرط الأول لتقوم أمتنا برسالتها الحضارية .

أما الشرط الثاني فيتعلق بالبديل الذي تقدمه أُمتنا للعالَم الظامئ ، أعني : بالإسلام ورسالته الحضارية .

فإن كثيراً من المسلمين ظلموا الإسلام ظلماً مبيناً ، ومسخوه مسخاً شائناً .

فمن الناس مَن يريد أن يُفسِّر الإسلام تفسيراً يجعله « طبعة عربية » من الحضارة الغربية ، فهو يريد أن يأخذ الحضارة الغربية بكل قيمها وتصوراتها وأوضاعها ، ولكن بعد أن يخلع عن رأسها « القبعة » ليضع مكانها « العمامة » ! وبهذا يغدو « الخواجة » الأوروبي - أو الأمريكي - المادي النفعي الدنيوي « شيخاً » عربياً مسلماً !!

وهذا هو موقف « المدرسة التبريرية » التي تريد أن تُضفي الشرعية على الواقع الذي صنعه الغرب في أوطاننا . وزادت على ذلك ، بشرح الإسلام شرحاً يجعل المفاهيم الغربية والقيم الغربية ، مفاهيم إسلامية ! وقيما إسلامية ! وسوق النصوص قسراً لتأييد هذا التوجه .

إن هذا الاعتساف تحريف للإسلام من ناحية ، وتنفير للغربيين من الاهتداء بنوره من ناحية أخرى ، لأنهم لن يجدوا فيه بديلاً عن حضارتهم التى يشكون من ويلاتها ، بل سيجدون فيه روح هذه الحضارة ولبها فى ثياب عربية إسلامية !

وفى مقابل هؤلاء أناس يقدمون الإسلام فى صورة تقشعر من هولها الجلود ، وترتعد من قساوتها الفرائص ، وتوجل من ذكرها القلوب .

إنه الإسلام الذى يدعو إلى « الجبرية » فى العقيدة ، و« الشكلية » فى العبادة ، و« السلبية » فى السلوك ، و« السطحية » فى التفكير ، و« الحرفية » فى التفسير ، و« الظاهرية » فى الفقه ، و« المظهرية » فى الحياة .

إنه الإسلام المقطب الوجه ، العبوس القمطرير ، الذى لا يعرف غير العنف فى الدعوة ، والخشونة فى المجادلة ، والغلظة فى التعامل ، والفظاظة فى الأسلوب .

إنه الإسلام الجامد كالصخر ، الذى لا يعرف تعدد الآراء ، ولا يعترف بتنوع الاجتهادات ، ولا يقر إلا الرأى الواحد ، والوجه الواحد ، ولا يسمع للرأى الآخر ، ولا للوجهة الأخرى ، ولا يرى أحدهم أن رأيه صواب يحتمل الخطأ ، وأن رأى غيره خطأ يحتمل الصواب .

إنه الإسلام الذى لا يكاد يرى فى الإسلام إلا التشريع ، ولا يكاد يرى فى التشريع إلا الحدود .

إنه الإسلام الذى لا يعرف التسامح مع المخالفين فى الدين ، ولا يقبل الحوار مع المغايرين فى الفكر ، ولا يأذن بوجود للمعارضين فى السياسة .

إنه الإسلام الذى ينظر بريبة إلى المرأة ، فهو يدعو إلى حبسها فى البيت ، وحرمانها من العمل ، ومن المشاركة فى الدعوة والحياة الاجتماعية ، ومنعها من التصويت ، بله الترشيح للمناصب .

إنه الإسلام الذى لا يعنيه العدالة فى توزيع الثروة ، ولا توكيد قاعدة الشورى فى السياسة ، ولا إقرار الحرية للشعب ، ولا مساءلة اللصوص الكبار

عما اقترفوه ، لكن يشغل الناس بالجدال فى فرعيات فقهية ، وجزئيات خلافية ، فى العبادات أو المعاملات ، لا يمكن أن ينتهى فيها الخلاف .

إنه الإسلام الذى يتوسع فى « سطنة التحريم » حتى يكاد يجعل الحياة مجموعة من المحرَّمات ، فأقرب كلمة إلى ألسنة دعاته ، وأقلام كُتَّابه : كلمة « حرام » .

إن الإسلام بهذه الصورة القاتمة السوداء - الذى يقدمه بها نفر من أبنائه المخلصين غالباً فى نياتهم ، القاصرين فى أفهامهم - لن يمكنه القيام بدور « البديل » أو « الوارث » للحضارة الغاربة أو التى توشك على الغروب .

إن الإسلام المنشود ، هو « الإسلام الأول » .. إسلام القرآن و السُّنَّة ، سُنَّة النبى ﷺ وسُنَّة الراشدين المهديين من بعده .. إسلام التيسير لا التعسير ، والتبشير لا التنفير ، والرفق لا العنف ، والتعارف لا التناكر ، والتسامح لا التعصب ، والجوهر لا الشكل ، والعمل لا الجدل ، والعطاء لا الادعاء ، والاجتهاد لا التقليد ، والتجديد لا الجمود ، والانضباط لا التسيب ، والوسطية لا الغلو ولا التقصير .

إسلام يقوم على عقيدة روحها التوحيد ، وعبادة روحها الإخلاص ، وإخلاق روحها الخير ، وشريعة روحها العدل ، ورابطة روحها الإخاء ، وثمرة ذلك كله حضارة روحها التوازن والتكامل .

هذا الإسلام وحده هو حبل النجاة لنا وللبَشرية من ورائنا ، وهو القادر على إنقاذ سفينة الحضارة قبل أن تغرق ونغرق كلنا معها .

فهل تستطيع أُمتنا أن تقوم بالدور المطلوب منها ؟ وبعبارة أُخرى : هل تريد أن تقوم بهذا الدور ؟ بمعنى أن تتبنى الإسلام عقيدة ورسالة ومنهاج حياة ، فتحسن الفقه له ، والإيمان به ، والتطبيق له ، والدعوة إليه .

هذا ما نأمله ويأمله كل المخلصين ، وما ينتظره التاريخ منا ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) .

* * *

---

(١) فصلت : ٣٣

عقبات فى سبيل اهتداء الغرب بالإسلام

الإسلام وحده هو مركب النجاة للغرب ، وما يعانيه من أزمات روحية وخُلُقية ونفسية واجتماعية ، وهو وحده القادر على إنقاذ حضارة العصر من الغرق فى بحر الظلمات ، بحر المادية والنفعية والأنانية والآنية .

ولكن هناك ، للأسف ، عقبات كؤود تعوق الغرب ، وتحول بينه وبين الاهتداء بنورالإسلام .

● من هذه العقبات .. الزهو الغربى :

أول هذه العقبات هو الزهو الغربى ، فالغربى مزهو بنفسه ، ينظر إليها باستعلاء ، وإلى غيره بازدراء ، وسر ذلك أن الغرب قد ورث الحضارة الرومانية ، التى تقسم الناس كل الناس إلى صنفين : رومان وبرابرة - والرومان هم السادة ، والآخرون هم العبيد !

ومن هنا كان التمييز العنصرى - وفقاً للون والعِرق - أمراً أساسياً فى صلب الحضارة الغربية ، وكان الجنس الأبيض لديها هو الجنس المتفوق ، والجدير بالسيادة والهيمنة على غيره ، فهو قد خُلِق ليسود ويحكم ، وأما غيره فشأنه أن يُساد ويُقاد .

ورغم أن العلم قد نقض نظرية تفاضل الأجناس ، التى راجت يوماً ، فالعقل اللاواعى عند الغربى يتقبل هذه النظرية ويؤمن بها ، ويتعامل على أساسها ، وإن نافقوا الأجناس الأُخرى أحياناً بالمعسول من القول ، أو الجميل من الفعل ، ولكن كثيراً ما تندّ منهم كلمات أو تصرفات تكشف عن مكنون أنفسهم ، وحقيقة أفكارهم ومشاعرهم .

حتى نقلنا عن رجل مثل « آلكسيس كاريل » قوله بتفوق الأجناس البيضاء على غيرها من الأجناس الأخرى : سوداء أو ملونة !

وإذا كانت هذه نظرة الغربى إلى نفسه ، وإلينا ، فإنه يعز عليه أن يلتمس هدايته عندنا ، ويشق عليه أن يعتبر نفسه مريضا ، ونحن أطباؤه ، وبأيدينا دواؤه وشفاؤه !

ولا ريب أن الكبر أو العُجب من أعظم العوائق عن الإيمان ، وقد قال تعالى فى شأن فرعون وملئه وموقفهم من موسى وآياته : ﴿ وَجَحدُوا بِهَا واسْتَيْقَنَتْهَا أنفُسُهُمْ ظُلْماً وعُلُواً ، فانظُرْ كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُفْسِدِينَ ﴾ (١) ، وقال سبحانه : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِىَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيرِ الحَقِّ وإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وإِن يَرَوا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلا وإِن يَرَوْا سَبِيلَ الغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلا ﴾ (٢) .

* *

● الروح الصليبى :

وهناك شيء آخر يُضاف إلى العُجب أو الاستكبار الغربى ، وهو الحقد الصليبى المتوارث لدى الغربيين من قرون ، منذ انتصار المسلمين فى الحروب الصليبية ، وإخفاق غزواتهم التسع أن تحقق أهدافها ، وتمكن المسلمين أن يستردوا أرضهم بعد قرنين من الزمان .

بل نقول : إن هذه الروح قد سبقت الحروب الصليبية ، منذ بدأ اصطدام الإسلام بالنصرانية ، وانتصر عليها عسكرياً ودينيًا ، وانتزع منها أقطاراً عاشت قروناً فى ظل المسيحية ، ثم دخلت فى الإسلام لتحمل راية الدعوة إليه والدفاع عنه ، مثل الشام وفلسطين ومصر وشمال إفريقيا ، وكلها غدت قلاعاً للإسلام .

---

(١) النمل : ١٤ (٢) الأعراف : ١٤٦

لا أريد أن أستشهد بما قاله القائد البريطانى « اللّنبى » عندما دخل القدس سنة ١٩١٧ : اليوم انتهت الحروب الصليبية ! .. ولا بما قاله القائد الفرنسى « غورو » عندما دخل دمشق ووقف على قبر البطل المسلم صلاح الدين ، وقال كلمته : ها قد عدنا يا صلاح الدين ! ولا حاجة إلى ذلك ، فلدينا من الشواهد ما هو أقرب ..

إن هذه الروح هى التى نشهدها اليوم فى التعامل مع مسلمى « البوسنة والهرسك » الذين وقف الغرب - من مأساتهم ومن مذابحهم المنكرة - موقف المتفرج ، بل موقف المساعد المؤيد للصرب ، المدلين بقوتهم ، المغرورين بعَدَدهم وعُدتهم ، المعالنين بصليبيتهم ، الذين قالوا بصراحة : نحن فرسان الصليب ، نحن نقوم بخدمة لأوروبا كلها ، ندفع عنهم خطر الإسلام الزاحف عليهم من الشرق .

وقد وقفت أوروبا كلها معهم : روسيا الأرثوذكسية ، وفرنسا الكاثوليكية ، وبريطانيا البروتستانتية ، وحرموهم حتى من أبسط حقوق الإنسان : أن يدافع عن نفسه ، أن يكون له حق شراء السلاح ليحمى حرماته ، ويذود عن أعراضه أن تُنتهك ، وعن دمائه أن تُسفك ، وعن مساجده أن تُدمر ، وعن بيوته أن تُخرَّب ، وعن مزارعه ومصانعه أن تحرق .

وحُجَّتهم فى منع وصول السلاح إلى المسلمين غاية فى الغرابة ، وهى المنع من مزيد سفك الدماء ! أى ليظل سفك الدماء من جانب واحد هو جانب المسلمين المعتدَى عليهم !!

وبعد أكثر من سنتين من القتال والتضحيات ، طالبت أمريكا برفع الحظر عن تسليح المسلمين فهددت فرنسا وبريطانيا بسحب قواتهما من الأمم المتحدة !!

بماذا نُفسِّر ذلك يا أُولى الألباب إن لم تكن وراءه الروح الصليبية الحاقدة ؟

وشاهد ثان هو : مقاومة الغربيين عامة لباكستان أن تملك قوة نووية ، مع أن جارتها وغريمتها الهند قد ملكت هذه القوة ، والصين قد ملكتها ،

وإسرائيل أيضاً ، ولكن لا بأس أن يملك النصارى واليهود والهندوس والبوذيون القنبلة . أما المسلمون فلا ، ثم لا .

وشاهد آخر نذكره فى هذا المقام ، وهو موقف فرنسا من الطالبات المسلمات المحجبات فى مدارسها ، وثورة الإدارات المدرسية على هؤلاء التلميذات الملتزمات بآداب دينهن ، وهياج الرأى العام الذى تثيره الصحافة وأجهزة الإعلام ضد المسلمين فى فرنسا ، والذين يزيد عددهم على الأربعة ملايين نسمة .

ولقد قال وزير التربية الوطنية فى تصريحات له ، أخيراً : إننا لن نسمح بأى « رموز دينية » فى مدارسنا ، وإن الحجاب للفتيات المسلمات يمثل رمزاً دينياً بارزاً ! وإن فرنسا لن تفرط فى علمانيتها بالسماح بمثل هذه الرموز . . إلى آخر ما قال !

وكنا نعلم قبل ذلك : أن العلمانية الليبرالية تقف موقفاً محايداً من الدين ، لا تدعو إليه ، ولا تحرض عليه ، لا تواليه ولا تعاديه ، بخلاف العلمانية الشيوعية فهى معادية للدين .

ولكننا فوجئنا بموقف فرنسا - أم الحريات !! - من الدين إذا كان الدين هو الإسلام ، فانقلبت من الحياد إلى العداء ، فهى بهذا تفرض على المسلمة أن تتخلى عن دينها ، وأحكام شرعها ، وفرائض ربها ! فالواقع أن الحجاب ليس رمزاً دينياً بحال ، بل هو التزام دينى مفروض من الله تعالى على كل مسلمة حريصة على إرضاء ربها ، ومَن تخالف هذا مُعرَّضة لسخط الله تعالى وعذابه ، يقول الله تعالى فى كتابه : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ (١) .

---

(١) النور : ٣١

والدولة الإسلامية تُلزم المسلمة أن تلتزم الحجاب استجابة لأمر الله تعالى ، أما الدولة العلمانية فتترك لها الحرية تلبس ما تشاء ، فما سر هذا الموقف من الوزير الفرنسى ومَن يؤيده ؟

إنه ينظر إلى الموضوع بعين العصور الوسطى ، وأنه تحدّ إسلامى ، وأنه رمز دينى ، وهو فى هذا واهم بلا ريب ، ومخطىء بلا نزاع .

هذا مع أن من الطالبات مَن يحملن رموزاً دينية صريحة مثل « الصليب » ولا يؤمرن بخلعه ، فلماذا الحجاب وحده ؟؟!!

إن الرمز هو الذى لا يكون له وظيفة غير أنه شعار وإعلان ، مثل القلنسوة (الطاقية) على رأس اليهودى ، والصليب على صدر النصرانى ، أما الخمار - أو الحجاب - على رأس المسلمة ، فله وظيفة معروفة ومحددة هى الستر والاحتشام ، المأمور به من رب العالمين .

إن الحضارة المثلى هى التى تسع المختلفين فى دياناتهم وثقافاتهم ، كما صنعت الحضارة الإسلامية ، فهى لم تفرض على ذى دين أن يتخلى عن شىء يفرضه عليه دينه ، كلا ، بل تسامحت فيما هو أكثر من ذلك ، فسمحت للمخالفين بالأشياء التى يُحرِّمها الإسلام إذا كانت مجرد حلال فى دينهم ، وليست فرضاً ولا واجباً ، مثل أكل الخنزير وشرب الخمر ، وشعار المسلمين فى ذلك هذه الكلمة الجليلة : اتركوهم وما يدينون ! فما أعظم الفَرْق بين الحضارتين !!

لقد تمثلت الروح الصليبية فى مواقف لا تُحصى : موقف الغرب من إسرائيل وقضية فلسطين ، وانتصار الثورة الإسلامية فى إيران ، وفوز الإسلاميين فى انتخابات الجزائر ، وتحكيم الشريعة الإسلامية فى السودان ، وغيرها وغيرها . . حتى قال نيكسون فى كتابه « نصر بلا حرب » بصراحة : « إذا كانت هناك حرب يتمنى الإنسان أن تكون ، فهى الحرب العراقية

الإيرانية ، وإذا كانت هناك حرب يتمنى الإنسان آلا ينتصر فيها أحد فهى الحرب العراقية الإيرانية » ! يعنى أن يظلوا يقتتلون حتى يفنى كلاهما الآخر .

* *

● الخوف من الإسلام :

ومن العوائق التى تحجز الغرب عن تقبل رسالة الإسلام : حاجز « الخوف من الإسلام » وبعبارة أخرى : اعتبار الإسلام « خطرا » يهدد الغرب ، وينذره بالويل والثبور .

وهذا ما يتردد اليوم على ألسنة كثيرين من قادة الغرب وساستهم ، الذين عبرَّوا عن الإسلام بـ « الخطر الأخضر » فى مقابل « الخطر الأحمر » الذى كان يمثله الاتحاد السوفييتى ، و« الخطر الأصفر » الذى تمثله الصين .

وبعد تفكك الاتحاد السوفييتى ، ودخول « الدب الروسى » فى القفص الأمريكى ، واقتراب الصين من الغرب ، بدأ كثير من العقول الغربية تبحث عن « عدو جديد » يستثير حماسها ، ويحشد قواها فى مواجهته ، حتى لا تسترخى عضلاتها ، ويخلد إلى الدعة والراحة أهلها ، فيصيبهم العجز والكسل من ناحية ، ويشتغل بعضهم ببعض من ناحية أخرى .

وكان العدو الجديد المرشح ليحل محل « دولة الشر » الروسية - كما سماها الرئيس الأمريكى الأسبق ريجان - هو الإسلام .

* *

● المكر الصهيونى :

ولقد ساهمت إسرائيل ، وساهمت الصهيونية ، وساهم اللوبى الصهيونى الأمريكى ، بدور ملحوظ فى التنبيه على هذا الخطر المزعوم ، والتخويف منه ، والتهويل من شأنه ، بالتذكير بفتوحاته فى الماضى ، والتضخيم من أمر صحوته فى الحاضر ، والتحذير من تنامى قوته فى المستقبل .

وحتى يتم المكر الصهيونى ، قالوا لحكام البلاد الإسلامية : نحن لا نعنيكم بحديثنا عن الخطر الإسلامى ، إنما نعنى هذا الشيء الآخر الذى يهددنا ويهددكم جميعاً : إنه « الصحوة » كما يسمونها عندكم أو « الأُصولية » كما نسميها عندنا .

وهنا تقدمت إسرائيل للغرب - الذى لم تغب عن ذاكرته نتائج الحروب الصليبية ، ولم ينس اليرموك وفتح الشام وبيت المقدس وعمورية - لتقول له : أنا وكيلك فى المنطقة ، وحارسك الخاص من المارد الإسلامى ، الذى يوشك أن يخرج من قمقمه ، أنا المتكفلة بمواجهة « الأصولية » الإسلامية ، فاعتبرونى هنا مخلبكم ونابكم . .

هكذا قالت إسرائيل للغرب ، وهكذا قالت للهند ، فنصرت الوثنية على دين التوحيد ، كما فعل آباؤهم من قبل حين قالوا عن المشركين من عُبَّاد الأصنام : ﴿ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ ، وَمَن يَلْعَنِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً ﴾ (١) .

فإذا كان الغرب يعتبر الإسلام عدواً يتربص به ، وخطراً يجب الاحتشاد لمحاربته ، أو على الأقل لمحاصرته وتقليص دوره ، وتخضيد شوكته ، فكيف يفتح عينيه للإسلام ليرى ما يقدمه من نور ، أو يفتح أُذنيه ليسمع ما يعرضه من دعوة ؟

* *

● الأمل فى العقلاء والمنصفين :

إن الأمل معقود بالعقلاء من الغربيين الذين تحرروا من العُجْب الغربى ، والحقد الصليبى ، والكيد الصهيونى ، والذين خلعوا المنظار الأسود من فوق أعينهم ، ونظروا إلى الأُمور نظرة موضوعية محايدة ، ونظروا إلى الإسلام

---

(١) النساء : ٥١ - ٥٢

كما ينظرون إلى غيره من الأديان ، ونظروا إلى المسلمين كما ينظرون إلى غيرهم من أهل الشرق والغرب .

وهذا ما نشهده فعلاً اليوم من بعض المنصفين المعتدلين الذين أنصفوا الإسلام ، وأنصفوا المسلمين ، ناقدين لموقف قومهم المتعصب .

وبعض هؤلاء انتهى بهم البحث والدراسة والتأمل إلى اعتناق الإسلام ، كما رأينا ذلك فى أمثال « روجيه جارودى » و« وموريس بوكاى » من فرنسا ، و« د . مراد هوفمان » أستاذ القانون وسفير ألمانيا فى المغرب ، ومؤلف كتاب « الإسلام كبديل » [1] .

ومنهم مَن بقى على دينه ، ولكنه تحرر من العصبية ، مثل الأمريكى المعروف « چون أسبوزيتو » صاحب كتاب « الوهم والحقيقة فى الخطر الإسلامى » والذى خلص فى نهايته إلى نفى مقولة الخطر ، واعتبارها وهماً .

وهؤلاء الكُتَّاب الإنجليز الذين كتبوا فى الصحف والمجلات البريطانية - خلال شهرى يوليو وأغسطس ١٩٩٤ - مقالات ضافية ودراسات تحليلية وافية ، ضد الذين يُخوِّفون الغرب من الإسلام ، ومن « الأُصولية الإسلامية » دون تفريق بين المتطرفين والمعتدلين ، ودون دراسة لواقع المسلمين : چون كيسى فى « التلجراف » وديليب هرنر فى « الأوبزرفر » وكيث وارد ، و ك . ك . أوبريان فى « الآند بندنت » ، وهذا غير الدراسة التى قدمتها « الأيكونوميست » [2] وهى أهم وأشمل ، فقد كانت هى الملف الأساسى للعدد ، وعنوان غلافه ، وقدمت له بهذه الجملة : « عند الإسلام ما يمكن أن يقدمه للغرب ، ويثرى به تجربته » ، كما ختم « هرنر » مقالته بقوله : إن الغرب بمساعدته للاستبداد

---

(١) نشرته مجلة النور الكويتية ومؤسسة بافاريا الألمانية .

(٢) نشرت ملخصاً لها نشرة « منتدى الفكر العربى » التى تصدر فى عمان - عدد سبتمبر ١٩٩٤

فى العالَم الإسلامى ، إنما يُشعل جذوة التطرف ، ويهيىء لها أسباب التوسع والانطلاق !

وقد كان هذا التوجه الإيجابى المنصف موضوع مقال للكاتب الإسلامى المعروف الأستاذ فهمى هويدى فى صحيفة الأهرام وغيرها من الصحف العربية فى (١٩٩٤/٩/٢٠) تحت عنوان : « لماذا الخوف من الإسلام » ؟ وهو عنوان إحدى تلك المقالات .

وقبل هؤلاء رأينا هذا التوجه المتعاطف مع المسلمين ، المنصف - إلى حد كبير - لدينهم ورسالتهم ، المقدِّر لإسهامهم فى الحضارة ، ودورهم فى التاريخ - عند ولى عهد بريطانيا الأمير « تشارلز » ، كما تجلى ذلك فى خطابه التاريخى الذى ألقاه فى أكتوبر ١٩٩٣ فى مركز « أوكسفورد » للدراسات الإسلامية ، بعنوان « الإسلام والغرب » [(١)] .

* *

● الوهن الإسلامى :

وقبل هذه العقبات توجد عقبة أعظم خطراً ، وأبعد أثراً من كل ما ذكرنا ، وهى عقبة من داخل المسلمين لا من خارجهم ، هى ما نسميه : الوهن الإسلامى ، ضعف المسلمين المتفشى الماثل للعيان ، والظاهر لكل إنسان ، يلمسه أهل الغرب فى ديار العرب والإسلام كافة : إنه الضعف العلمى ، والضعف الاقتصادى ، والضعف السياسى والاجتماعى والإدارى . . وقبل ذلك : الضعف الإيمانى والأخلاقى ، الذى يراه الغربيون فيمن يحتك بهم من الحكام والكبراء ، الذين يسرقون الملايين - وربما عشرات ومئات الملايين - من

---

(١) نشر مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية ، نص الخطاب باللغة الإنجليزية ، كما نشر ترجمته العربية ويمكن أن يطلب منه لمن أراد .

أقوات شعوبهم عن طريق الرشا السافرة والمقنعة ، التى يسمونها باسم خفيف ظريف « العمولات » !

ويراه الغربيون كذلك فى أولئك المترفين والمنحلين الذين لا يذهبون إلى الغرب إلا للركض وراء الشهوات ، ولا يعرفون فى أوروبا إلا الموائد الخضر والليالى الحمر .

إن بعض الغربيين يرى هؤلاء الناس فى بلاده فيحسب أنهم كل المسلمين ، فإذا زار بلاد المسلمين سائحاً أو لعمل ما ، رأى القذارة والاضطراب والفوضى ضاربة أطنابها فى كل جنبات الحياة ، فتنطبع فى نفسه صورة دميمة عن الإسلام ورسالته ، فمعظم الناس لا يمكنه أن يفصل بين المبدأ وصاحبه ، ولا بين الدين وأهله ، ولا يدركون أن الإسلام حُجَّة على المسلمين ، وليس المسلمون حُجَّة على الإسلام !

وهذا ما قاله الدعاة المصلحون من قبل : إن المسلمين هم الذين يمثلون أغلظ حجاب يستر الإسلام عن أعين الآخرين .

وهذا ما جعل أحد الغربيين ممن عرف الإسلام عن طريق القراءة والدراسة ، ثم أراد أن يتعرف عليه أكثر ، فزار بعض البلاد الإسلامية ، ففوجئ من أحوال المسلمين بما لم يكن يتوقعه ، فقال كلمته المعبِّرة والمؤثرة : الحمد لله الذى عرَّفنى الإسلام قبل أن أعرف المسلمين !

* *

● الأمل فى الصحوة :

وأملنا كبير فى « الصحوة الإسلامية » المعاصرة : أن تعمل بجد وعزم لتنتقل أمة الإسلام من ضعف إلى قوة ، ومن فقر إلى رخاء ، ومن فوضى إلى نظام ، ومن استبداد إلى شورى ، ومن تفرق إلى اجتماع ، ومن هزل

إلى جد ، ومن هدم إلى بناء ، ومن تفكك وتخاذل إلى تناصر وتعاون على البر والتقوى ، ومن تخلف مادى إلى تقدم متكامل فى الماديات والمعنويات .

وهذه الصحوة قادرة على أن تفعل الكثير إذا هى جنَّدت طاقاتها للعمل لا للجدل ، وللعطاء لا للمراء ، وللتشييد لا للتقويض ، وللتجميع لا للتفريق ، وشغلت أبناءها بالأصول والكليات عن الفروع والجزئيات ، وبالقضايا المصيرية عن المعارك الجانبية ، ونقلتهم من المختلف فيه إلى المتفق عليه ، ومن الأحلام المتخيلة إلى الواقع الممكن ، ومن التعالى على المجتمع إلى التغلغل فيه ، وجعلت أكبر شغلها التوعية والتربية ، وتغيير المجتمع من داخله ، أى تغيير ما بنفسه ، حتى يُغيِّر الله أوضاعه ، وفقاً لسننه تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (١) .

هذا أملنا فى الصحوة ، وندعو الله تعالى أن يحقق أملنا فيها ، وأملنا بها .

﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً ﴾ (٢) .

﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ، إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ (٣) .

* * *

---

(١) الرعد : ١١ (٢) الكهف : ١٠ (٣) آل عمران : ٨

محتويات الكتاب

الفصل الثالث : عقلاء الغرب يدقون أجراس الإنذار
(٩٣ - ١١٦)

الفصل الرابع : الحضارة التى ينشدها العالم
(١١٧ - ٢٠٥)

الصفحة



رقم الايداع ١٩٩٥/٥٦١٨

I.S.B.N 977-225-077-2

مؤلفات فضيلة الدكتور : يوسف عبد الله القرضاوى